نزار أسعد هارون

سوريا التي عرفت

حاوره: نعمان صاري

سوريا التي عرفت

نزار أسعد هارون

سوريا التي عرفت

دار الفارابي

الكتاب: سوريا التي عرفت
المؤلف: نزار أسعد هارون
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ – الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيار ٢٠١٧
ISBN: 978-614-432-703-6

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

الإهداء ٩

شكر وعرفان ١١

تقديم: ..... عرفان نظام الدين ١٣

نزار هارون الذي عرفت ..... المحامي عمر زين ٢١

المقدمة ٢٥

الفصل الأول : صرخة ضمير ٣٣

الفصل الثاني : إطلالة على الأمس القريب ٥٥

الفصل الثالث : بين الجلاء والوحدة مع مصر ١١٣

الفصل الرابع : ملامح عن سوريا التي عرفت ١٥٥

الفصل الخامس : مواقف ورجال ١٨٥

معدّا الكتاب ٢٣٧

المُلحق الوَثائِقي ٢٤١

الإهداء

إلى جيل من أجيال سوريا رحل بعد أن اصطفى من رجاله من قدم حياته وجهده لتحقيق رفعة الوطن واستقلاله، وجيل قادم من أجيال سوريا لا بد أن يصطفي من رجاله من سيحمل راية إعادة تكوين الوطن، أهدي هذه الصفحات.

إلى روح والديّ أسعد هارون وسميحة شوقي شاهين عرفاناً لما تعلمته منهما وورثت عنهما من مبادئ وقيم، وإلى أسرتي التي أحب وأقدر، رفيقة الدرب ليلى مدرس التي كانت أمنيتي أن تطّلع على هذه الصفحات قبل رحيلها عنا سبباً من أسباب رغبتي في سرعة إنجازها لكن إرادة الله شاءت، وإلى أولادي ضحوك وأسعد وطلال أهدي أيضاً هذه الصفحات.

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر إلى كلّ من شجعني على كتابة هذه الصفحات وأخص بالشكر محاوري الأستاذ نعمان صاري الذي بذل من الوقت والجهد والمتابعة ما جعل ظهور هذه الصفحات بشكلها النهائي ممكناً.

والشكر الكبير للصديق الكاتب الكبير الأستاذ عرفان نظام الدين الذي تفضل بمنح وقته لقراءة هذه الصفحات والتعليق عليها ما جعلها أكثر غنى . وأيضاً للمحامي الصديق الأستاذ عمر زين الأمين العام السابق لاتحاد المحامين العرب الذي كان لي شرف العمل معه مهنياً ومن خلال النشاط التنظيمي لاتحاد المحامين العرب تلك العلاقة التي انقلبت صداقةً ومودةً، على الكلمات المعبرة التي تفضل بها بتقديمه الكتاب.

والشكر لكلّ من ساهم في جهد أو رأي أو مناقشة أو مرجع خلال إعداد الكتاب، وهم كثر من أصدقاء وزملاء ومعارف.

تقديم

بقلم الكاتب العربي الأستاذ عرفان نظام الدين

سوريا التي عرفنا

سوريا التي أحببنا

أجمل هدية يتلقاها إنسان، تلك التي تأتي في الوقت المناسب والمكان المناسب والظرف المناسب والشخص المناسب تماشياً مع مقولة «حسن في أوانه كلّ شيء». ففي الليالي الظلماء نفتقد البدر، وخصوصاً بدر سوريا الحبيبة، ثم يأتي قبس من نور مع الهدية القيمة التي يقدمها لوطنه وأهله الأخ والصديق المحامي اللامع نزار هارون سليل العائلة الكريمة في اللاذقية، على الساحل السوري البديع، ونجل الزعيم الوطني على امتداد الوطن السوري الوزير والنائب الراحل أسعد هارون.

إنّه كتاب «سوريا التي عرفت» الذي جاء في وقته بعد سنوات عِجاف شهدتِ البلاد فيها مآسي دامية وتعرض العباد لألوان العذاب وآلام جراح الوطن الحبيب. وقد شرفني المؤلف الكريم بطلب تقديم لأزيد على عنوانه الشيّق والمعبر إضافة عاطفية:"وسوريا التي أحببنا» تيمناً بما عبّر عنه شاعرنا الراحل الكبير نزار قباني من عواطف وحب بقوله:

آهِ يَا شَامُ كَيْف أَشْرَح مَا بي وأَنَا فِيك دَائماً مَسْكُون
حَامل حُبها ثَلاثين قَرْناً فَوقَ ظَهْري وَمَا هُنَاكَ معِين
شَامُ يَا شَامُ يَا أَمِيرَةَ حُبي كَيفَ يَنْسى غَرَامَه المجنون

أَو مَا عبّر عنه الشاعر المبدع الرّاحل بدوي الجبل ابن الساحل:

وَيَا رَبِّ تَدْرِي الشَامُ أني أُحِبُّها وَأَفنى وَحُبي لِلشَامِ يَدُومُ

وأيضاً ما لخصه الشاعر الكبير الراحل سعيد عقل ببيت من الشعر قال فيه:

يَاشَامُ مَا المجدُ؟.. أَنتِ المجدُ لَمْ يَغبِ.

ومن هنا تكمن أهمية هذا الكتاب لأنّه يقدّم لنا صورةً مشرقةً ومشرفةً عن سوريا الوطن والحضارة والتاريخ والشعب الأبيّ، ويحيي ذاكرة السوريين والعرب بتقديم سردٍ تاريخي وثائقي وموضوعي شفاف عن الحقيقة الساطعة التي حاول البعض تشويهها، وتتضمن صورة أخرى مخالفة لما أفرزته سنوات الحرب ومآسيها وأنهار الدم والعنف والأحقاد وطفيليات الإرهاب.

وكم كنّا بحاجة إلى من يوقظ فينا الضمير ويواسينا بمسح دمعة الأسى ويستبدلها بفرحة الفخر وابتسامة الاعتزاز بتاريخ مجيد ونضال فريد وتجارب مشرفة تَقدُ المواطن السوري كمواطنٍ وفيٍّ وابنٍ بارٍ يعشقُ الحرية ويسعى لتحقيق الديمقراطية ويناضل من أجل الاستقرار وبناء دولة المؤسسات، ويبدع في مجالات العطاء الفكري والفني والأدبي والاقتصادي كافة، ويتميّز بالزراعة والصناعة فيما

يتنافس رجالات السياسة في العهود الديمقراطية في خدمة الوطن بإخلاصٍ وتجردٍ وأمانة.

هذه هي سوريا التي عرفناها وأحببناها وقدم لنا الأستاذ نزار بعض جوانب تألقها وميزاتها: حضارة راسخة في جذور تراب الوطن حاول البعض أن يجتز آثارها ويحرق قيمتها الفكرية والدينية والاجتماعية المعتدلة والمتسامحة حيث لا مكان للتطرف والعنف بل تسامح وفتح الأذرع لكلّ أخٍ وصديق. والتاريخ يشهد كيف حملت سوريا بين جناحيها كلّ من لجأ إليها طالباً الأمان في بلد الأمان بلا تمييزٍ ولا عنصريةٍ ولا طائفيةٍ بل وحدة فريدة تضم المسلم والمسيحي بكلّ مذاهبه وأطيافه والكردي والعربي والشركسي والتركماني.

إنّها سوريا التي عرفناها تحتفي بأيّ أخٍ عربي تعرض لضيم والمثل الحيّ على ذلك استقبال الأمير عبد القادر الجزائري وأهله وأنصاره بعد أنْ لجأوا إليها نتيجةً لاضطهاد الاستعمار الفرنسي فتحولوا مع أميرهم إلى أهل بيتٍ وعزٍّ ما زالت جذوره راسخةً في أعماق الوطن، ومن بعدهم جاء الفلسطينيون والعراقيون واللبنانيون وغيرهم ليعاملوا كأخوةٍ وأبناء مكرمين معززين وذابوا في بوتقة الوطن وأصبحوا قطعة منه دون أن يفقدوا خصوصياتهم.

وهذا ما نلحظه عندما نسمع عن عائلاتٍ عريقة مثل: المصري والبغدادي والقدسي والمقدسي والموصلي واليافي والنابلسي والخليلي والطنطاوي وطنطا والصيداوي والطرابلسي والبيروتي والمغربي والجزائري والتونسي والحجازي والسلطي واليمني وغيرهم.

وفي هذا الكتاب صفحات مشرقة من تاريخ سوريا المنسي، كما عرفناها، وربّما لم تدركها الأجيال المتعاقبة، عن عهود النهضة والديموقراطية والشخصيات الوطنية التي عرفت بالوفاء والإخلاص والعطاء والتفاني وبذل الغالي والرخيص لصيانة الوطن وإنجاح التجربة الديمقراطية التي أجهضت بسبب الصراعات الداخلية والأطماع والتدخلات الخارجية وقيام دولة العصابات الصهيونية في فلسطين وما تبع ذلك من انعكاسات وانقلابات عسكرية متوالية أضعفت الجيش الوطني وهزت التوازنات وقضت على هذه التجربة النقية المتميزة التي لم يشهد مثلها العرب حتى يومنا هذا.

وفي هذا الكتاب القيم سرد تاريخي ووثائقي وسجل موضوعي في حوار متكامل يقدم فيه المؤلف شريط ذكرياته، كما هي، عن مسيرة البلاد وأحداثها ورجالاتها في مرحلة مهمة انطلاقاً من تجربة شخصية عاشها بنفسه أو شهد الكثير من خفاياها عندما كان التنافس مشرفاً بين الأحزاب والقيادات، وكان مجلس النواب المنتخب وفق أفضل معايير النزاهة والشفافية يجمع بين اليمين واليسار والإخوان المسلمين وحزب البعث والحزب الشيوعي وجميع أطياف المجتمع واتجاهاته وعشائره، وكان الأخوة المسيحيون، على اختلاف مذاهبهم، يشاركون بكلّ مفصلٍ من مفاصل الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والنقابية.

ولا مجال هنا للتوسع أكثر في الشرح وذكر الأسماء والشخصيات وأدوارها، وأكتفي بالإشارة إلى أهم حدث في تاريخ

سوريا ووصول الزعيم الوطني المرحوم فارس الخوري إلى منصب رئيس الوزراء بدعم وترحيب من الجميع.

والحديث عن السياسة والديمقراطية يطول، لكن الأهم فيه هو ما يورده المؤلف في شريط ذكرياته عن شخصيات لعبت أدواراً بارزةً وعن القيم والمبادئ التي كانت سائدة. وعن التضحيات والإخلاص والتطور والنمو الذي شهدته سوريا عقب الاستقلال بعد سنوات من الكفاح ضدّ الاستعمار الفرنسي.

وهذه الجهود الخيرة لم تقتصر على العمل السياسي بل تعدته إلى النشاطات الفكرية والاجتماعية والنقابية والخيرية. وشمل التطور الصناعة بكل أنواعها والزراعة وشمل الأدب والشعر والفن.

برز عدد كبير من المبدعين أذكر منهم: عمر أبو ريشة وبدوي الجبل ونزار قباني وأدونيس وسليمان العيسى وعبد السلام العجيلي ومحمد الماغوط ومحمد كرد علي والشيخ علي الطنطاوي وإلياس مقدسي إلياس وزكريا تامر وياسين رفاعية ومن الأديبات الروائية غادة السمان وكوليت خوري..... وغيرهم.

وبرز الدور الكبير والفاعل للمرأة السورية جنباً إلى جنب مع الرجل، وتميزت في مختلف المجالات والمهن فيما كانت جامعة دمشق المرجع الأول للشباب العرب كأفضل جامعة ولاسيما في كلّيتي الطب والحقوق.

أما الصحافة، وهي من اختصاصي. فأعتقد جازماً أن سوريا شهدت خلال الأربعينيات والخمسينيات ومنتصف الستينيات نهضةً

كبرى فسبقت مثيلاتها من الدول العربية، وكانت هناك صحف كثيرة من مختلف الاتجاهات وشخصيات إعلامية مميزة مثل نصوح بابيل ونجيب الريس وسعيد تلاوي وسعيد العاص وأحمد عسة أصحاب صحف شهيرة مثل «الأيام» «والعلم» و«القبس» و«الرأي العام» و«المنار»، كما صدرت صحف أخرى في حلب وحمص واللاذقية والقامشلي. بل إن سوريا شهدت صدور صحف الإثارة والصحف الشعبية مثل «دمشق المساء»، وكانت هناك الصحف الانتقادية اللاذعة مثل «المضحك المبكي» الكاريكاتورية اللاذعة لصاحبها المرحوم حبيب كحالة ونجله الفنان سمير كحالة. وأعتقد أنّها كانت تتمتع بشهرة واسعة لجرأتها ما جعلها الأكثر مبيعاً في مرحلة معينة. كما شهدت سوريا صدور صحف فنية ناجحة مثل «الدنيا» لصاحبها المرحوم عبد الغني العطري واشتهرت أيضاً مجلة طبية شهرية هي الأولى في نوعها وأسلوبها العلمي والحضاري وهي «طبيبك» لصاحبها المرحوم الدكتور صبري قباني.

هذا الواقع جعل من سوريا مرسى للصحافيين العرب الذين كانوا يتدربون ويعملون في الصحافة السورية ثم يعودون إلى بلادهم ليصبحوا من المشاهير مثل سعيد فريحة وسليم اللوزي وغيرهما.

وبعد هذا غيض من فيض، في هذا الكتاب المهم الذي آمل أنْ يشكّل أيقونة المكتبات السورية والعربية ويعيد إلى ذاكرة الأجيال الصورة المشرقة لسوريا التي عرفنا وسوريا التي أحببنا داعين الله

عز وجل أن يخرجها من محنتها بعد أن تركت وحيدةً ليُعبّر عنها الشاعر بقوله:

كُـلُّ الـبِـلادِ إذا تَـأَلَـمَ أَهْـلُـهَـا هَبت شُعوبُ الأرضِ دُونَ تَواني
إلّا عَلَى الشَامِ الشَريفِ فَإنَّهم شَحَذوا سِهَامَ الخُذْلِ وَالبُهْتَانِ

وأختم كما بدأت مع شاعرنا الرائع نزار، خير معبّر عن حبنا لسوريا الوطن والقيمة والحضارة والوحدة الوطنية:

يَا شَامُ إنْ كُنتُ أُخفي مَا أُكَابِده فَأَجمَل الحُبِّ ـ حُبٌ بَعدُ مَا قِيْلا

وأختم بشكر المحامي والأديب الصديق الأستاذ نزار هارون على هذه الهدية القيّمة لوطنه ولكلّ مواطن سوريّ وعربيّ لعلّ كتابه الشيّق يكون بداية الصحوة لتصحيح الصورة الناشئة عن تراكماتِ السنين ومعولاً للهدم لنتعرف معه إلى سوريا التي عرفناها وأحببناها، والله ولي التوفيق.

عرفان نظام الدين

نزار هارون الذي عرفت

تقديم بقلم الأستاذ المحامي عمر زين
الأمين العام السابق لاتحاد المحامين العرب

رجل من رجالات سوريا الكبار، حمل رسالة المحاماة بكل مسؤولية، وعمل في الدفاع عن المظلومين وأصحاب الحقوق من كل نوع وجنس وعمر ولون، لا فرق عنده بين غني وفقير، حمل الرسالة مرتكزاً على مستوى راقٍ من الأخلاق والعلم والوطنية، اكتسبها من والده وعائلته، فهو ابن الدوحة الهارونية التي ضمت بين صفوفها صنفاً من السياسيين والعلماء والأدباء والمناضلين والوطنيين كانت الأمة العربية وما زالت بحاجة إليهم، لتنهض وتتقدم بين الأمم، إنه الزميل الصديق الصدوق الأديب والخطيب المفوه الأستاذ نزار أسعد هارون ابن اللاذقية عروس البحر الأبيض المتوسط.

رجل نقابي بامتياز، أعطى من وقته وجهده وعلمه كل ما يرفع شأن مهنة المحاماة العربية، والمحامين السوريين والعرب. فكان قائداً بين زملائه المحامين، ونموذجاً ناجحاً، فنال تقديرهم ومن سار على طريقه نجح في حياته المهنية والاجتماعية، وهو في هذا الكتاب الجامع أضاء للأجيال التي ترغب في أن تمارس

مهنة المحاماة على قواعدها، وهي المثابرة على القراءة والمطالعة والمحافظة على كرامة المهنة وكرامة المحامي، والإلمام بالقضايا وفق قواعدها التي أرساها آباء المهنة، إلى جانب الاهتمام بالشأنين الوطني والقومي، والزميل نزار الذي سار على هذا الدرب في مدينة اللاذقية لم ينحصر نشاطه فيها، بل تعداها إلى كل سوريا، وإلى كل أرجاء الوطن العربي، حيث شارك بفعالية علمية ومهنية في مؤتمرات اتحاد المحامين العرب أيام المد القومي الوحدوي، حيث لعب دوراً رئيسياً في المناقشات والمقررات المهنية والوطنية والقومية التي حملها رجال تلك المرحلة من النقباء والمحامين الأفذاذ الذين افتقدناهم وافتقدنا أمثالهم لاحقاً لأسباب متعددة، حيث أراد الزميل نزار هارون أن يكون هذا الكتاب مخصصاً لذاكرته السياسية والوطنية، وهو المتابع عن قرب للحركة السياسية والقومية منذ الخمسينيات من خلال والده الذي لعب دوراً هاماً في تحقيق الوحدة السورية المصرية، حيث انضم خلالها الزميل الأستاذ نزار هارون إلى العمل السياسي والقومي ما قبل الوحدة وخلالها، كما أشار إلى ذلك في كتابه.

وحيث كان المد القومي آنذاك بأعلى درجاته، لا يعرف العنصرية ولا المذهبية ولا الطائفية، ويقف سداً منيعاً ضد التطرف والعنف والإرهاب، متمسكاً بالوحدة والحرية والقيم الاجتماعية، فأطلعنا الزميل نزار على الأحزاب العاملة في سوريا حينذاك وعلى رجالاتها ودورهم السلبي والإيجابي من وجهة نظره، وأضاء على سيرة من

الشخصيات السياسية ليس في اللاذقية فقط بل في كل سوريا، ودور الطبقة الوسطى في العمل السياسي والوطني في مرحلة الخمسينيات والستينيات، وأكد خلال سرده الأحداث التي عرفها وعاشها عن قرب من سياسية واجتماعية وثقافية وأدبية وقانونية التي كانت سائدةً آنذاك، كما أكد أيضاً القيم الحضارية والتاريخية والوطنية والعربية لسوريا ودورها العربي وعلاقتها بلبنان في تلك الفترة من القرن الماضي، ومشيراً إلى أن العلم والنضال الوطني هما الطريق الصحيح للارتقاء الاجتماعي والنهضوي والوظيفي للشعوب.

شكراً للزميل العزيز الأستاذ نزار أسعد هارون لإطلاعنا على هذا الكتاب في جزءٍ مهم من ذاكرة وطن لعلّ وعسى أن يكون ذلك حافزاً لأبناء أمتنا أن يطلعوا الأجيال على ما عرفوه من أسرار ومواقف وخلفيات عن مراحل مرت فيها الأمة بحيث يشكل ذلك خزاناً لتاريخها تستفيد منه الأجيال لصنع مستقبلها.

المحامي عمر زين
الأمين العام لاتحاد المحامين العرب (سابقاً)
رئيس المنظمة العربية لحماية ومساندة
الصحافيين وسجناء الرأي
عضو المكتب الدائم لاتحاد الحقوقيين العرب

المقدمة

إذا كان لابدّ لكلّ كتاب من مقدمة تضيء على محتوياته، وإذا كانت العادة جرت أن يقوم بذلك شخص أو أشخاص معروفون، فقد آثرت شخصياً أن أجمع بين تلك المقدمة وبين أن يقوم كاتب أو مهتم بتقديم آخر للكتاب، على أن مهمة التقييم والنقد النهائي متروكة للقارئ يستخلصها مما يطّلع عليه والانطباع الذي يتركه هذا الاطلاع.

طبعاً اعتماد ذلك الأسلوب لا يعفي الكاتب أو المحاور من تعريفٍ بسيطٍ لمضمون الكتاب ومبرراته.

بدايةً أشير إلى أن جيلنا (وأنا من مواليد عام ١٩٣١) وُلد ونشأ في ظلّ صراعات داخلية وخارجية على سوريا وحولها ثم داخلها كما هي الأحوال الآن، لكنّني أسمح لنفسي أن أصف هذا الجيل بأنّه جيل النضال لمعاصرتي، وإن بسن مبكرة، مرحلة الصراع مع الانتداب الفرنسي لنيل الاستقلال وإقامة الكيان الوطني السوري المستقل السيد، ثم وفي ظلّ الدّولة الوطنية النضال، الذي كان محوره تثبيت الحياة السياسية القائمة على التعدّدية وحرّية الرّأي مترافقاً مع المطالب الاجتماعية كحقوق المرأة وحقوق الطبقات الفقيرة والعمال والفلاحين وحقّ التعليم وغير ذلك من مطالب

سياسية واجتماعية واقتصادية، كانت محور نضال أبناء هذا الجيل عبر سنوات الشباب وما بعده.

هل قطف جيلنا ثمرة نضاله وعمله وسعيه خلال تلك السنوات الطوال، أم إنّه يستحق بجدارة لقب (جيل الخيبات) كما يحلو للبعض أن ينعت ذلك الجيل مستنداً إلى عدم القدرة على تحقيق الأهداف الكبرى التي سعى إليها وأوّلها حلم الوحدة العربية، ناهيك عن عدم القدرة على إكساب الدولة الوطنية نفسها قيم الحرية والتعددية، ثم لنصل خلال السنوات القليلة الماضية إلى شبح تفكّك الدولة الوطنية نفسها وما يرافق ذلك مع الأسف من بروز وطغيان الاتجاهات الطائفية والعشائرية والفئويّة!!.

لا أدري إذا كان ثمّة دور لي وأنا ابن هذا الجيل أن أحكم عليه بالنجاح أو الفشل أو بنسبة ما بينهما أم إن ذلك متروك للتاريخ لكي يصدر حكمه، لا سيّما أنّنا اليوم في جلجلة عظيمة تثير حولها من الغبار ما يحجب الرؤية حتى لذوي البصائر، ولعل الأسطر التي أضعها بين يديك، قارئي العزيز، تحمل في طيّاتها بعضاً من رؤيتي لهذا التقييم أتركه لاستنتاج مَنْ يريد الاستنتاج.

على أنّني أودّ التوضيح أنّ من جملة دوافعي لكتابة الأسطر التي بين يديك قارئي العزيز، عدا عن انتمائي إلى هذا الجيل الذي أتحدث عن سنوات وأيام عاشها، هو أنني وجدت نفسي منذ بدأ تفتح وعيي على الدنيا ضمن عائلة تعمل في الحقل العام ومنذ ثلاثة قرون وإن لم يتسن إلى اليوم الإضاءة على ذلك من خلال دراسة

متأنية يكون هدفها دراسة الجو العام والبيئة المحيطة من خلال انخراط الأسرة في الحقل العام منذ العهد العثماني حتى الانتداب الفرنسي، ومن ثم الحكم الوطني حتى مرحلة الانقلابات، وتبيان التأثر والتأثير بين رجال تصدّوا للعمل العام خلال تلك السنوات الطوال وبين المجتمع المحيط بهم. إنّني آمل أن يتاح في قادمٍ قريبٍ من الأيام لمن يتصدّى لمثل هذه الدراسة لا بهدف إبراز أشخاص وأسماء محددة، بل بهدف دراسة اجتماعية تلقي الضوء على الواقع المحليّ والمحيط الأوسع من خلال حركة هؤلاء الرّجال في واقعهم المحلي ومحيطهم الأوسع، دراسة تسدّ فراغاً كبيراً لتلك الفترة من فترات التاريخ التي شهدها هذا الجزء العزيز من بلاد الشام، وأقصد الساحل السوري، مع ما شهده من أحداث مفصليّة خلال الفترة العثمانية وحملة إبراهيم باشا وصولاً إلى انتهاء الوجود العثماني مع نهاية الحرب العالمية الأولى وما تلا ذلك من أحداث معروفة بعناوينها العريضة، كلّ ذلك لم يسلّط الضوء عليه بما يكفي ويفيه حقّه، لتبيان تفاصيله الاجتماعية والاقتصادية.

على أنّه وبانتظار تلك الدّراسة الموضوعية، إذا قيض لها أن تبصر النور، فلا بأس من إيراد بعض من المعلومات التي احتوتها بعض من الكتب والمراجع والدراسات حول شخصيات من الأسرة لعبت دوراً في الحياة السياسية والاجتماعية في اللاذقية ومنطقة الساحل ومن ثم على مستوى الوطن السوري حين بدأ الحديث عنه بالظهور ككيانٍ سياسيّ مستقل مع مطلع عشرينيات القرن الماضي.

لعلّ اسم مصطفى هارون من أول الأسماء التي بدأت تظهر في الكتابات ويتمّ الإشارة إليها في المدوّنات والمذكرات. حيث أورد إلياس صالح في مؤلفه الشهير (تاريخ الحقب في لاذقية العرب) أنّه أثر فتنة حدثت عام ١٨٠٥م تمّ تعيين مصطفى هارون (تفنكجي) أو ما يمكن تسميته اليوم رئيس ضابطة أو رئيس قسم شرطة[١]، ولقد استمر ظهور هذا الاسم في التاريخ المحلّي للمدينة حتى تاريخ وفاته عام ١٨٣٤م، ومن الغريب أنّ الإشارات عنه في الكتب والمدونات تراوح بين كونه في السلطة أو سجيناً أو منفياً!!. كما تسجل المراجع تعيينه متسلماً لطرابلس عام ١٨٢٩م. إلّا أنّ حملة إبراهيم باشا على سوريا عام ١٨٣١م أبعدت مصطفى هارون عن واجهة الأحداث ليعود إلى الظهور متضامناً مع حركة (البهلولية) ضدّ حكم إبراهيم باشا، تلك الحركة التي انضمت إليها فيما بعد مختلف مناطق ريف اللاذقية ولتقمع من قبل عساكر إبراهيم باشا عام ١٨٣٤م، وهو العام الذي توفي فيه مصطفى هارون، وثمّة من يعتقد أنّه ربّما توفي أثناء مشاركته في الثورة ضدّ عساكر إبراهيم باشا وإن كان إلياس صالح في مؤلفه المشار إليه يورد الخبر دون نفي أو تأكيد.

بعد انتهاء حملة إبراهيم باشا عادت شخصيات من العائلة إلى الظهور في الأحداث ومنهم كنج هارون، ويورد إلياس صالح أن كنج هارون كان محتجزاً في بيروت عام ١٨٥٢م عندما اضطرت السلطات إلى إرساله لإنهاء قضية تمّ فيها احتجاز نساء إحدى العائلات البيروتية الأرمنية المعروفة أثناء مرورهن باللاذقية في

طريقهن إلى إستانبول وذلك بعد أن فشل متسلم اللاذقية في حل المشكلة، ويعدّ إلياس صالح أن ذلك مؤشر على العلاقة الجيدة التي تربط كنج هارون بسكان المناطق الجبلية المحيطة باللاذقية، كما ظهر في أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي اسم محمد آغا هارون الذي عمل رئيساً لبلدية اللاذقية بالانتخاب المباشر من الشعب، وكان يعرف عنه أنّه من الإصلاحيين.

عام ١٨٧٢ م تبدأ إشارات إلى اسم أسعد هارون بالظهور في المخطوطات والوثائق التي تغطي تلك الفترة، كما يظهر اسم علي هارون ومحمود هارون خلال انتخابات مجلس مدينة اللاذقية عام ١٨٧٣م، كما تظهر الإشارة إلى العلاقة المميزة بين أسعد هارون ومتصرف اللاذقية ضياء باشا صاحب النظرة الإصلاحية لا سيّما في مجال نشر التعليم وإنشاء المدارس في ريف اللاذقية وجبالها، كما ظهر اسم عزيز آغا هارون الذي قاد ثورة يمكن أن نسمّيها بلغة هذه الأيام بالجناح العسكري للحركة الوطنية الاستقلالية التي قادتها الكتلة الوطنية وعلى رأسها عبد الواحد هارون ما قد يرد تفاصيل عن ذلك لاحقاً، وهذه الثورة أي ثورة عزيز هارون دعمت بالمال والعتاد والرجال والسياسة ثورة إبراهيم هنانو التي تعتبر وبحق الثورة الوطنية الشفافة، وكذلك ثورة الشيخ صالح العلي التي شكّلت نهجاً حديثاً في الساحل السوري ما زالت مفاعيله الإيجابية قائمة حتى تاريخه حيث أسهمت في دعم اللُحمة الوطنية بين أفراد المجتمع الساحلي وطوائفه ما دعا زعماء الحركة الوطنية للإنارة عليها وإقامة

الحفلات التكريمية للشيخ صالح العلي من بعد وفاته حتى تاريخه، وكان أهمها تلك التي أقيمت في اللاذقية عام ١٩٤٦ في قاعة سينما أمير حينذاك، وكان رئيس لجنة التكريم أسعد هارون وقطب تلك اللجنة وحركتها السياسي الوطني عبد اللطيف اليونس ممّا سنأتي على تفاصيله لاحقاً.

مع مطلع القرن العشرين يظهر اسم عبد الواحد هارون ليس فقط كزعيم محلي بل بما يتجاوز ذلك حيث انتخب في مجلس المبعوثان العثماني (مجلس النواب) في انتخابات عام ١٩٠٩ م على أثر إعلان الدّستور العثماني، ويقول يوسف الحكيم في مؤلفه عن تلك الفترة إن عبد الواحد هارون حمل لقب أفندي وهو يطلق على المتعلمين بدلاً من لقب آغا الذي كان يوصف به ملاك الأراضي، وكان، حسب يوسف الحكيم، أوّل مسلم يتقن اللغة الفرنسية في المنطقة وهو من رأس الحكومة المحلية بعد الانسحاب السريع للأتراك من المدينة في شهر تشرين الأول عام ١٩١٨م وهو من أوائل من دعا إلى الوحدة السورية وناضل من أجلها ضدّ مساعي فرنسا لتشكيل دويلات على أسس مناطقية وطائفية.

ولقد استمر اسم عبد الواحد هارون في الظهور ليس كزعيم محلي فقط بل كشخصية وطنية من خلال انتمائه إلى ما كان يعرف بالكتلة الوطنية التي سعت ونجحت في نيل الاستقلال التام عن فرنسا عام ١٩٤٦ م، لكنّ عبد الواحد كان قد توفي عام ١٩٤٣م وقبيل تحقيق الاستقلال التام وزوال فترة الانتداب الفرنسي عن

سوريا، ولم يتح له معايشة ورؤية ثمرة جهوده التي قضى قسماً كبيراً منها في المعتقلات ليخلفه ولده أسعد هارون الذي تابع مسيرة والده في العمل ضمن نطاق الكتلة الوطنية التي انتظمت أغلبيتها في تنظيم الحزب الوطني والذي أصبح نائباً ووزيراً عدة مرات، وكان آخرها في عام ١٩٥٨م وهي الوزارة التي وقّعت الوحدة السورية المصرية، واستمر في لعب هذا الدور في الحياة السياسية إلى أن تغير الجو السياسي مع نهاية عهد الوحدة وأصبح هذا التغير ملحوظاً أكثر بعد عام ١٩٦٤ م.

مرةً أخرى ما أوردته في هذه العُجالة عن تلك الشخصيات ليس الهدف منه الجانب الشخصي البحت وإنما مدى الارتباط بالأحداث المحلية والوطنية التي كانت لهذه الشخصيات خلال ثلاثة من القرون وهو ما أشرت إليه سابقاً في تلك المقدمة من أنّ من جملة دوافعي لهذه الشهادة التي ضمنها هذه الصفحات، أنني وجدت نفسي منذ بدأ تفتح الوعي الاجتماعي والسياسي ضمن أسرة انخرطت في العمل العام لسنوات طوال. على أنّ الغاية الأساسية هي بعض من الجهد المتواضع أبذله ربّما كان مع جهود مخلصين آخرين، وهم كثر في وطننا، يتضافر ليقدم رؤى تكون عوناً على خلاص الوطن من محنته التي قلّ أن تعرضت أوطان لمثلها. ويعلم الله أنّها جهود مبرأة من كلّ غاية شخصية أو مطمع ذاتي أو رغبة خاصة، وإذا كان ثمّة دافع شخصيّ فهو لا يعدو إلّا الرّغبة الملّحة في أن نشهد رايات السلام قد عادت إلى ربوع سوريا شاملة بظلالها كلّ

فئات وأبناء الوطن ينعمون بإطارٍ اجتماعيّ وسياسيّ عنوانه الكرامة والحرية وسيادة القانون والتوزيع العادل للثروة، ألم تكن تلك هي العناوين التي ناضل من أجلها جيلنا؟

ولقد اخترت أن يكون أسلوب إعداد هذا الكتاب بشكل حوار بيني وبين معدّه لما لهذا الأسلوب من ميزة تكمن في تصويب بعض الأفكار والعودة إلى تدقيق تواريخ ومجريات الأحداث وهو ما اقتضى جلسات طويلة من الحوار والمناقشة والتقصي والعودة إلى المراجع بل الاتصال الشخصي بالعديد من الأشخاص الذين هم على اطلاع أو صلة بمضمون ما يتمّ الحوار حوله.

كلّي أمل -قارئي العزيز- أن تجد في هذه الصفحات التي هي بالنتيجة خلاصة تجربة حياة ما يغني معرفتك عن الوطن الذي أحببت والذي آمل أن تكون مساهمتي تلك سبباً من أسباب نهوضه بعد ما أحاطت به وبنا خلال السنوات القليلة الماضية من مآس ونكبات وموت ودمار وتشرّد آن له أن يتوقف عند حدّ.

نزار أسعد هارون

اللاذقية ٦/ ٣/ ٢٠١٦

الفصل الأول

صرخة ضمير

إن الحرب في سوريا تهدّد بضياع جيلٍ كاملٍ ما يجعل عودة الحياة الطبيعية إلى المجتمع ومشاريع إعادة الإعمار بعد توقف القتال أمراً غاية في الصعوبة.

أنطونيوس غوتيريس، مفوّض الأمم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين

لا أملك غير صرختي في هذا العراء القاتم أطلقها لعلّ وعسى أن تجد صداها مع ثقتي بأنّ آلاف الآهات والصرخات تنطلق من الحناجر والقلوب محمّلةً برجاءٍ واحدٍ مفاده: كفى عبثاً، لنُحكّم ضمائرنا، لنعد إلى إنسانيتنا، لنتجاوز عن ضغائننا. نحن في قاربٍ واحدٍ لا ينفع معه التفكير الفرديّ في النجاة والهروب من المركب. لنبدأ معاً مسيرة سوريا الجديدة، سوريا التاريخ والإرث الحضاريّ، سوريا التعايش رغم الاختلاف، سوريا التي عرفتها وأدمنت حبّها.

العنوان الذي اخترته لهذا الكتاب (سُوْرِيَّةَ الَّتي عَرَفْتُ) ربّما جاء بتأثير ما تشهده (سوريتنا) من أحداثٍ مؤسفةٍ ما كانت ربّما لتخطر على ذهن أشدّ المتشائمين من أبنائها، هل هو هروب من واقع سوداوي إلى ماض أكثر إشراقاً، أو لعلّه تشبّث بصورة وطن كان برغم سلبيات ونواقص تعتري جوانبه إلّا أنه حمل مشروع حلم وطريق مستقبل واعد يمكن تخيّل الوصول إليه. وإذا كان كلا مساريّ الواقع والحلم قد شهدا منذ سنوات طوالٍ افتراقاً وتباعداً، إلّا أنّ الأحداث والملمّات التي شهدناها أخيراً وما زلنا نعيش سواد وقائعها شكلت نقطةً مفصليةً جعلت مجرد بقايا الأمل الذي كنّا نحمله قبلها وهماً وسراباً إلى حين.

هذه الصفحات ليست تأريخاً لفترة من فترات سوريا المعاصرة؛ فكتابة التاريخ لها أدواتها التي أعترف أنني لا أملكها، وهي تحتاج إلى حياديّة غير متاحة لي، أقلّه بحكم نزعة الحنين أو (النستولوجيا) حسب الاسم العلمي للمصطلح، تلك النزعة التي من الصعب أن تخلو منها كتابات من يستعرضون فترةً زمنيةً كانوا شهوداً عليها لأنّهم غالباً ما يَرون ذلك الواقع الذي عاشوه أفضل من حقيقته. ولعلّ درجة الحيادية تلك سيلحق بنا شرخ آخر مردّه إلى أن القيم والتّطلعات السياسية (بالمعنى العام لمفهوم السياسة) خلال الفترة التي عرفت وعايشت والتي سيشكّل الحديث عنها الرّكن الأساس من صفحات هذا الكتاب ما زالت ضمن هوامش محدّدة هي الأسس والقيم والتطلعات نفسها التي ما زلت أعتقد أنّها تشكل حجر الزاوية في إعادة تكوين (سوريتنا)، عندئذ سنصل إلى مرحلة إعادة التكوين تلك. ولعلّني أضيف هنا أن تلك القيم والأسس قد عادت لتحتل مكانها ليس في أذهان جيلنا التي مالت شمسه نحو المغيب فقط، بل في أفكار وتطلعات الأجيال الجديدة التي سيتاح لها أن تلعب دوراً في مشروع إعادة التكوين الذي نأمل ألّا تطول نقطة البداية فيه. لقد فتحت الأحداث الأخيرة التي تباينت تسمياتها بين ثورةٍ عند البعض ومؤامرةٍ عند البعض الآخر، المجال لتسليط الضوء على تلك الفترة التي أزعم أنّني عرفت، وأصبح الإعلام يتداول أسماء سياسية لم يسبق للرأي العام معرفته بها كتلك الأسماء التي كانت معروفة لديه في مرحلتي النضال ضد الانتداب والحكم الوطني، كفارس الخوري

وسعد الله الجابري وشكري القوتلي وصبري العسلي وناظم القدسي ورشدي الكيخيا ولطفي الحفار وجميل مردم وغيرهم مما يتمّ تداوله عبر الإعلام بمختلف تصنيفاته عندما تتمّ مناقشة المأساة السورية حيث جرى تسليط الضوء الإعلامي على تلك الفترة، ولعلي وأنا أعيد تسليط الضوء على الفترة نفسها من خلال معايشة أتاحتها لي، رغم غضاضة العمر، نشأتي في بيت سياسي ودراستي في مدرسة ريفية في مرحلة البكالوريا ما أتاح لي أيضاً فرصة التعرف إلى أبناء الأرياف من فئاتهم وانتماءاتهم المناطقية والطائفية كافة ما شكلّ فرصةً للتعرّف إلى مكونات الوطن خارج إطار المدن التي كانت مركز الجذب ومكان تركز فعاليات النشاط السياسي والثقافي ما قد يساعد على طرح الأفكار التي قد تساهم في نهضة الوطن عندما يحين وقت المعجزة التي ننتظر، والتي تلقي على عاتق كل فرد المسؤولية في تلك النهضة.

وتلك الصفحات ليست أيضاً بالمذكرات، فكتابة المذكّرات تحتاج برأيي إلى توثيق لا يقل عما يحتاج إليه المؤرّخ نفسه عند إعادة كتابة التاريخ. وللأسف فإنّ كتابة المذكّرات بمفهومنا الشرقي لا تعدو أن تكون سوى إعادة تذكر الأحداث التي مرّ بها كاتبها معتمداً على ما سجلته ذاكرته مع ما يلحق ذلك من عوارض النسيان أو ما يشوب ذلك من(نزعة الحنين) كما أسلفنا، أو ما يعلق بمرويات سمعها صاحب المذكرات ووقع في ظنه أنّه شهدها، يضاف إلى ذلك كلّه نزعة الهوى التي تميل بصاحبها إلى افتراض خواتم معينة

لحوادث أو مسارات مفترضة لوقائع دون أن نغفل عن الاختلاق المتعمد الذي قد يلجأ إليه البعض. وواقع الأمر أن كتابة المذكّرات يفترض أن تبدأ باللحظة الراهنة لحدوث الواقعة وليس عند نقطة في المستقبل يعود فيها صاحبها ربّما عشرات السنوات ليكتب معتمداً على الذاكرة دون غيرها كأداة للتوثيق. ومفهوم الكتابة منذ اللحظة الراهنة أن يكون لصاحب المذكّرات يوميات اعتاد التدوين بها لإثبات وقائع اللحظة الراهنة ولتكون له عوناً في المستقبل عندما يقرر فيه كتابة مذكّراته، كما لا بد من استجلاء الوثائق بمختلف أشكالها عند كتابة المذكرات. هل يعني ذلك أنّ من لم يعتد تدوين المذكرات أو من لم يهتم بالاحتفاظ بالوثائق ولا يحسن التعامل معها لا يحق له تسليط الضوء على فترة ما من حياته كان شاهداً فيها على مرحلة تبدو له مهمة أو ذات فائدة للآخرين؟ بالطبع لا أحد يستطيع سلب هذا الحقّ من شخص أراد أن يعود إلى ماض شهد أحداثه وقابل رجاله علّه يستخلص ما قد يساعد على أن يدلي بِدَلوه في تلمس طريق نحو المستقبل، إلّا أنّ توصيف ذلك لن يكون مذكرات بالمعنى التاريخي والتوثيقي لمفهوم المذكرات كما ينظر إليها اليوم، وهو ما لا ينطبق على هذه الصفحات، ولسنا في صدد اختراع اسم محدد لهذا النوع من الكتابة.

هل الوطنية السورية المرتبطة بالفكر العروبي والمتكئة على الإسلام بمفهومه الحضاري والثقافي الجامع والتي كانت المحرك وراء مقارعة الانتداب الفرنسي والأساس الذي قام عليه مشروع

الدّولة الوليدة بعد الاستقلال ما زال يشكّل نقطة انطلاق يجتمع عليها السوريون في لحظة قادمة من الأيام عندما سيقدر لهم أن يبدأوا صفحةً جديدةً في كتاب الوطن؟. عاطفياً أقول: نعم، وواقعياً أتمنى أن يكون الإيجاب هو الردّ على هذا السؤال، لكن ثمّة فرقاً بين الرغبة التي تغذيها العاطفة وبين الواقع الذي تتحكم فيه حسابات باردة لا تعرف العواطف والتمنّيات إليها سبيلاً. ولكن(نعم) العاطفية تلك لا تعني أنّها لا تستند إلى واقع معيش وشواهد أفرزتها الأيام وحوادث جلل حملت في كينونتها مؤشرات واضحة الدلالة على ترجيح ذلك الإيجاب، أقله من وجهة نظر ذاتية.

لقد سبق القول إنّني ولدت وترعرعت في بيت سياسي، يحمل تاريخاً سياسياً عمره أربعة قرون، كما حمل الوطنية السورية من خلال الانضواء إلى الكتلة الوطنية التي كانت أساس تشكيل الحزب الوطني فيما بعد. وعلى الرغم من الأسس المتينة من العلاقات التي كانت تجمع أقطاب هذا الحزب مع رجال السياسة اللبنانية، وعلى الرغم مما كان يحمله رجالات هذا الحزب من رغبة في التنسيق مع العاصمتين المصرية والسعودية من خلال ما كان يُعرف بمحور دمشق – القاهرة – الرياض، وبالرغم من البعد القومي العربي الذي كان يحمله أقطاب الكتلة الوطنية في ذواتهم ومشاركة معظمهم في الجمعيات القومية التي بدأت تبصر النور في أواخر الحكم العثماني، إلّا أنّ العلاقة مع فكرة القومية العربية مرت بمرحلتين اثنتين: المرحلة الأولى التي بدأت مع نهاية حلم الدولة العربية التي تمتد من جبال

طوروس إلى سيناء والتي كان من المفترض أن تبصر النور على يد فيصل بن الحسين في نهاية الحرب العالمية الأولى ولم يتحقّق منها إلّا دويلة شملت سوريا الداخلية لفترة ليست بالطويلة انتهت مع مشهد الجنرال غورو يدخل دمشق بعد معركة ميسلون في الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٢٠م. «كما دخل ممثله الكابتن «دولاروش» الذي قدم مرفأ اللاذقية على ظهر بارجة فرنسية، حيث احتل البلد ودخل السراي الحكومي وتسلم السلطة من الحاكم في حينه عبد الواحد هارون الذي انكفأ ورجاله وشكّل مع وجهاء اللاذقية حكومةً وطنيةً مؤلفةً على الشكل التالي»:

١- عبد الواحد هارون	رئيساً
٢- صديق عبدالله هارون	أحد أعضاء مجلس إدارة اللواء
٣- محمود نديم زين العابدين	مفتش المعارف
٤- وهبي بك	محاسبي اللاذقية
٥- محمد كامل أفندي	مدير التلغراف والبوستة
٦- عزيز هارون	رئيس البلدية
٧- عبدالله مفتي	البلدية
٨- أدهم أفندي	مأمور البنك الزراعي
٩- توفيق صوايا	مدير التحريرات
١٠- حكمت شريف	رئيس مكتب الأملاك (رئيس كتاب)
١١- مارون إلياس عماشة	مهندس لواء اللاذقية

١٢- أسعد أفندي (من أهالي عكا) كاتب شعبة اللاذقية

أعلنت أنّها تابعة للملك فيصل (يراجع كتاب غيد إلياس بيطار الصفحة ٢٨٢).

أقول إنّ علاقة رجال الكتلة الوطنية، ومن ثم الحزب الوطني مع فكرة القومية العربية كانت في المرحلة التي تلت دخول الفرنسيين سوريا وحتى ما بعد الاستقلال هي علاقة تتسم بالرغبة في التعاون مع الحركات التحررية في البلدان العربية دون أن يتعدى ذلك إلى الحديث عن مشروع دولة وحدوية تجمع الأقطار العربية، بمعنى آخر كانت الوطنية السورية هي المشروع المرجعي الذي استند إليه النضال ضد الانتداب الفرنسي، وأيضاً الإطار الذي قام عليه مشروع الدولة الوليدة. إلّا أنّ فترة الخمسينيات التي شهدت المدّ الناصري وريادة مصر لحركة القومية العربية وخصوصاً بعد العدوان الثلاثي وحرب السويس، كلّها كانت عوامل ساهمت في بروز الفكرة القائلة بضرورة توحيد الأقطار العربية في إطار دولة واحدة، وأنّ الوحدة هي الحل الأمثل لاستعادة مجد الأمة ومقارعة الاستعمار وتحرير فلسطين، ولأنّ هذا الاتجاه كان يستند إلى قاعدة شعبية وزخم جماهيري هادر فقد وجد أقطاب الوطنية السورية وسائر رجالات الرعيل الأول أنفسهم منخرطين في هذا التيار، وشهدت ذروة هذا المدّ مشهد شكري القوتلي الزعيم الوطني الذي يفترض أنّه يتخذ من الوطنية السورية مرجعاً ومنطلقاً وهو يوقع صك الوحدة السورية المصرية مع عبد الناصر متخلّياً طوعاً عن رئاسة البلاد. ولعلّني

أزعم أنّ شكري القوتلي على الرغم من إيمانه بفكرة القومية العربية وانخراطه منذ كان طالباً في استانبول مطلع القرن العشرين في الجمعيات العربية التي نشأت أواخر العهد العثماني، إلّا أنه لم يكن من المتحمسين للشكل الذي قامت عليه تجربة الوحدة بين مصر وسوريا، لكنّ المدّ الشعبي والأزمة السياسية التي كانت مستحكمة في الحياة السياسية السورية كانا من العوامل التي أخذها شكري القوتلي عند إقدامه على هذه الخطوة والتي كانت بالنتيجة النقطة المفصلية التي شهدت أفول نجم ما يعرف بفترة العهد الوطني وانعطاف سوريا نحو مشهدٍ سياسيّ واجتماعيّ مغاير تماماً.

لقد كانت الوطنية السورية بمرجعيتها العربية واستنادها إلى الإسلام بمفهومه الحضاري والثقافي لا بتأطيره ضمن طقوس وقوالب جامدة محددة، هي الأساس المرجعي الذي قامت عليه حركة مقارعة الانتداب الفرنسي كما أسلفنا، لكن هذا الأساس لم يكن خالصاً طوال الفترة التي وجد فيها الانتداب في سوريا، إذ شهدت فترة العشرينيات وكذلك الثلاثينيات من القرن العشرين محاولات فرنسية لإقامة دويلات ذات استقلال ذاتي وعلى أسس طائفية أحياناً، لكن الأمانة التاريخية توجب علينا الإقرار أنّ تلك المحاولات وعلى الرغم من أنّها تمت من قبل سلطة الانتداب إلّا أنّها قوبلت بموافقة ورضا من بعض القيادات المحلية وفي مختلف المناطق. لكنّ تلك القيادات سرعان ما تخلّت عن مشاريع التقسيم تلك نتيجة جهود مميزة بذلها رجال الكتلة الوطنية، بل أصبح من

كان يشار إليهم على أنّهم من مؤيدي تلك النزعات على رأس المنادين بوحدة التراب السوري وفي طليعة مناوئي سلطة الانتداب. ولعلّنا لا نغفل عن الظروف الموضوعية التي قد تغفر لهؤلاء تلك الزلّة الموقتة ومنها أنّ فكرة المرجعية الوطنية السورية كانت حديثة العهد نسبياً، وربّما كان ما شهدناه في هذا المجال يدخل في متاهات السياسة أكثر مما هو تخلّ عن نزعةٍ وطنيةٍ جامعةٍ.

على أن البعد القومي العربي لم يكن يوماً غائباً عن تقلبات الفكر والسياسة في سوريا ليس عند بدء تشكل كيان الوطن السوري بتأثير سايكس - بيكو فقط، بل أبعد من ذلك من خلال انخراط ساسة وأدباء ومثقفي وضباط سوريا في الجمعيات السياسية والأدبية ابتداءً من أواخر القرن التاسع عشر سواء في الآستانة وباريس أو في بيروت ودمشق، تلك الجمعيات والتجمعات التي احتوت فكر القومية العربية الناهضة وقتئذ كمرجعية للتمايز، ومن ثم الانفصال عن السلطنة العثمانية، وليكون هؤلاء الساسة والمثقفون والضباط منخرطين بعد ذلك في حاشية فيصل بن الحسين كأوّل حاكم على سوريا بعد انكفاء سلطة الرجل المريض عنها عام ١٩١٨م.

وإذا كان من المفهوم أن ينعكس ذلك البعد العربي في دستور حكومة دمشق العربية تحت العرش الهاشمي ممثلاً بفيصل بن الحسين على اعتبار أنّ تلك الدّولة هي ما بقي من حلم الدولة العربية التي وعد بها شريف مكة لتضم أقله المناطق الممتدة من جبال طوروس إلى قناة السويس، إلّا أنَّ ذلك الاتجاه بقي ملازماً

لكلّ الدساتير التي عرفتها سوريا فيما بعد. ولم يقتصر الأمر على النصوص الدّستورية والقانونية، بل كان الشعب السوري حاملاً لفكرة القومية العربية ومبشراً بها عملياً، ولنا في الوحدة السورية المصرية والتأييد الشعبي الكاسح الذي حظيت به من السوريين مثال واضح على ما نشير إليه بغض النظر عن السلبيات التي أفرزتها لاحقاً تلك التجربة وعلى رأسها، برأينا، عدم الالتفات إلى قضية الديمقراطية وأن تكون الحياة النيابية السليمة أساساً وناظماً للعمل السياسي وهو ما آمن به رجال الرعيل الأول من الحركة الوطنية، على أن العلّة التي ابتليت بها الحياة السياسية السورية هي الانقلابات العسكرية التي عرفتها الدولة السورية بعد سنوات قليلة من تخلصها من الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٦م، إذ لم تكن قد مضت ثلاث سنوات على الاستقلال عن فرنسا حتى كان حسني الزعيم يقود الانقلاب الأول صبيحة اليوم الأخير من أيام شهر آذار عام ١٩٤٩م، ليحكم ذلك العسكري الغريب الأطوار سوريا مئة وستة وثلاثين يوماً تنتهي بانقلابٍ آخر يودي بحياته ولتتوالى الانقلابات العسكرية لتصبح المشهد السائد في الحياة السياسية السورية تتخللها فترات قصيرة من عودة الحكم النيابي بما كان يحمله من صراعات بين الأحزاب السياسية طبعت البلاد بمرحلة عدم استقرار سياسي امتدّ إلى مطلع سبعينيات القرن العشرين، ولتدخل البلاد بعدها بثبات سياسي قياساً على الفترات السابقة وباضطرابات مختلفة الشكل عمّا عرفته البلاد في فترة الانقلابات العسكرية متمثلة بالصراع الدّامي بين السلطة

وحركة الإخوان المسلمين بدءاً من أواخر السبعينيات، ثم الصراع على السلطة أثناء مرض الرئيس حافظ الأسد في الثمانينات، أو ما عبّر عنه باتريك سيل المهتم بالشأن السوري وكاتب سيرة حياة الرئيس حافظ الأسد بصراع الأخوين، ويقصد الصراع على السلطة بين الرئيس حافظ الأسد وشقيقه رفعت الأسد، ثم لنصل إلى المأساة السورية الأخيرة التي ما زالت مستعرةً منذ ربيع عام ٢٠١١م، والتي حملت كلّ مظاهر الثورة والاحتجاج ضدّ السلطة والحرب الأهلية والصراع الإقليمي والدولي والتوتر الطائفي وتسلط العصابات واللصوص والمؤامرات المخابراتية ليتمترس كلّ في موقفه وتصنيفه لما يحدث معتمداً على الشواهد المتوافرة على الساحة لكل من التصنيفات التي أتينا على ذكرها.

ولقد كان من المآخذ التي تؤخذ على الساسة والأحزاب السورية في المرحلة التي تعرف بفترة العهد الوطني أنّهم على الرغم من إيمانهم بأسلوب الحكم النيابي وضرورة ابتعاد العسكر عن دهاليز الحكم والسياسة، إلّا أنهم، باستثناءات مشهودة، ربّما كان الرئيس هاشم الأتاسي وشكري القوتلي ولطفي الحفار أمثلة لها، كانوا سرعان ما يتعاونون مع السلطة العسكرية التي جاء بها الانقلاب ويقبلون تسلّم المناصب السياسية والإدارية في العهود الانقلابية، بل يقبلون أن يكونوا ضمن المجالس النيابية التي يضطر الانقلابيون أحياناً إلى اصطناعها لتكسبهم شرعيةً دستوريةً كانوا يعرفون أنّهم يفتقدونها. ولعلّ نظرة موضوعية يسمح بها مرور

سنوات طويلة على الظاهرة التي نشير إليها تتيح لنا تلمّس بعض العذر لقبول هؤلاء الساسة التعاون مع العسكر خلال الانقلابات المتتابعة وهي أنّ هؤلاء الانقلابيين لم يأتوا باتجاه اجتماعي أو اقتصادي جديد يناقض ما كان سائداً في فترات ما قبل الانقلابات السابقة أو خلال ما يعرف بالحياة النيابية التي تجد طريقها في وقت مستقطع بين عهد انقلابي وآخر. وعليه ولعدم وجود تغير راديكالي على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، بل وعلى مستوى الفكر السياسي أيضاً، كانت تحمله تلك الحركات الانقلابية فقد أتيح لهؤلاء الساسة والزعماء الوطنيين إيجاد طريقة ما للتعايش مع أصحاب الحركات تلك، بل إنّ عهد الوحدة بين مصر وسوريا، وعلى الرغم مما كان يحمله الفكر الناصري من أفكار راديكالية أبقى لهذه الشخصيات والزعامات مكاناً ما في المشهد السياسي. ولعلّ نظرة على أسماء من كانوا يشغلون المناصب الوزارية في مختلف تلك العهود تشير إلى تكرار هذه الأسماء دون تغيير كبير، وهو ما يشير إلى صحة ما نرمي إليه. إلّا أنّ تلك الظاهرة كان مقدراً لها أن تنتهي مع بداية الستينيات وتحديداً مع نهاية ما يعرف بفترة الانفصال ووصول حزب البعث إلى السلطة في آذار ١٩٦٣م وذلك تحت تأثير ظهور تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة لم تعد تسمح لتلك الطبقة السياسية بلعب دور ما في الحياة العامة.

على أنّ مؤشر عدم الاستقرار والاضطراب السياسي وظاهرة الانقلابات العسكرية التي شهدتها سوريا منذ أواخر الأربعينيات

وحتى مطلع السبعينيات، ثم أشكال عدم الاستقرار والصراع التي شهدتها البلاد بعد فترة السبعينيات والتي أشرنا إليها أعلاه، إنما تؤشر فيما تؤشر إلى صراع دولي محتدم على سوريا كانت القوى العالمية ووكلاؤها الإقليميون أطرافاً له ولاعبين على مسرحها، ولعلّنا نقفز إلى استنتاج أوّلي وبديهي مؤداه أن هذا الصراع لا بدّ أنّه يخفي الأهمية التي توليها هذه القوى العالمية منها أو الإقليمية لسوريا موقعاً وتأثيراً. فمن نافلة القول اليوم إن سوريا تقع على (فالق جيوسياسي) إذ جاز لنا أن نستعمل تعابير علم الجيولوجيا وإسقاطها على عالم الدول والسياسات، ولا يخفى على القارئ كيف تؤثر تلك الفوالق في استقرار الأرض واتجاهات الزلازل والهزات. فسوريا الموقع هي على تخوم الأناضول، وبوابة العراق والأردن والخليج العربي بل وإيران إلى البحر المتوسط، والمعبر الإلزامي لخطوط نقل النفط والغاز إلى هذا البحر الصغير بمساحته الكبير بأهميته والذي شبهه أحد الاستراتيجيين الفرنسيين وكأنّه طاولة مفاوضات يجلس حول أطرافها العرب والأوروبيون والأتراك والإسرائيليون كلّ بمصالحه وهواجسه وتطلعاته، يضاف إلى ذلك كلّه النهوض الذي تشهده كلّ من تركيا وإيران وما يقتضيه ذلك من رغبة في مدّ النفوذ إلى الجوار القريب وسوريا جزء منه. وأهمية الوطن السوري تتعدى الموقع لتصل إلى التأثير الثقافي والإنساني في المحيط حوله والشواهد كثيرة وعديدة؛ فحركة النهوض القومي العربي والانفصال عن الدولة العثمانية ما كان لها أن تبصر النور على يد من سلمت

زعامتها لهم من الهاشميين لولا التفاف ضباط ومثقفي وساسة بلاد الشام حول تلك الزعامة وحملهم لهذه الراية. ناهيك عن التأثير الفكري والثقافي بل والتنظيمي الذي نقله (الشوام) أي السوريون إلى مصر ما قبل الناصرية والسعودية في فترة تكوين الدولة على يد الملك عبد العزيز. وإذا كان هذا التأثير قد خفت فيما بعد بتأثير المدّ الناصري ثم بانتقال مراكز الثقل السياسي شرقاً بتأثير تداعيات الثروة النفطية، إلّا أنّ الشواهد أثبتت عبر أمثلة عديدة أهمية الكيان السوري في تشكيل وضع المنطقة سياسياً وفكرياً.

ولأنني، وكما أسلفت في كلمات سابقة من تلك المقدمة، ولأنّ ما أهدف إليه من خلال تلك الصفحات ليس التأريخ بالمعنى العلمي للكلمة، ولا كتابة المذكّرات وإنّما محاولة الربط بين ماضٍ وحاضرٍ وكيف أنّ الأحداث المؤسفة التي تمرّ بها سوريا هي الدافع وراء تلك الالتفاتة إلى الماضي القريب، فلي أن أضيف أنّ الصراع الذي نشهده في سوريا وحولها اليوم ليس إلّا شاهداً صريحاً على أهمية الكيان السوري موقعاً وتأثيراً، ولي أن أزعم أنّ نتيجة هذا الصراع وشكل تسويته سيكونان ذا أثر مباشر وكبير في تشكيل مستقبل المنطقة سياسياً وفكرياً بل واقتصادياً، أليس هذا ما تفعله الفوالق الجيولوجية عندما يقدر لها أن تنزاح.

رغم المأساة التي تحيط بنا وتدفعنا إلى اليأس أحياناً، إلّا أنه من المؤكد أنّ خيوط الشمس الأولى لا بدّ أن تجد طريقها في لحظة قادمة مؤذنة بإشراقة يومٍ جديدٍ وببدء مرحلة إعادة إعمار الوطن.

ولا نقصد بإعادة الإعمار بمفهومه المادي المتعلق بالأبنية والمدن والأرياف، فتلك على أهميتها لها طريقها الذي يخطه المهندسون والبناؤون، لكنّ إعادة تشكيل المفاهيم والأسس والقيم التي يستند إليها البنيان الوطني هو ما يهمنا في هذا المجال. إنّني ما زلت أؤمن أنّ الأسس المرجعية التي شكّلت الخلفية القيمية للدولة السورية الوليدة في منتصف أربعينيات القرن الماضي ما زالت، مع التعديلات التي تمليها السنوات الماضية وأحداثها، تشكل أساساً صالحاً لإعادة تشكيل الوطن، أو لنستعرْ من روسو: أنها تصلح لأن تكون العقد الاجتماعي الذي ينتظم حوله السوريون في مشروع بناء مستقبلهم. لقد أوضحنا فيما سبق من كلمات أنّ الوطنية السورية ببعدها العربي واستلهامها لقيم الإسلام الحضارية والثقافية ما زالت تشكل برأينا أساساً مرجعياً جامعاً للسوريين على أن يتمّ تنقية هذا الأساس من شفافية قد تكون لحقت ببعض من كان ينادي بالوطن السوري، ومن ميل نحو الاستئثار والتسلط والحكم الشمولي الذي طبع الفكر القومي بطابعه، ومن ابتعاد عن جوهر الإسلام الحضاري وبعده الإنساني وما لحقه من آفة التعصب والتطرف التي أصابت الحركات الإسلامية.

لقد ترسخت في السنوات الأخيرة على المستوى العام مجموعة من القيم ذات البعد الإنساني تم تأطيرها عبر المنظمات والمعاهدات والاتفاقيات الدولية كقيم حرية الأفراد والمساواة وعدم التمييز وحقوق الإنسان وغيرها، وكلّ ذلك لا بد من أخذه في

الاعتبار عند إعادة بناء المرجعية الوطنية، أو أسس العقد الاجتماعي إذا شئتم. وبعد ذلك، وربّما قبله، لا بد من أن يكون مبدأ المواطنة والديمقراطية بمفهومها التمثيلي (البرلماني) هو البعد التطبيقي لهذه المرجعية وذلك العقد.

ولأننا قلنا مراراً عبر تلك الكلمات: إن الغاية الأساسية لها ليس استعراض الماضي بحوادثه ومجرياته، وإنما محاولة الربط بينه وبين حاضر أو مستقبل قريب واستلهام ما يناسب من ذلك الماضي في رسم صورة ذلك المستقبل القريب، فلنا أن نؤكّد مرةً أخرى أنّ مشروع الوطنية السورية ببعديها العربي والإسلامي ما زال يشكّل أساساً معقولاً للبناء عليه في استلهام ذلك المستقبل القريب.

وإذا كان للمأساة السورية الراهنة من جانب إيجابي فربّما كان هذا الجانب هو التحرر من المحرمات (التابو) الذي كان يغلف كلّ حديث عن أكثرية وأقلية وإشارة إلى الطوائف والمكونات القومية والإثنية للشعب السوري. وإذا كان لنا أن نتحرر من هذه المحرمات بدورنا فلنا أنْ نقول إنّ نجاح مشروع الوطنية السورية ببعده العربي الذي كان أساس مقاومة الانتداب والمرجع الفكري للدولة الناشئة تمت صياغته وريادته على يد النخبة المتنورة العابرة للطائفية والمناطقية والفئوية التي ما لبثت أن أشركت في متنه مكونات المجتمع السوري كافة دون إغفالٍ لفئةٍ بعينها، وبحيث بدت جميع تلك المكونات مشتركة في موقع الريادة، ولقد أتاح الفكر المتنور الذي حملته تلك النخبة الاقتراب من مبدأ المواطنة إلى حدٍ كبير،

كما سمح بإضفاء قدرٍ غير قليل من مبادئ العلمانية على المستوى التشريعي والإداري.

وإذا كنّا نعتقد بأهلية الإطار الفكري لمشروع الوطنية السورية وفق الأسس التي قامَ عليها ليكون أساساً مرجعياً في مرحلة إعادة بناء الوطن الذي نتطلع إليه بعد انتهاء الظروف المؤسفة التي نمرّ بها، ونأمل ألّا يكون ذلك ببعيد، فإنّنا نعتقد، في الوقت نفسه، أنّ الريادة التي لعبتها الطبقة المتنورة المشار إليها تصلح بدورها لإعادة الإنتاج مع أخذ الظروف المستجدة في الاعتبار. إنّ تصورنا لهذا الدور لا ينبع من مبدأ الأكثرية والأقلية، وإنما من مبدأ الريادة الذي ينطوي على إرسال رسائل الطمأنينة والقبول والمشاركة. إنّ دعوة تلك الفئة للعب الدور الذي نشير إليه لا لكي تستحوذ على الميزات والمكتسبات وفق مبدأ أكثرية وأقلية، ذلك المبدأ الذي أصبح ويا للأسف موضع اعتبار عند البعض، بل لتكون ضامناً للجميع ومحفزاً للانخراط في هذا المشروع، وغني عن القول إنّ مبادئ المواطنة والعلمانية التشريعية والإداريـة لا بدّ أن تكون حاضرة أقله على المستوى نفسه الذي عرفته الدولة السورية الناشئة مع تعميق هذه الاتجاهات بحيث لا تذهب بها أولى هبات الرياح التي قد تهب على الوطن.

وإذا كنّا نتحدث عن تصور لإعادة بعث الوطنية السورية بصورة إيجابية لا تقلّ عمّا صاغته النخبة السياسية التي تولت ترسيخ هذا المفهوم خلال فترة النضال ضدّ الانتداب الفرنسي وخلال سنوات

ما يُعرف بالحكم الوطني فلا بدّ من الإشارة إلى الحديث المقيت عن الطائفية ذلك الحديث المستشري اليوم، والذي بدأ الكثيرون للأسف يعتبرون أن هذه الظاهرة، أي الطائفية، هي مسلّمة من مسلمات المجتمع السوري وحقيقة يجب قبولها والإقرار بها والتعايش معها. وإذا كنت قد بيّنت أنّ هذا الموضوع لم يكن مطروحاً في ظلّ ما يُعرف بالحكم الوطني بعد الاستقلال مباشرةً على الرغم من محاولات الفرنسيين الحثيثة لترسيخ تلك الظاهرة وتعميقها لكنّ وعي رجالات الاستقلال من مختلف الاتجاهات السياسية والفكرية والدينية وقف سداً منيعاً في وجه تلك المحاولات، واستطاع نقل التنافس إلى المستوى السياسي بدلاً من المستوى الفئوي والطائفي والمناطقي من خلال الأحزاب السياسية والانتخابات البرلمانية، ولو أتيح للحكم الوطني أن يستمرّ ويستقرّ لكانت تلك القيم قد ترسّخت جذورها في المجتمع لكنّ لعنة الانقلابات العسكرية حالت دون ذلك. ولقد دار الزمن دورته ليشهد جيلنا مع الأسف حوادث أوحت أنّ مجتمعنا السوري قد تشبع بمفهوم الطائفية من خلال حوادث معروفة منها ما عرف بأحداث حماة ١٩٨٢م وحادث الكلّية الحربية بحلب، كما أضيف إليها حادث كنت شاهداً عليه وقريباً منه في اللاذقية وهو ما يُعرف بحادث قتل الشيخ يوسف صارم، وهو المعروف بتسامحه وتفهمه وعلاقاته المتميزة مع كلّ مكونات المجتمع حيث تركت جثته مرمية في الشارع ساعات طوالاً، أقول وبالرغم من بشاعة ودموية

حادثة الكلّية الحربية بحلب والتصرف الذي لا يمكن قبوله من أي عاقل أو ممن يتمتّع بحد أدنى من الحس الإنساني والوطني، وبالرغم من بشاعة حادثة قتل الشيخ يوسف صارم وكذلك حوادث حماة لعام ١٩٨٢م، فإنّ فئات المجتمع إجمالاً لم تنجر نحو فتنة ذات بُعدٍ طائفي ربّما قصدها من دبّر ونفّذ تلك الجرائم البشعة. ولعلّه من الإنصاف أن نشير إلى دورٍ هامٍ قام به محافظ اللاذقية آنذاك الأستاذ منير بريخان في هذا المجال ودور مشابه قامت به بعض فعاليات اقتصادية واجتماعية من مختلف فئات واتجاهات المدينة، ساهم في نزع فتيل الفتنة والانفجار. إنّني إذ أسوق تلك الشواهد ليس إلّا بقصد التأكيد أن مجتمعنا السوري قادر على تجاوز ما يُنسب إليه اليوم من اتجاهات طائفية شرط أن يتمّ حوار صريح يبحث الأسباب والتصرفات التي أدّت إلى تنامي ذلك الشعور ووضع الأسس الكفيلة بمعالجته وتجاوزه والتسامي فوقه، ولعمري تلك مسؤولية كلّ غيور على وطنه ومستقبل أجياله.

قد يبدو كلامنا في معمعة الحرب والخراب وعدم الاستقرار الذي يمرّ به الوطن مجرد حلم، ولكن من قال إنّ المشاريع الكبيرة لا تبدأ بأحلام. إنّها صرخة نابعة من ضمير ذاتي علّها تكون مساهمة ولو بسيطة في مشروع ضخم اسمه خلاص الوطن وبدء نهضة جديدة له. مرة أخرى، وأعتذر عن التكرار والإلحاح إنّ الغاية من استرجاع حوادث الماضي القريب ومجرياته ليس القصد منها مجرد السرد والتذكر، بل إنّ ما أهدف إليه هو استخلاص ما يمكن استخلاصه من

مجريات وأحداث ذلك الماضي من نتائج وعبر وخلاصات تكون عوناً ومساهمةً في نهضة الوطن الذي أحببته وأخلصت له، وسيبقى حبه والإخلاص له نبراساً ما بقيت جذوة الحياة.

الفصل الثاني

إطلالة على الأمس القريب

إنّ التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الأخبار،
لكنّه في باطنه نظر وتحقيق واستنباط

(العلامة ابن خلدون)

نعمان:

حفظ تاريخ سوريا المعاصر اسم شخصيتين ساهمتا في لعب دور هام في الحياة السياسية لسورية المعاصرة منذ نهاية العهد العثماني، الأول عبد الواحد هارون الذي مثّل مع آخرين ولاية سوريا في مجلس المبعوثان العثماني ثم كان له دور في الفترة التي تلت الانفصال عن الدولة العثمانية. والثاني أسعد هارون الذي انتخب لعضوية مجلس النواب السوري غير مرة كما شغل مناصب وزارية في فترات مختلفة. ما هو تقييمك لهاتين الشخصيتين وكيف كان تفاعلهما مع مختلف أقطاب العمل الوطني والسياسي وعلاقتهما بمكونات المجتمع السوري.

والجزء الثاني من السؤال يتعلق بكم شخصياً، إذ المعروف أنّكم ورثتم عن والدكم أسعد هارون علاقاته وصداقته السياسية خصوصاً وكان من المفترض أن تتابعوا بعده في هذا المجال إلّا أنّ ذلك توقف ربّما مع نهاية عهد الوحدة، هل يعود السبب إلى اختلاف المشهد السياسي منذ منتصف الستينيات أم إلى عدم رغبة شخصية في الانخراط في المجال السياسي والعمل العام؟

نزار:

لا شك أن تقييمي لهاتين الشخصيتين، مهما حاولت أن ألتزم الحيادية، ستشوبه شوائب البعد العاطفي من خلال القرابة المباشرة ومعايشتي لكلّ منهما ضمن العلاقة الأسرية. لذلك فقد يكون من المناسب سرد بعض الحقائق الموضوعية التي لا دخل فيها للرأي الشخصي، كما أن الإشارة إلى الوثائق، كلّما كان ذلك متاحاً، تنحي الجانب الشخصي إلى حدّ ما. لكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الوثائق والمراجع توفر كماً لا بأس به من المعلومات عن أسعد هارون، لكن ذلك ليس متوافراً لعبد الواحد هارون لبعد العهد نسبياً ولعدم توافر جهد حقيقي لجمع ما هو متوافر في الكتب والمخطوطات والوثائق عن هذه الشخصية، وغيرها من الشخصيات التي لعبت، في تلك الفترة، دوراً منظوراً في العمل العام والحياة السياسية، فالنقل شفاهاً ما زال هو السائد، وبطبيعة الحال يتراجع مستوى توافره ودقته نتيجة تعاقب الأجيال.

بكلّ حال نستطيع أن نحدد تاريخ وفاة عبد الواحد هارون بعام ١٩٤٣م، لكنّنا لا نملك وثيقة تحدد بدقة تاريخ ولادته، لكننا من خلال التقدير واستنطاق بعض الوثائق والمعطيات التأريخية يمكن الاستنتاج أن ولادته كانت في مطلع الربع الرابع من القرن التاسع عشر. أما دراسته فعلى الغالب أنّه تلقى العلم على أيدي مدرسين في منزل والده (أسعد آغا هارون) على الرغم من وجود مدارس

للتعليم الرسمي إضافة إلى مدارس البعثات التبشيرية، وربّما هدف والده إلى إكسابه تعليماً مميزاً لا توفره المدارس والمعاهد المتوافرة وقتذاك، وربّما يؤيد ذلك، إتقانه اللغتين الفرنسية والتركية إضافة إلى العربية التي ما زلت أذكر اهتمامه بها وحرصه على نطقها نطقاً سليماً. فضلاً عن ذلك فقد كان له معرفة بالعزف على البيانو، ولعلّ ذلك يؤشر ليس إلى اهتمام أسرته بتعليمه تعليماً متميزاً فقط، بل أيضاً إلى استعداد وقابلية ورغبة من قبله في هذا التعلم. إلّا أنه انتقل بعد هذه الفترة للدراسة في معاهد اسطنبول، وعلى الرغم من عدم معرفتنا بنوع ومستوى ومدة الدّراسة التي تلقاها هناك، إلّا أنه يمكننا الاستنتاج أيضاً أنّها ذات مستوى عالٍ نوعاً ما (ربّما فيما كان يعرف بالمعهد السلطاني، وكان يُهيئ الطلاب للعمل الإداري والحكومي) على اعتبار أن مدينة بيروت كانت هي المكان الذي يقصده أبناء اللاذقية والمدن المماثلة عندما يريدون متابعة الدراسة بمستوى أعلى مما توفره مدنهم الصغيرة آنذاك، التي لم تكن قد عرفت هذا المستوى من التعليم الرسمي.

لم يكن من الصعوبة على عبد الواحد هارون أن يشقّ طريقه نحو معترك الحياة العامة، فهو من أسرة اعتادت أن يكون أفرادها على رأس الهرم الإداري في اللاذقية خلال الوجود العثماني فكان أن باشر العديد من المهام الإدارية سواء خلال ذلك العهد أو خلال فترة حكومة فيصل العربية على قصر عهدها وتأثيرها في الساحل السوري أو بعد ذلك. فمثلاً كان عبد الواحد هارون أحد ممثلي

الولايات العربية إلى مجلس المبعوثان العثماني (بين عامي ١٣٣٠-١٣٣٤هـ) كما كان رئيس المجلس المحلي الذي سدّ فراغ خروج الأتراك عام ١٩١٨م دون وجود سلطة بديلة، وهو المجلس الذي قرر إلحاق الساحل بحكومة فيصل بدمشق ورفع العلم العربي على السرايا أو دار الحكومة في اللاذقية كما ورد ذكره في مكان آخر، كما سمي قبل ذلك عضواً بمجلس استشاري عيّنه الحاكم الفرنسي على الشكل التالي: (جابر العباسي- عبد الواحد هارون- إسحق نصري- أحمد الحامد- إبراهيم الكنج- نقولا بشور)كما كان ممثلاً لدولة العلويين في حكومة (أو ربّما مجلس حكم) أوجده الفرنسيون عام ١٩٢٢م لتضم ممثلين عن الدّويلات التي قسموا بها سوريا وأرادوا من مجلس الحكم هذا أن يكون بمثابة مجلس فيدرالي لحكومات دمشق وحلب والعلويين وهي الحكومة الوحيدة التي كان مقرها حلب نكاية بالدمشقيين الذين فجروا التظاهرات والإضرابات ضدّ زيارة الجنرال (غورو) الذي كان وراء عملية تقسيم سوريا إلى دويلات. إلّا أنّ ذلك لم يكن ليثني عبد الواحد هارون أن يكون من المطالبين على الدوام بوحدة التراب السوري سواء في الفترة التي نتحدث عنها أو في فترة الثلاثينيات حين أعاد الفرنسيون تشكيل كيانات، أو دويلات، كدولة حلب ودولة دمشق ودولة اللاذقية، إذ يحفظ أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بالمجلد رقم ٤٩٢ برقية مرسلة من أعيان اللاذقية مدينة وجبلاً مؤرخة في ٢ تموز / يوليو ١٩٣٦م يشكو فيها الموقعون ممثلي فرنسا الذين يصرون على تقسيم الوطن

السوري إلى دويلات على أسس طائفية ومناطقية ومطالبين بوحدة التراب السوري، ولقد كان من الموقعين على البرقية إضافة إلى عبد الواحد هارون شخصيات معتبرة تشكل نسيج المجتمع في الساحل السوري منهم: علي شهاب، إسماعيل هواش، الشيخ صالح العلي، عبد القادر شريتح، رضا العباس، نقولا بشور، وآخرون. كما كان من الموقعين (أسعد هارون) بصفة زعيم الشباب الوطني كما ذكر إلى جانب اسمه، ولعل ذلك يؤشر إلى نقطة بدأ فيها عبد الواحد دفع ابنه أسعد نحو الحياة العامة ومعترك السياسة دون أن يعني انسحابه هو شخصياً من هذا المضمار إذ إنّه كان معتقلاً حتى قبل فترة وجيزة من وفاته وقد تمّ إطلاقه من المعتقل بسبب مرضه. وهنا يبدو من المفيد الإشارة إلى أمرين جريا بعد وفاته لكلّ منهما طرافته الخاصة به.

الأولى: سمحت السلطات الفرنسية لولده أسعد بمغادرة المعتقل للاشتراك في جنازة والده وحضور التعازي لمدة خمسة أيام، وكانت هذه ظاهرة إنسانية استفادت منها فرنسا على الصعيد الإعلامي إذ أعطت هذا الأمر بعداً إنسانياً.

الثانية: وبما أنّ السلطات الفرنسية كانت ، بسبب مرض عبد الواحد هارون وعمره ومكانته الاجتماعية، قد سمحت لزوجته بالبقاء بقربه في المستشفى قيد الاعتقال معه، ولما أفرج عن عبد الواحد هارون وغادر المستشفى المعتقل عادت زوجته معه بطبيعة الحال دون أن يصدر قرار بالإفراج عنها حيث تبين لهم لاحقاً حين

بطاقة عضوية عبد الواحد هارون
بمجلس المبعوثان (النواب العثماني) ١٣٣٠هـ - ١٣٣٤ هـ

ضبط القيود هروب سجين ما شكّل لهم إرباكاً حتى عرفوا السبب وأصدروا قرار الإفراج عنها.

نعود للحديث عن أسعد هـارون الذي كانت ولادتـه في مطلع القرن العشرين وتحديداً في السنة الأولى منه. وإذا كانت عاصمة الخلافة العثمانية قد استقطبت عبد الواحد هارون للدراسة والتحصيل العلمي مع نهايات القرن التاسع عشر، فإنّ العاصمة الفرنسية باريس هي من استقطبت أسعد هارون لإكمال دراسته في العلوم السياسية وتحديداً في جامعة (السوربون) التي كانت ولاتزال أشهر جامعة في باريس وأهمها حيث أكمل دراسته وعاد إلى الوطن عام ١٩٢٨م. لم يكن أسعد هارون أثناء دراسته في باريس بعيداً عن النشاط الذي كانت الجمعيات العربية حاضنة له، إلّا أنّ مجال عمل وتحرك تلك الجمعيات لم يكن كما هو الحال عند بداية وجودها مع نهايات القرن التاسع عشر حيث كان همها الأول ومحور نشاطها هو الاستقلال عن الدولة العثمانية والسعي لتحقيق الحلم الكبير بدولة عربية جامعة، بل أصبح محور نشاطها هو تحقيق الاستقلال لكلّ دولة من الانتداب البريطاني والفرنسي الذي رزحت تحته هذه الدولة أو تلك. بمعنى آخر إن محور عمل تلك الجمعيات بالنسبة إلى السوريين الذين كانوا ناشطي تلك الجمعيات في باريس وأسعد هارون واحد منهم، كان السعي إلى الاستقلال وإقامة الدولة الوطنية السورية. بمعنى آخر فإنّ مفهوم الوطنية السورية التي كانت وراء ظهور ما يعرف بالكتلة الوطنية وما انبثق منها أي الحزب الوطني

وحزب الشعب، والتي كانت تهدف إلى الاستقلال عن فرنسا وإقامة الدولة السورية قد انبثق بدوره من نشاط الجمعيات العربية التي بدأت، كما أسلفنا، مع أواخر القرن التاسع عشر في الآستانة وباريس على الخصوص، ولأنّ غالبية الناشطين في تلك الجمعيات كانوا من الطلاب والمثقفين السوريين (ونقصد هنا سوريا الكبرى التي تضم لبنان وفلسطين) فقد كان من المفهوم أن يتحول هؤلاء نحو فكرة الوطنية السورية التي بطبيعة الحال لا تتناقض مع الفكرة العربية الجامعة كما كانت سائدة وقتذاك، وللإشارة إلى النشاط السياسي الذي كان يزاوله أسعد هارون أثناء مرحلة الدراسة في جامعة السوربون، أرى من المفيد إيراد ما ذكره الأستاذ رضا التامر وهو من عائلةٍ لبنانيةٍ عريقةٍ لها نشاطها السياسي والوطني العريق وهي عائلة الأسعد، كما كان له شخصياً دور مميز في القضاء اللبناني، أكرر: أرى من المفيد استعارة بضع صفحات من كتابه عن مرحلة الدّراسة بفرنسا حيث كان زميلاً لأسعد هارون ذلك أنها تشير إلى النشاط السياسي الذي كان يقوم به الطلاب وإلى الدور الأساسي الذي كان يقوم به أسعد هارون وكذلك إلى سوء التنظيم والتشرذم العربي في معالجة قضاياهم حتى وهم في الغربة وتجمعهم مبادئ واحدة، وإنّني أوردها كما وردت حرفياً.

١ - الشيخ أحمد عارف الزين، ٢ - الشيخ سليمان الضاهر، ٣ - الشيخ صالح العلي، ٤ - الشيخ أحمد رضا، ٥ - عبد اللطيف اليونس (أمين سر لجنة تأبين الشيخ صالح العلي)، ٦ - أسعد هارون (رئيس لجنة التأبين)، ٧ - بدوي الجبل، ٨ - رياض رويحة.

بمناسبة الحفلة التكريمية التي أقيمت للشيخ صالح العلي في اللاذقية.

فصل عن رياض الصلح

وتدعوني هذه المناسبة إلى أن أذكر المرحوم رياض الصلح في فصل من تاريخه شهدته بنفسي وعرفت حوادثه وأشخاصه.

لقد أحاط رياض الصلح حركتنا في باريس يومئذٍ بنشاطه المعهود، وأفاض عليها من أساليبه البارعة كما أكسبها روحاً جديدةً، وكان قد جاء باريس يوم ذاك، مع عدد من رجال السياسة في سوريا ولبنان، للعمل في سبيل رئاسة الأمير لطف الله على سوريا ولبنان، فكانت الحفلات في هذا السبيل تتلو الحفلات، واندمج الكثيرون في هذه الحركة حتى أفلتت قيادة الجمعية السورية العربية من أيدينا، وأصبحنا جميعاً نعمل ونتحرك وفق مشيئة رياض الصلح لا نناقش ولا نجادل مطلقاً، وتوترت العلاقات بين الجمعية السورية العربية وبين الجمعية اللبنانية حيث كان يلتقي أعضاء إحدى الجمعيتين إخوانهم من الجمعية الأخرى، فلا يحيّي بعضهم بعضاً ولو كانوا قبلاً من الأصدقاء.

ولقد شعرنا فجأة بسوء هذه الحال، فاجتمعنا يوماً في غرفتي وقرّ الرأي على أن ننشئ «نادياً أدبياً محضاً» يجمع أبناء الشرق الأدنى جميعاً في باريس على اختلاف آرائهم السياسية ونزعاتهم الوطنية من دون أي نظر إلى المسائل السياسية توطيداً لعرى الصداقة بين هؤلاء الشبان، وتخفيفاً لوطأة التنابذ والتباغض بينهم بحيث لا يمنع أن ينتمي أحدنا إلى هذا النادي، وهو – في الوقت نفسه – من المنتسبين إلى إحدى الجمعيات السياسية.

١ -كامل مروة، ٢ -يحيى علي أديب، ٣- أسعد هارون، -٤ بدوي الجبل.

وقد بدأنا تنفيذ الخطة سريعاً فذهبت أنا إلى القاعة المعروفة باسم قاعة العلماء فاستأجرنا جزءاً منها جانباً وتبرعت بالإيجار، ثم دعونا إلى اجتماع يعقد فيها، وعقد الاجتماع بالفعل، فكان الإقبال عليه عظيماً ترأسه الدكتور عاد وبحث المجتمعون فكرة النادي، فإذا بهم جميعاً يحبذون الفكرة ويؤلفون لجنة من السادة: الدكتور عاد إبراهيم عازار، كامل مزهر، أسعد هارون، وأنا لوضع منهج النادي.

وعقد الاجتماع الثاني، ثم الثالث ولم يعقد الرابع إذ اختلفنا في تسمية النادي؛ فالمصريون لا يدخلون النادي إذا دخلت، «العربية» في اسمه، بحجة أنّهم قوم «فراعنة» لا عرب، وكذلك شأن بعض اللبنانيين بحجة أنّهم غير عرب، ولانخداع بعضهم بما كان يزينه لهم بعض الفرنسيين من أنّ العمل مع العناصر العربية، مضرّ بمصلحة لبنان وكيانه.

وكان الدكتور عاد من هؤلاء المخدوعين، أمّا السوريون فكانوا يرون في تحقيق فكرة النادي ما يخفف من نشاط الجمعية العربية السورية كما أوحى إليهم به المرحوم رياض الصلح. كان إخفاق الفكرة صدمةً عنيفةً لنا وكنت أنا أكثر شعوراً بوطأة الصدمة لأنّني كنت في طليعة من فكروا في الأمر وسعوا له وجهدوا في تحقيقه، وكان من نتائج هذا الحادث أن أصيب نشاط الجمعية العربية السورية ببعض الشلل فخمد نشاطها ما عرقل حركة رياض الصلح إذ كان يعتمد في معظم نشاطه على حركة الجمعية ويعقد باسمها الاجتماعات والحفلات، ويضع باسمها خطط الدعوات والعمل.

ولكنّ فريقاً من الشباب رأى إنعاش هذه الجمعية واستعادة

نشاطها، فدعينا إلى اجتماع لهذا الغرض، فلبينا الدعوة، وفيما نحن نبحث جوانب الأمر نهض أحدنا واقترح أن يهدى إلى رياض الصلح قلم حبر من الذهب باسم الجمعية السورية العربية اعترافاً بفضله وجهاده في سبيل فكرتها، وكان في صندوق الجمعية يومذاك ثمانمئة فرنك لا تزيد، فعارضت أنا الاقتراح وقلت إنّ الجمعية تستطيع أن تكتفي بأن تتوجه بكتاب إلى رياض الصلح تعرب فيه عن تقديرها لجهاده وفضله، دون أن تتكلّف ثمن الهدية وصندوقها متعب.

وقد أثارت معارضتي للاقتراح مشادة عنيفة بيني وبين صاحبه انتهت بانسحابي من الاجتماع، لأنّ منافسي لجأ إلى استغلال «الطائفية» في البحث استغلالاً مثيراً لا يتناسب والفكرة الوطنية التي نعمل لها، وقد تضامن معي في الانسحاب طالبان هما: المهندس توفيق دليق من (عاليه) والأستاذ محمد علي عابدين حمادة من (اللاذقية) وكان يتخصص بالأدب والفلسفة، ووقفنا نحن الثلاثة بعد هذا نعارض أن تكون إرادة رياض الصلح مفروضة فرضاً على الجمعية السورية العربية دون مناقشة ولا جدال، ثم انضم إلينا الأستاذ أسعد هارون، ومن كان معه من طلبة اللاذقية، وهم كثيرون، فلما شعرنا أننا أصبحنا في الجمعية قوة لا يستهان بها أقدمنا على المطالبة بانتخابات جديدة لهيئة الجمعية، فاستولى أمين السر السيد ماجد العمري على دفاتر الجمعية ونقلها إلى منزله ممتنعاً هو والرئيس حيدر مردم بك عن تعيين موعد الانتخاب.

وذات يوم دعاني رياض الصلح إلى حفلة شاي أقامها من

أجلي في فندق «لوتاسيا» بوصفي من شباب منطقته «جبل عامل» بمناسبة خطبتي للآنسة بوليت الفرنسية.

«مناورة» جميل مردم بك

ولكنّ هذه المجاملة الكريمة من رياض الصلح لم تغير من موقفي إزاءه في الجمعية، ووصل إلى باريس في تلك الأثناء جميل مردم بك، فلمّا علم بالأمر، وأيقن أنّ قوة المعارضة تنبعث من أسعد هارون وإخوانه طلبة اللاذقية، أقام حفلة دعاهم جميعاً إليها وأهملنا- أنا والرفيقين توفيق دليقان ومحمد علي عابدين حمادة-، وفي أثناء الحفلة عرض السيد جميل مردم على الأستاذ أسعد هارون أن يتولى رئاسة الجمعية، وكنا نحن قد رشحنا لها نجيب الأرمنازي، وكان الآخرون يرشحون محسن البرازي، فرفض أسعد هارون أن يدخل في مثل هذا البحث ما دمنا، أنا ورفيقاي دليقان وحمادة، غير حاضرين.

وبينما أنا في الفندق أنتظر عودة أسعد هارون من حفلة مردم بك، وما يحمل من أخبارها، إذا بالسيد العمري يدخل عليّ وعلى وجهه أمارات الغضب، ثم يأخذ يلومني على أن يصل بي الأمر إلى رفض دعوة جميل مردم بك....

فقلت:- عجباً لإدارة هذا الفندق، كيف تخصني بهذا التحامل، فتوصل دعوات جميل مردم إلى عشرة من نزلاء الفندق وتهمل دعوتي وحدها.... ولكن ما ذنب إدارة الفندق؟.. لقد أدركت الآن

معنى مجيئك ولومك، لقد أردتم استدراك عملكم بإهمال دعوتي إلى الحفلة، حين لم تستطيعوا التفاهم مع أسعد هارون.

وأصررت على عدم قبول الدعوة بعد فوات الأوان، وانفرط عقد المجتمعين يومئذٍ دون أن تنجح «مناورة» مردم بك.

علماً بأنّ في الكتاب مزيداً من تفاصيل هذا النشاط سواء السياسي منه أو الاجتماعي.

نعود إلى أسعد هارون الذي أنهى دراسته في عام ١٩٢٨م ليعود من باريس لبدء نشاطه الإداري والسياسي في ظلّ والده ولينخرط في النضال الوطني ضدّ الانتداب إلى أن تمّ توقيع معاهدة عام ١٩٣٦م مع فرنسا والتي تعدّ بمثابة الاستقلال الأول وإن كان غير مكتمل الملامح بل إنّ فرنسا ما لبثت أن نكثت التزاماتها المنبثقة من تلك المعاهدة ولا سيما مع اقتراب شبح الحرب العالمية الثانية مع نهاية الثلاثينيات. وكان من بنود المعاهدة المذكورة أن تقوم فرنسا بتدريب عدد من الشبان السوريين المؤهلين تعليمياً على أعمال الدبلوماسية والسياسية الخارجية بحيث يكون هؤلاء الشبان النواة الخارجية لسوريا ضمن التهيئة العامة في المجال الإداري الذي التزمت به فرنسا ضمن معاهدة ١٩٣٦م بحيث يتمّ حكم البلد من قبل أبنائها. وكان أسعد هارون واحداً من الذين وقع عليهم الاختيار للتدرب في المجال الدبلوماسي مع آخرين مثل عدنان الأتاسي ونجيب الأرمنازي وعون الله الجابري وفريد زين الدين وإبراهيم الأسطواني حيث ألحق كلّ من هؤلاء بإحدى قنصليات فرنسا في الخارج، وقد

١ ٢ ٣ ٤

١ - أسعد هارون، ٢ - عبد القادر شريتح، ٣ - عبد الواحد هارون، ٤ - مجد الدين أزهري.

رجال الكتلة الوطنية في اللاذقية بمناسبة استعراض فرقة القمصان الحديدي.

عمل أسعد في القنصلية الفرنسية في بغداد خلال تلك الفترة. وتابع البعض من هؤلاء الشبان عملهم ليكونوا نواة الخارجية السورية بعد الاستقلال مثل فريد زين الدين وإبراهيم الأسطواني في حين آثر أسعد هارون وآخرون الابتعاد عن العمل الوظيفي على أثر نكول الفرنسيين بتنفيذ بنود معاهدة عام ١٩٣٦م وليلتحقوا بالعمل الوطني الذي يهدف إلى الحصول على الاستقلال التام عن دولة الانتداب وتحقيق حلم الدولة الوطنية السورية.

تعرض أسعد هارون مع آخرين من رجال ما يعرف بالكتلة الوطنية وناشطيها إلى الاعتقال والاضطهاد على يد الفرنسيين، بل إنّه اعتقل مع والده عبد الواحد هارون في سجن الرمل في بيروت عام ١٩٤٣م وهو سجن سيئ السمعة، ومن ذكريات الصبا زيارتي لهما في ذلك السجن مع عمي علي وما زلت أذكر الوضع السيئ الذي كانا يعيشانه في السجن المذكور، كما أذكر أنني زرت والدي بعد نقله إلى معتقل (المية ومية) وكان وضعه أفضل قياساً على ما كان عليه في سجن الرمل. كما أن أسعد هارون لم يتسن له الاشتراك في انتخابات عام ١٩٤٣م لوجوده في المعتقل وهي الانتخابات التي فازت الكتلة الوطنية بأغلبية مقاعدها، ومثّل اللاذقية في المجلس النيابي الذي تشكل بنتيجة تلك الانتخابات كل من علي هارون وبدوي الجبل ووديع سعادة وثلاثتهم من مرشحي الكتلة الوطنية، وطبعاً في ذلك الوقت والشعور الوطني كان لا يزال على أشده والكتلة الوطنية كانت لا تزال صاحبة الشعبية الكبيرة بحيث أن المعركة الانتخابية

جرت دون منافسة تذكر باستثناء حادثة طريفة جرت بالنسبة إلى المقعد المسيحي، وقد ترشح بمواجهة مرشح الكتلة الوطنية وديع سعادة مرشح مستقل وهو المحامي إبراهيم منصور على ما أذكر، وبالطبع لم يكن له حظ بالنجاح وكان هو يدرك ذلك، ولهذا ومن أجل أن تجري الانتخابات بالتزكية تخفيفاً لأعباء العملية الانتخابية جرت مطالبة الأستاذ منصور بالانسحاب، فرفض النزول عند هذا الطلب معللاً رفضه بما يلي: «أنّه إذا لا سمح الله توفي المرشح وديع سعادة، خلال هذه الفترة، وكانت حينذاك أبواب الترشيح قد أغلقت فسأنجح أنا بالتزكية، وبالتالي لا تحتاج البلاد إلى تأجيل الانتخابات وفتح مهلة جديدة وأكون بذلك قد حصلت على فرصتي الذهبية».

نعمان:

خلال كلّ حواراتنا كنت تلحّ على فكرة أشرت إليها في المقدمة مراراً وهي أن الغاية التي تتطلع إليها من خلال هذه السطور ليس استعراضاً للماضي وتذكّراً لأحداث الأمس، بل إنّ ذلك جاء تحت تأثير الأحداث المؤسفة التي تعرض لها بلدنا ولا يزال ورغبتك في إبراز ظاهرة تعتقد بتوافرها في مجتمعنا وتتمثل بوجود الحسّ الوطني العام العابر للطوائف والمناطق والذي استطاع أن يعبّر عن نفسه في أكثر من مناسبة، وكيف أنّ ذلك يمكن أن يكون منطلقاً لإعادة بناء سوريا المستقبل.

صورة بمناسبة وداع أسعد هارون بعد تسميته قنصلاً في بغداد عام ١٩٣٦م، ويظهر في مقدمتها عبد الواحد هارون، الحاج مجد الدين أزهري، مصطفى شريتح، وديع سعادة، توفيق هارون، فريد هارون، علي هارون، جميل عقيلي وآخرون.

نزار:

صحيح هذا ما أهتم به وأريد التركيز عليه أكثر من مجرد سرد الذكريات ووقائع الأمس القريب، والواقع أنّ استعراض التحالفات السياسية والتكتلات التي كانت تشهدها الانتخابات البرلمانية ونتائج تلك الانتخابات تبرز ما نرمي إليه بوضوح في هذا المجال. فبالعودة إلى انتخابات عام ١٩٤٧م في اللاذقية وهي أوّل انتخابات تجري في ظلّ الاستقلال حيث كان لمدينة اللاذقية وقضائها ثلاثة مقاعد اثنان للمسلمين ومقعد للمسيحيين نجد تقريباً تساوي الأصوات التي فاز بها مرشحو الكتلة الوطنية لمقعدي المسلمين (سني وعلوي) وللمقعد المسيحي سواء في اللاذقية أو في مختلف مناطق المحافظة بغض النظر عن الأغلبية العددية لطائفة معينة في هذه المنطقة أو تلك وهو ما يعبر عن اتجاه الناس للتصويت على أساس سياسي وليس طائفياً أو مناطقياً. ظاهرة مشابهة حملتها كلّ الانتخابات اللاحقة التي جرت بعد عام ١٩٤٧م سواء بتشكيل القوائم أو من خلال النتائج التي تمخضت عنها الانتخابات الساخنة والشديدة التنافس وقتئذٍ إذ شكّلت مدينة اللاذقية وريفها دائرة انتخابية واحدة آنذاك، ومع ذلك فقد كان المرشح السني يحصل ضمن قائمة واحدة على أغلبية أصوات الريف، أو القضاء كما كان يعرف وقتذاك، وفي الوقت نفسه حصل المرشح العلوي على أغلبية أصوات المدينة ذات الأغلبية السنية ما يشير بوضوح إلى أنّ الاصطفافات كانت

الوزير أسعد هارون يلقي كلمة بمناسبة توقيع الاتفاقية القضائية بين سوريا والمملكة الأردنية الهاشمية عام (١٩٥٣)، ويظهر في الصورةعلى يسار أسعد هارون «عبد الجواد السرمين» أمين عام وزارة العدل وعلى يمينه «بهجت التلهوني» رئيس الوزراء الأردني

سياسية وليست طائفية أو مناطقية كما أسلفنا. أمثلة أخرى، وعذراً عن التكرار والإلحاح على هذه النقطة، نستنتجها من انتخابات عام ١٩٥١م حيث شكّل قضاء اللاذقية ذو الغالبية العلوية دائرة واحدة فاز بها مرشح سني بغالبية الأصوات، كما شهدت دائرة بانياس الانتخابية وضعاً مماثلاً.

نعود إلى أسعد هارون، فقد تابع خلال فترة الاستقلال العمل العام والنشاط السياسي فكانت له مساهمة في أحداث مرفأ اللاذقية كمظهر اقتصادي حديث للدولة السورية الناشئة حيث كان عضواً في أوّل مجلس إدارة لتلك الشركة المهمة، كما شغل منصباً وزارياً في الأشهر الأخيرة من حكم أديب الشيشكلي، وهذا له حكاية نصل إليها لاحقاً، كما دخل الوزارة غير مرة في الفترة بين زوال حكم الشيشكلي وعودة الحياة البرلمانية عام ١٩٥٤م وبين توقيع الوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨م، ولتكون الوحدة وما بعدها مفترق طرق في الحياة السياسية السورية وليجد أسعد هارون وآخرون، ممن يؤمنون بالنظام البرلماني منطلقاً وأساساً للحياة السياسية، أنفسهم في جو آخر له رجاله.

نعمان:

من خلال تدقيقي ومراجعتي للوثائق التي تغطي تلك الفترة وجدت وثيقتين ورد فيهما اسم أسعد هارون تشيران مبدئياً إلى تناقض في المواقف السياسية، أولاهما بيان إعلان الوحدة الصادر

في القاهرة في الأول من شباط/ فبراير/ ١٩٥٨م وقد ورد فيه اسم أسعد هارون ممثلاً عن الحكومة السورية إلى جانب أسماء شكري القوتلي وصبري العسلي ومأمون الكزبري وصلاح البيطار وأكرم الحوراني وآخرين. والوثيقة الثانية، وهي وثيقة الانفصال، المؤرخة في ٢٨/٩/ ١٩٦١ والتي وقعها المجتمعون في دار أحمد الشرباتي ومنهم إضافة إلى أسعد هارون أكرم الحوراني وصلاح البيطار وبشير العظمة وحسن مراد وغيرهم ممن وقعوا البيان الأول. كيف نفسر هذا التناقض؟

نزار:

بداية لم يكن أسعد هارون هو الوحيد من السياسيين السوريين الذين أيدوا الوحدة ثم عادوا ووافقوا حركة ٢٨ أيلول ١٩٦١م المعروفة شعبياً بحركة الانفصال. وواقع الأمر لا أجد تناقضاً مبدئياً بين الواقعتين. فالوحدة كانت محل مباركة وقبول من معظم السوريين ومنهم الأسماء التي تمّت الإشارة إليها على اعتبار أنّها تحقق أملاً طالما راود أحلام من يعرف برجال الرعيل الأول الذين تشربوا مفهوم القومية العربية وسعوا لإقامة دولة عربية واحدة عندما كانوا منخرطين في الجمعيات العربية في استانبول وباريس مع نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. إلّا أنّ الحلم الوحدوي العربي لهؤلاء كان مرتبطاً بمفهوم السياسة التي تستند إلى الحياة البرلمانية وحرية تشكيل الأحزاب والانتخابات التي تحدد من سيكون على إدارة

البلاد والمجتمع لسنوات محددة قادمة وهو ما لم تعرفه سنوات الوحدة السورية المصرية التي حملت بداية نظام شمولي شديد المركزية لم يعتده السوريون سابقاً إضافة إلى ممارسات الأجهزة الأمنية التي، وإن كانت موجودة إلى حدّ ما في سوريا، ولكنّها لم تكن بالسطوة والشدة اللتين حملتهما سنوات الوحدة. إضافة إلى أنّ الكثيرين ممن أيدوا حركة الانفصال كانوا، بحسن نية، يعتقدون أو يرغبون أن تكون الحركة ليست إلّا سبيلاً لتصحيح مسار الوحدة وتنقيتها من الشوائب التي لحقت بها وإعادة تشكيلها على أسس جديدة، وإن كان منهم من كان يريد التخلص من الوحدة لأسباب شخصية وحزبية ضيقة. بكل الأحوال فإنّ حركة الانفصال حظيت بتأييد معظم مكونات الحياة السياسية السورية وشخصياتها سواء أكان السبب عاماً أم خاصاً، ولم يكن أسعد هارون بعيداً عن ذلك، وبالتالي لا نعتقد أن ثمّة تناقضاً أو موقفاً غير مبدئي يمكن أن ينسب إليه بظهور اسمه في وثيقتي الوحدة والانفصال.

نعمان:

على الرغم من نشوء الكيان اللبناني مستقلاً عن سوريا منذ عام ١٩٢٠م بداية ثم تكرس ذلك بمعاهدة عام ١٩٣٦م التي كرست وجود الكيان اللبناني كدولة غير مرتبطة بسوريا، مع ذلك فقد بقيت العلاقات السورية اللبنانية لسنوات طويلة موضع ترابط لا سيما في علاقات الساسة والشخصيات التي تعمل بالعمل العام

على كلا الجانبين، كيف تجلى ذلك في علاقة أسعد هارون بالساسة اللبنانيين؟

نزار:

لا شك أنّه كانت ثمّة علاقة خاصة تربط بين البلدين وأيضاً العلاقات الوثيقة التي ربطت قادة العمل السياسي في البلدين من خلال اشتراكهم معاً في مرحلة النضال السلبي ضدّ الوجود الفرنسي وأيضاً من خلال ما كان لسوريا وقادتها من مكانة خاصة تسمح لهم بالتدخل وإبداء الرأي والنصح والمشورة في الشأن اللبناني، ولم يكن ذلك قط مقترناً بالفوقية والشعور بطغيان النفوذ وإنما كان مرده وإطاره المصلحة المشتركة التي تجمع البلدين والتي كانت إلى حد ما متناغمة خلال فترات الحكم البرلماني في البلدين.

أذكر مثلاً: أنَّ جميع حفلات التكريم أو التأبين التي كانت لرجالات سوريين ولبنانيين كان يشارك فيها الساسة والأدباء والمفكرون من الجانب الآخر، ولقد حضرت شخصياً برفقة والدي حفلة التأبين الكبرى التي أقيمت للزعيم رياض الصلح في الملعب البلدي ببيروت وشارك فيها ساسة وأدباء سوريون وعرب منهم الشاعر بدوي الجبل الذي ألقى قصيدته الشهيرة في رثاء الصلح، كما حضرت برفقة والدي الحفلة الكبرى التي أقيمت لتأبين المرحوم عبد الحميد كرامي وألقى حينذاك والدي كلمة الحكومة السورية في ذلك التأبين.

ومن شواهد تلك العلاقة الوثيقة بين رجال السياسة السوريين واللبنانيين أذكر أن أسعد هارون تدخّل غير مرّة في تشكيل قوائم الانتخابات اللبنانية؛ فبعد وفاة عبد الحميد كرامي وقع خلاف بين شقيقه مصطفى كرامي وابنه رشيد كرامي إذ ترشح كلاهما لخوض الانتخابات النيابية بمواجهة الآخر ما شكّل اندفاعاً لدى رجالات الكتلة الوطنية في سوريا، وما دفعهم لتكليف أسعد هارون نظراً إلى العلاقات العائلية التي تربطه بآل كرامي، للتدخل لحل الخلاف ونجح مع آخرين في إقناع مصطفى بالتنازل لرشيد. كما أذكر تدخلاً آخر قام به والدي نجح خلاله في إقناع كل من أحمد الأسعد وعلي بزي بتحالفهما في قائمة انتخابية واحدة، وبالمناسبة فقد كان علي بزي معتقلاً مع والدي في معتقل (المية ومية) في واحد من الاعتقالات التي تعرض لها أثناء مقارعة الوجود الفرنسي في سوريا ولبنان، وأذكر أنّه في معرض المفاوضات التي كان يقوم بها والدي بين الرجلين كان كلّ منهما يحسب حساباً للطرف الآخر، فكان أحمد الأسعد يحسب حساباً لطموح علي بزي وتقدميته وشخصيته المستقلة، بينما كان علي بزي يحسب حساباً لزعامة أحمد الأسعد العريقة العائلية والتقليدية وتواضعه وحسن تعاونه مع مناصريه وقد عبر كلّ منهما عن ذلك، إلّا أن كلّ هذا لم يحل دون التوافق على دخول علي بزي في قائمة الأسعد في الانتخابات الأولى نتيجة هذه المساعي كما أنّ ذلك أيضاً لم يحل دون الانفصال بالخلافات اللاحقة وتشكيل كلّ منهما قائمته

مقدمة جنازة أسعد هارون يتقدمها حامل الأوسمة فالجمعيات المسيحية المشاركة في الجنازة حاملة بساط الرحمة، وتظهر الصورة التلاحم الوطني التقليدي الذي كان سمة الحياة في سوريا.

المستقلة التي نجح فيها علي بزي وحقق قدرة قيادية وعمل وزيراً للداخلية في عهد الرئيس شهاب وأثبت نجاحه وكفاءته.

نعمان:

ثمّة ظاهرة تكررت عند وفاة كلّ من عبد الواحد هارون عام ١٩٤٣م وأسعد هارون عام ١٩٦٨ وهي أن جنازة كل منهما قد شهدت حضوراً مسيحياً ذا بُعدٍ ديني إذ أرسلت الطائفة المسيحية شباناً يحملون ما يُعرف ببساط الرحمة، وهو تقليد أرثوذكسي متبع في جنازات بعض الشخصيات المسيحية المعروفة والمؤثرة. ما تفسيرك لتقبل المجتمع لمثل هذه الظواهر حينذاك وهل تعتقد أن مثل ذلك، أقصد القبول الاجتماعي لمثل هذه الظواهر، ما زال موجوداً اليوم.

نزار:

الواقع أن تقبّل المجتمع حينذاك لذلك جاء من خلال البعد الوطني وليس الديني، فلا المجتمع المسيحي كان يهدف إلى إضفاء بُعدٍ ديني على الحدث وعلى صاحب الجنازة في الحالتين، ولا قبول من قبل وقتها من أصحاب الرّأي في الوسط العائلي والعام بالظاهرة كان يريد ذلك، أو كان يمكن حتى أن يقبلها، لو أدرك أنّ الموضوع ذو بعد ديني. البعد الوطني كان وراء ذلك في الحالتين، كان غرض الطائفة المسيحية أن توحي وتؤكد أنّها تلحّ على البعد الوطني العام من خلال احتفائها بشخصيات من غير أتباعها على المستوى الروحي، وكان هدف

من اليمين: ١ – عبد الباقي نظام الدين، ٢ – فاخر الكيالي، ٣– أسعد هارون، ٤ – ...، ٥ – نوفل إلياس، علي بزي، ٧– الحاج نادر حافظ.

من قبل أن يؤكّد بدوره البعد الوطني العابر للأديان والمذاهب الذي كانت تمثله هاتان الشخصيتان. وبكلّ حال لم تكن هاتان الحادثتان فريدتين ووحيدتين بل إن التاريخ السوري المعاصر شهد أمثالهما ومن يعد إلى حوادث التاريخ الحديث ومذكرات من كتب في هذا المجال سيعثر على العديد من الشواهد على ذلك، ولعل أوضح شاهد ما زال ماثلاً في ذهني هو جنازة عبد الحميد كرامي عام ١٩٥٠م التي حفلت بوجود مسيحي لافت وأيضاً كان التقليد الأرثوذكسي المتمثل ببساط الرحمة حاضراً علماً أن كرامي متسلسل من عائلة دينية وقد شغل شخصياً منصب الإفتاء في طرابلس سنوات طوالاً.

نعمان:

صحيح، ولقد بذلت جهداً في البحث في هذا المجال وأريد أن أشير إلى حادثتين مماثلتين مشهورتين وغيرهما كثير، الأولى عند وفاة البطريرك غريغوريس حداد عام ١٩٢٨م، وهو الشهير والغني عن التعريف وكان يلقب ببطريرك العرب، فقد أقيمت له بدمشق جنازة شارك فيها من رجال الدين الإسلامي الكثيرون حتى قيل إن الجنازة طبعت بطابع الطقوس الإسلامية أكثر من المسيحية، بل كان ثمّة إلحاح من البعض أن تقام الصلاة لراحة نفسه بطقوسها الأرثوذكسية داخل المسجد الأموي نفسه، وكانت أصوات المشيّعين من المسلمين تعلو بالقول: (مات بطريرك النصارى وإمام المسلمين). والحادثة الثانية أوردها المرحوم نجاة قصاب حسن

بكتابه الجميل (حديث دمشقي) ومفادها أنّه يوم عاد المرحوم فارس الخوري من رحلة طويلة إلى مقرّ الأمم المتحدة بنيويورك حيث سجل المواقف المشهودة بالدفاع عن القضية الفلسطينية في ذلك المحفل الدّولي أقيم له استقبال في مطار المزّة حيث حضر كبار رجال الدولة والمجتمع ومنهم الشيخ بهجت البيطار الذي يوصف بأنّه كبير علماء الشام وقتذاك، وعندما نزل فارس الخوري من الطائرة تقدم الشيخ البيطار منه ونزع عمامته واضعاً إياها على رأس فارس الخوري ليقول له: (الآن صرت خورياً وشيخاً)...

نزار:

لا شكّ أن تلك الروح كانت موجودة إلى حدّ ما، قد لا تكون هي العامة والسائدة عند كلّ أطياف المجتمع لكنّها كانت أقله موضع سلوك النخبة وموضع قبول أفراد وفئات المجتمع، مرة أخرى لأنّها كانت تفهم ببعدها الوطني الواسع وليس ببعدها الديني أو المذهبي الضيق. أما عن سؤالك فيما إذا كانت مثل تلك الظواهر مقبولة اليوم ويمكن أن تمرّ وسط تقبل المجتمع وعدم اعتراضه، ربّما لأوّل وهلة سيكون جوابنا سلبياً بتأثير ما نشهده ويا للأسف من تراجع الشعور والرابط الوطني العام فاسحاً مكانه للنزعات المذهبية والطائفية والفئويّة ولتلك أسباب ربّما ورد حديثنا عنها في طيات هذه الصفحات، ولكن بقليل من التروي وبعيداً عن ضجيج وسائل الإعلام وتحليلات الكثيرين ممن يدعون المعرفة بالمجتمع السوري

ربّما كنّا أكثر تفاؤلاً حيال عمق مثل تلك الظواهر في النسيج الوطني والاجتماعي السوري، وأنا على ثقة تامة أنّه بمجرد انتهاء الظروف الشاذة التي تمرّ بها البلاد والمنطقة والتي لها أيضاً أسبابها الخارجية، فإنّ الأمور ستعود إلى حقيقتها وإنّ الأصالة الوطنية ستبقى أقوى من أيّ اعتبار، إلّا أنّ هذه القناعة لا تعني أن على الطبقة الوطنية النيرة أن تستسلم لهذا المفهوم بل يفترض بها العكس، إذ يجب أن تعمل على رصّ الصفوف وبثّ الحنين واستثارة النخوة مع موقف وطني شفاف تبتعد فيه عن المصالح، والتعالي عن المناصب والمطالب، فالوضع خطير يستدعي ما هو أكثر من ذلك.

نعمان:

نصل إلى الجزء الثاني من السؤال والمتعلق بكم شخصياً، بطبيعة الحال ليست الغاية عرضاً لمؤهلات أو مواقف شخصية بقدر ما هو رغبة في إعطاء القارئ فكرةً وتصوراً عن خلفية من يتحدث إليه لاستجلاء الروابط التي تساعده على تفهم دلالات الحديث.

نزار:

بداية أعتبر نفسي من المهتمين بالشأن العام بمفهومه الواسع وليس بجانبه السياسي فقط لاسيّما في الفترات التي أصبح فيها الانخراط في العمل السياسي قضية غير مرغوب فيها، أو غير متاحة إذا شئت، بسبب تبدل مناخ العمل السياسي واتجاهه نحو مسارات لا

تتناسب مع طبيعة المفاهيم التي أحملها عن السياسة فكراً وممارسة. لذلك كان العمل في الشأن العام بأبعاده الاجتماعية والثقافية والخيرية وحتى الرياضية أحياناً مجالات كانت لي فيها مساهمات تزيد أو تنقص. غير أنّ فترة الوحدة ولا سيما في الأيام الأولى التي كانت تحمل بريق أمل بحياة سياسية واعدة أغرتني بالعودة إلى ميدان السياسة المباشر إذ كنت من الذين تنافسوا في انتخابات ما عرف وقتذاك بـ (الاتحاد القومي) ليكون معبراً سياسياً عن تطلعات الجماهير وحراكها لنكتشف بالنتيجة أنّ ذلك لم يكن إلّا حزباً أو تنظيماً مرتبطاً بالسلطة ارتباطاً مباشراً ولا يمارس السياسة بالمفهوم الذي أعرفه وأسعى إليه. وبطبيعة الحال فإنّ التحول الكبير الذي أصاب الحياة السياسية في سوريا بعد فترة (الانفصال القصيرة) قد كرّس مفهوم الحزب الواحد؛ فإذا أضفنا إلى ذلك موضوعاً خاصاً هو وفاة والدي واضطراري إلى تحمل عبء ديونٍ تركها بعد وفاته، كلّ ذلك أخذني بعيداً باتجاه الحياة العملية من خلال مهنة المحاماة التي بدأت أخطو خطواتها بعد تخرجي في كلّية الحقوق بجامعة دمشق عام ١٩٥٥م وبعد انتهاء فترة تدرّبي في مكتب الأستاذين صلاح شاهين وعبد الكريم حميدان.

نعمان:

لماذا كانت دراستك في جامعة دمشق وليس على خطى الوالد في إحدى الجامعات الفرنسية أو غيرها من الجامعات الأوروبية؟

نزار:

الواقع أن ذلك كان وارداً بل أقول إن الاستعدادات لسفري إلى فرنسا للدراسة الجامعية كانت بدأت بعد انتهاء مرحلة الدراسة الثانوية مباشرة، إلّا أن ذلك اصطدم بالأعباء المادية التي ستترتب على الأسرة، ربّما من الصعب اليوم أن نتصور أن زعيماً سياسياً ونائباً ووزيراً مثل أسعد هارون ينوء بحمل تكاليف دراسة ابنه في الخارج، ولكنّ ذلك كان حقيقة لا تنطبق على أسعد وحده بل على الكثيرين من رجال السياسة الذين كانوا ينفقون من ثرواتهم وأموالهم على أنشطتهم السياسية وانخراطهم في العمل العام والأمثلة عديدة. ولعلّي أستعير طرفة أوردها الصديق المرحوم محمد معروف في كتابه (أيام عشتها) عندما سألني بعد حضوره حفلة عرس أقمتها لابنتي في اللاذقية: كانت هذه حفلة عرس ابنتك، فكيف كانت حفلة عرسك وأنت الولد الوحيد لأسعد هارون؟ فلما أجبته أنّ والدي لم يقم لي حفلة عرس بسبب أوضاعه المادية التي لم تسمح بذلك حينذاك قال: هكذا كان رجال السياسة سابقاً ينفقون من أموالهم الخاصة ولا يكنزون الأموال.

ولكي نكون موضوعيين، فإضافةً إلى ما ذكرت حول ذلك لا بدّ من القول إن جامعة دمشق، ولا سيّما كلّية الحقوق، كانت تتمتع بسمعة علمية مرموقة وخصوصاً إذا عرفنا أن كبار رجال السياسة والقانون والإدارة في سوريا كانوا من أعضاء الهيئة التدريسية فيها

أمثال معروف الدواليبي وأحمد السمان ومصطفى السباعي وعبد الوهاب حومد ورشيد الدقر ومنير العجلاني ومحمد الفاضل ورزق الله أنطاكي، كما يحفظ تاريخ الجامعة وجود الدكتور والمفكر قسطنطين زريق على رأسها فترة من الفترات وأعتز بمعرفته شخصياً وبإهدائه إلي كتابه معنى النكبة.

نعمان:

إذاً لم يكن للعمل الوظيفي والإداري خلال كلّ تلك السنوات مكان في تجربتكم العملية؟

نزار:

لا، ولكن هناك قصة طريفة وذات عبرة عن محاولة لي للحصول على عمل وظيفي. عند تخرجي في الجامعة عام ١٩٥٥م علمت أنّ الحكومة بصدد تعيين موظفين في الخارجية، فقلت لنفسي لماذا لا أنتسب إلى وزارة الخارجية السورية وهو عمل طالما كان حلم الشباب وخصوصاً خريجي كلّية الحقوق. كان والدي وزيراً وقتذاك إلّا أنه كان بمهمة خارجية طويلة نسبياً. ذهبت إلى (سعيد الغزي) وكان رئيس الوزراء وطلبت منه ذلك، قال: فعلاً الحكومة بصدد تعيين استثنائي بمرسوم جمهوري لكلّ من خالد البرازي، وهو بالمناسبة ابن محسن البرازي رئيس وزراء حسني الزعيم الذي قتل معه إثر انقلاب سامي الحناوي، ولزميل آخر اسمه أحمد

كمال حمدي وهو شقيق الشهيد الضابط الذي غاب عن ذهني اسمه الأول والذي استشهد في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م وكلاهما من خريجي الحقوق مثلي، وقد طلب منّي سعيد الغزي التقدم بطلب ليصار إلى ضمي إليهما في مرسوم التعيين المرتقب ذلك أن الأنظمة حينذاك تجيز للحكومة تعيين خمس عدد الموظفين خارج المسابقة بمرسوم، وبالفعل استكملت أوراقي بسرعة وصدر المرسوم بتعييني مع البرازي وحمدي حتى إن جريدة الرأي العام المحسوبة على اليسار وقتذاك قامت بنشر نص المرسوم لتسجل موقفاً على الرئيس القوتلي إذ جاء العنوان (تعيين هارون والبرازي وحمدي بالخارجية) وكان العنوان الصحفي يوحي وكأن هؤلاء عيّنوا سفراء في حين أن نصّ المرسوم جاء بما يفيد التعيين بمرتبة خامسة درجة ثانية كما هو الحال بتعيين خريجي الجامعات كافة بوظيفة حكومية. بعد عودة والدي من سفره، ولم يكن على علم بالموضوع، تمّ استدعاؤه لمقابلة الرئيس شكري القوتلي في قصر المهاجرين، عندئذ أخرج الرئيس مشروع المرسوم المذكور الذي يحتاج إلى توقيع رئيس الجمهورية ليصدر رسمياً باعتباره تعييناً استثنائياً، وقال لوالدي: هل تريد أن يقول الناس إنّنا نعين أولادنا استثنائياً من دون مسابقة واختبار، فأبدى والدي دهشته وقال للرئيس: لا علم لي بالموضوع وأفضل أن يعمل في المحاماة وبذلك يتاح له فرصة العمل العام، وبالتالي تم طي المرسوم. بعد ذلك جرت مسابقة للخارجية لم أتقدم إليها وتقدم إليها البرازي الذي نجح في المسابقة ومن ثم

المحامي نزار هارون مصافحاً الملك حسين بمناسبة انعقاد المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب في عمان

صدر مرسوم استثنائي لتعيين حمدي، وبذلك توظف الاثنان في الخارجية.

نعمان:

كيف تجمل لنا بسطور مسيرة ما يقرب من ستين عاماً في مهنة المحاماة، إذ يبدو أنك حققت نجاحاً لافتاً في مضمار هذه المهنة؟

نزار:

لا شك أن مهنة المحاماة رغم بعض الشوائب التي شابتها في السنوات الأخيرة تبقى من المهن العلمية ذات البعد الأخلاقي التي تشرفت بالانتماء إليها وسأتابع عملي بإخلاص فيها طالما كنت قادراً على ذلك. وإذا كان من نصيحة للجيل الجديد الوافد إلى المهنة، وكثيراً ما أسأل تلك النصيحة، فلا شك أن الالتزام الأخلاقي المقرون بالمعرفة والبحث عنها بشكل دؤوب والجدية والمثابرة والتنظيم، كل ذلك من الصفات الأولى التي يحتاج إليها ممتهنو هذه المهنة. ومن ذكريات أول الطريق في مهنة المحاماة بعد التخرج في كلّية الحقوق بدمشق عام ١٩٥٥م أنّني كنت ووالدي في طريق عودتنا من دمشق إلى اللاذقية عن طريق بيروت كما كانت العادة وقتذاك، وكعادة والدي التواصل مع أصدقائه، اتصل عند توقفنا ببيروت بصديقه السياسي وأحد أركان الاستقلال ووزير الخارجية في لبنان حينذاك حميد فرنجية الذي أصرّ على دعوتنا

الدرع التكريمي الذي مُنح للمحامي نزار هارون من قبل نقابة المحامين ووزارة العدل عام ٢٠١٠م، بدءًا بتقليد رغبت النقابة في تكريسه كل عام، ولم تتح الظروف إعادته مرة ثانية.

١ - عدنان الزين، ٢ - محمود حج حسين، ٣- صلاح شاهين، ٤ - جميل العبد الله،
٥ - الملك حسين ملك الأردن، ٦ - توفيق هارون، ٧ ـ نزار هارون.

الصورة بمناسبة انعقاد المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب في عمان.

لقاء المحامي نزار هارون مع ملكة الدانمارك بمناسبة اجتماع القناصل الفخريين للمملكة الدانماركية في كوبنهاغن عام ١٩٧٣م.

إلى الغداء بحضور أصدقاء مشتركين لوالدي أذكر منهم: علي بزي وتقي الدين الصلح ومحمد صفي الدين. ولما علم حميد فرنجية بتخرجي في كلّية الحقوق ورغبتي في ممارسة المحاماة قال لي: خذ منّي هذه النصيحة التي هي واحد من مفاتيح النجاح في هذه المهنة وقال (أكسر رجلك بمكتبك) وهو قول شائع بمعنى التزم البقاء في مكتبك. وهي نصيحة أجيّرها بدوري للوافدين الجدد إلى مهنة المحاماة وذلك يعني أن وجودك في مكتبك يعني متابعة ودراسة أضابيرك واستقبال موكّليك والعودة إلى الكتب المحفوظة لاستجلاء المواقف القانونية، وأهم من هذا أيضاً يمنعك من التسكع هنا وهناك خارج المكتب مما لا يليق بكرامة المهنة ومزاولها.

وثمّة حادثة أخرى تتعلّق بذلك لا تزال في الذاكرة صاحبها العلامة القانوني ظافر القاسمي الذي شغل منصب نقيب المحامين السوريين وكان أيضاً من أصدقاء والدي، والحادثة تتعلّق وقتئذ برغبتي في الحصول على تمثيل قانوني ذي أهمية وقتذاك، ولم يكن قد مضى طويل زمن على بدء تسجيلي في النقابة فقال لي القاسمي رحمه الله: طوّل بالك يانزار (صار لك في القصر من امبارح العصر) إنّه اندفاع الشباب وحكمة الشيوخ وذوي الخبرة.

أختم بالقول: نعم أصبت نجاحاً معقولاً في مهنة المحاماة، وأمنت لي المهنة بدورها أسباب الحياة الكريمة والمركز الاجتماعي الملائم، ولا بدّ من الاعتراف بالوقت نفسه أنّ ظروفاً اجتماعية وأسرية ساعدتني في خطوات أوّل الطريق وبعده، فمثلاً كنت ربّما

من المحامين الأوائل الذين نشطوا في مجال التحكيم التجاري الدولي الذي يعتبر اليوم أساساً من أسس فض النزاعات التجارية على المستوى الدولي إذ كلّفتني شركة الإنشاءات العربية، وهي شركة معتبرة يملكها أصدقاء وأقرباء، متابعة نزاع هام أمام مجلس الدولة شكّل لي مع قضايا أخرى مشابهة منطلقاً للقضايا الكبيرة ومدخلاً لمسار جديد ومتميز في مهنة المحاماة تبعها تحكيم دولي أمام الغرفة العربية الفرنسية في باريس لنزاع قائم بين مجموعة شركات فرنسية وألمانية (سوسيا- بونا- بفايفر) وبين جهات رسمية سورية وهكذا..... أسوق تلك الأمثلة لأبين أنّه ربّما تتاح ظروف اجتماعية وأسرية تساعد ممتهن المحاماة على تلمس طريقه ودعم خطواته لكن تبقى المثابرة والالتزام والسلوك المهني القويم هي الأسس التي تتكفل بقطف الثمار.

نعمان:

إضافة إلى التعرف إلى مكونات المجتمع السوري من خلال الأسرة التي تعمل في العمل العام والشأن السياسي كان للدراسة في مدرسة خاصة ذات طابع ريفي ومن ثم الانتساب إلى كلّية الحقوق في الجامعة السورية دور مهمّ في الاحتكاك بهذا المجتمع أيضاً، كيف يمكن لنا أن نصف المجتمع السوري في تلك الفترة، هل هو مجتمع مغلق، منفتح، تأثير الأحزاب والساسة، تأثير رجال الدين.

١ - المحامي موسى نصير، ٢ - المحامي صلاح شاهين، ٣- المحامي حسني عطية، ٤ - الرئيس فؤاد شهاب، ٥ - المحامي ماجد صفية، ٦ - المحامي نزار هارون.

بمناسبة انعقاد المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب في لبنان في أواخر الخمسينيات.

نزار:

قبل المدرسة ذات الطابع الريفي وهي الثانوية الوطنية ببانياس، فقد كانت دراستي الابتدائية في (معهد الفرير) أي مدرسة الآباء اليسوعيين وهي سلسلة مدارس أقامها الرهبان الفرنسيون في سوريا ولبنان بدءاً من نهايات القرن التاسع عشر، وهي وإن كانت في الأصل نشاطاً للبعثات التبشيرية إلّا أنها ضمت الطلاب من كلّ المذاهب والأديان من خلال تحييد النشاط التبشيري عن المناهج الدراسية. ولقد كان لهذه المدارس دور ملحوظ في نشر اللغة والثقافة الفرنسية ومكنت متخرجيها من متابعة دراستهم في الجامعات الفرنسية سواء في لبنان أو في فرنسا. لذلك ورغبةً من الأهل في ضرورة إتقان اللغة العربية إتقاناً جيداً، وهو ما لم يكن متاحاً في معهد الفرير بالرغم من وجود حصص لتعليم العربية، فقد تلقيت دروساً خاصة باللغة العربية والديانة الإسلامية على يد مدرسين مختصّين كان لهم فضل مميز في هذا الاتجاه أذكر منهم الأستاذ محمد إسماعيل والشيخ جميل حجار رحمهما الله. ومن الذكريات التي ما زالت ماثلة في الذهن عن أيام الدراسة في (الفرير) هي زيارة الجنرال ديغول للمعهد خلال وجوده بزيارة اللاذقية حيث رأت إدارة المعهد أن يقوم الطلاب بحمل الأعلام الفرنسية تحية للضيف، إلّا أنّ أحد الطلاب وهو السيد عميد ابن المرحوم فايز إلياس أحد أركان الكتلة الوطنية، قد اعترض على ذلك وشاركه في هذا الاعتراض طلاب آخرون ما

اضطر إدارة المدرسة ترك الخيار للطالب بحمل العلم الفرنسي أو العلم السوري الذي اعتمد علماً للبلاد بعد اتفاقية عام ١٩٣٦م التي تعرف بالاستقلال الأول. وفي الواقع كان العلم السوري هو الأكثر تفضيلاً من قبل الطلاب المصطفين لاستقبال الجنرال ديغول. في عام ١٩٤٦م بعد الاستقلال مباشرة تم إغلاق (معهد الفرير) إلّا أنّني كنت قد أنهيت دراستي الابتدائية لأبدء المرحلة الإعدادية والثانوية في مدرسة (التجهيز) وهو الاسم الذي كان يطلق على مدارس المرحلة الإعدادية والثانوية الحكومية، ومن ثم انتسبت إلى الكلّية الوطنية الخاصة في بانياس حتّى الحصول على الشهادة الثانوية أو ما يطلق عليها إلى اليوم (البكالوريا).

نعمان:

لماذا كانت الدراسة الثانوية حتى البكالوريا في مدرسة خاصة وبعيدة نسبياً وليس في (التجهيز) مثلاً وهي المدرسة الثانوية الرسمية الوحيدة في اللاذقية وقتذاك؟

نزار:

السبب الأساسي كان رغبة الوالد في توفير وقت للدراسة بعيداً عن جو المنزل الذي كان يحفل بشكل شبه دائم بالاجتماعات والأنشطة السياسية واللقاءات ولا سيّما في فترات الإعداد للانتخابات وما يرافقها من تشكيل القوائم الانتخابية وهو جو كان

لا بدّ سيجذبني إليه بعيداً عن متطلبات الدراسة لا سيّما في سنة البكالوريا. وواقع الأمر فقد كان لهذا القرار أثر إيجابي ما زال ماثلاً بعد كلّ تلك السنوات إذ انخرطت في تلك الفترة في وسط طلابي يمثل المدينة والريف ما أتاح لي فرصة للتعرف إلى مختلف الأوساط الاجتماعية وأتاح لي الكثير من العلاقات والصداقات التي حرصت وأحرص على استمرارها رغم بعد السنين وتعاقبها. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى فضل مؤسس المدرسة وراعيها المعلم يوسف الباني الذي ساهم في نشر العلم والمعرفة بين أبناء الطبقتين المتوسطة والفقيرة بتكاليف حرص على أن تكون متواضعة. ولقد كان لي حظ تقوية لغتي العربية من خلال سعة معرفة الصديق أحمد خير بك في هذا المجال والمرحوم أنيس فاضل حسن الذي كان ناظراً في المدرسة، كما كان لأعضاء النادي الثقافي ببانياس من الطلاب دور في الأنشطة الثقافية والأدبية أذكر منهم سري ياسين ومحمد مصطفى الأعسر وتوفيق جركس وآخرين غيبت أسماءهم الذاكرة عبر توالي السنوات. وبحكم وجودي في بانياس فكان لا بدّ من التواصل مع بعض أصدقاء والدي الموجودين في المنطقة أمثال المرحوم يحيى علي أديب الذي كان يشغل وظيفة قائم مقام والشيخ محمود حبيب نائب بانياس في البرلمان والمحامي محمد سعيد خدام وآخرين اكتسبت منهم الخبرة، وأطلب لهم جميعاً الرحمة.

نعمان:

تكلّمنا عن ثانوية النهضة الوطنية (أو كما هي معروفة باسم مدرسة المعلم يوسف)، بشكل عام وفضلها على أبناء الريف، سؤالي لك هل نحتفظ بذكرى خاصة من المناسب طرحها؟.

نزار:

بادئ ذي بدء أود أن أشير إلى أنّ هذه المدرسة احتفظت بمستواها بالنسبة إلى الغاية التي من أجلها أنشئت، ما بقي المعلم يوسف الباني نفسه وكان يطلق عليه أيضاً المعلم يوسف الخوري، يتولى إدارتها، ولما شاخ استعان بمرب جليل ليساعده وهو الأستاذ فريد حموي.

لقد تابع الأستاذ فريد إدارة المدرسة مباشرة أو مشاركة مع المعلم يوسف وبقي الأمر كذلك إلى إن شاع صيت الأستاذ فريد كأستاذ وإداري ناجح وحينئذ كانت الكلّية الأرثوذكسية في اللاذقية قد تأسست، وكان الأستاذ جبرائيل سعادة الذي أشرف على إقامة هذا الصرح سعى لضمه إليها، ونظراً إلى العلاقة الخاصة التي تربط المعلم يوسف وعائلته بالأستاذ فريد من جهة ولرغبته في الانضمام إلى الكلّية الأرثوذكسية التي كانت في طريق الصعود من جهة ثانية، عمل الأستاذ فريد بالتوافق مع إدارتي المدرستين على أن يقسم وقته مناصفة بينهما ثلاثة أيام من الأسبوع لكلّ من المدرستين وبالفعل جرى تنفيذ ذلك، ما سبب إرهاقاً للأستاذ فريد بالسفر والتنقل وتحمل الأعباء، وما أدّى

في النهاية إلى انصرافه على ما أذكر إلى الكلّية الأرثوذكسية في وقت كانت الشيخوخة قد فعلت فعلها بالمعلم يوسف وبالتالي أدّى ذلك إلى تراجع مدرسته.

وأذكر بالمناسبة احتفال المدرسة بعيد المعلم يوسف السنوي وتلك كانت مناسبة يفرح بها الطلاب وينظّمون حفلة كبيرة يجري فيها إقامة الزينة في سائر أنحاء المدينة كما تجري حفلة خطابية يشيد فيها الخطباء، الذين غالباً ما يكونون من طلاب المدرسة أو خريجيها، يشيدون بمناقب المعلم يوسف وبما أدّته هذه المدرسة من خدمات لذلك الجيل من أبناء الساحل السوري، كما كانت مناسبة تظهر فيها قرينة المعلم يوسف السيدة المحترمة أدويج محفوض كرمها وأريحيتها فتقوم بإعداد صداري البقلاوة وهي المعروفة بإتقانها، وتقدمها لجميع الطلاب والزوار، كما كان سرور المعلم يوسف، هذا الشيخ الجليل، يبدو واضحاً على أسارير وجهه ما يعدّه اعترافاً بفضله وجميله، وبما أن المعلم يوسف أستاذٌ للغة العربية وشاعرٌ أيضاً فقد كان ينهي الحفلة بخطاب عاطفي وقصيدة شعر يعبّر فيها من طرفه عن شكره وعرفانه.

ومازلت أذكر بيتين من الشعر من قصيدة ألقاها في ختام الحفلة يعبر عما ذكرنا وذلك لما رآه من عاطفة الطلاب ومحبتهم.

مما قال:

فَعِيْدي عِيَدُكمُ وَالابْـنُ طَبْعَاً بِعِيْدِ أَبِيْـهِ يَـخْتَـالُ اِنْشِرَاحا
وَعِيْدِي أَنْ أُشَاهِدَكم جَمِيعَاً تَـهـزُونَ الـمَـنَـابِـرَ وَالـرِّمَـاحَـا

نعمان:

نصل إلى مرحلة الدّراسة الجامعية بكلّية الحقوق بدمشق، لا شك أنّ ذلك فتح لك أفقاً جديداً من خلال الجامعة والمجتمع الدمشقي؛ فالمعروف أن أساتذة كلّية الحقوق وقتذاك كانوا من الأسماء اللامعة في عالم السياسة والإدارة، وكان العدد القليل نسبياً من الطلاب يتيح التفاعل بين الأساتذة والطلاب من جهة وبين الطلاب أنفسهم من جهة أخرى.

نزار:

لا شكّ أنّ انتسابي إلى كلّية الحقوق بجامعة دمشق، أو الجامعة السورية كما كانت تعرف وقتذاك، قد ساهم في توسيع أفقي الاجتماعي بحكم مجتمع دمشق الأوسع قياساً على مدن كانت صغيرة وقتذاك كاللاذقية حيث ترعرعت وبانياس حيث حصلت على البكالوريا من الثانوية الوطنية الخاصة كما أسلفنا. ولقد وفر لي مجتمع دمشق احتكاكاً بأشخاص أكبر منّي سنّاً وذوي مراكز اجتماعية وسياسية وفكرية، ولا شكّ أنّ ذلك كان حصيلة علاقات والدي وبحكم وجوده بدمشق لفترات طويلة نسبياً سواء أكان ذلك خلال عضويته في البرلمان أم في أثناء توليه إحدى الحقائب الوزارية أم لأسباب مختلفة مستمدة من عمله في الحقل العام، كلّ ذلك أتاح لي فرصة طيبة للاحتكاك والتواصل مع أسماء لامعة في حقل العمل السياسي والاجتماعي.

أما عن الجامعة نفسها فلقد كانت وقتذاك، ونحن هنا نتحدث عن سنوات مطلع الخمسينيات، تعج بالنشاط السياسي والاجتماعي والثقافي في وقت كانت سوريا عموماً ودمشق بوجه خاص توصف أنّها منارة العروبة، كان الحلم والأمل يملأن عقول الجميع وصدورهم. لم يكن اختلاف المشارب والاتجاهات السياسية والفكرية مدخلاً للعداوة والبغضاء بين الطلاب، كنت ترى في حديقة كلّية الحقوق البديعة تجمعات الفئات السياسية المختلفة فإذا انفضت تلك التجمعات عاد الطلاب (إلى شللهم) التي كانت تجمع المختلفين بتوجهاتهم السياسية والفكرية لكنهم متوافقون بالصداقة والزمالة والسكن ومغامرات وصبوات الشباب. ولم يكن السوريون وحدهم في تلك الكلّية وفي جامعة دمشق عموماً، بل كنت تسمع في حديقة الجامعة ومدرجاتها اللهجات الأردنية والفلسطينية والعراقية وغيرها من اللهجات، وكانت لفظة (القضية) شائعة على ألسن الطلاب، ولا حاجة لشرح مفهوم تلك اللفظة؛ فالكلّ يعرف أنّها الهم القومي وفلسطين في القلب منه. في كلّية الحقوق تعرفت إلى من يطلقون على أنفسهم (القوميون العرب) ويطلق عليهم الطلاب (المحاليق!!) كانوا يظهرون ويغيبون، وكلّما كنا نسمع عن قنبلة ألقيت على سفارة (معادية) أو حدث من هذا القبيل كانت الأصابع تتجه إليهم، أذكر منهم: ممدوح رحمون ووليد الكزبري ورشاد حنان وعمر الرباط وغيرهم.

نعمان:

هل كانت الاتجاهات السياسية الناشطة في الحياة السياسية السورية حاضرة بشكل عام في الوسط الجامعي وكلّية الحقوق؟

نزار:

بشكلٍ عام نعم، ولكن لكلّ اتجاه من تلك الاتجاهات مجالات يركزون عليها، فالبعثيون ينشطون في الأرياف، والإخوان المسلمون في الوسط الدمشقي الأكثر محافظة، والقوميون السوريون في مناطق طرطوس واللاذقية، وبالتالي فإنّ الطلاب القادمين إلى الجامعة من تلك الأوساط التي أشرنا إليها كانوا يحملون معهم من مناطقهم ومحافظاتهم وقراهم تلك الأفكار والاتجاهات السياسية لتكون حاضرة في ردهات ومدرجات وحدائق الجامعة. إضافةً إلى ذلك كانت ثمّة اتجاهات وأفكار و(شلل) تنتعش فترة من الزمن ثم لا تلبث أن تخبو دون أن تترك أثراً يذكر، ومن أمثلة ذلك نشاط الحزب التعاوني الاشتراكي الذي أسسه فيصل العسلي حيث لاقى بدايةً هوى وميلاً لدى فئة من طلاب كلّية الحقوق ثم سرعان ما انطفأ وهجه بسرعة كما ظهر بسرعة مخلفاً خيبة أمل لدى محاربيه ومناصريه، ولعل السبب كان وقتذاك الهيمنة واحتكار القرار الذي كان يمارسه الشخص الأول في ذلك الحزب في الوقت الذي لم تكن ظاهرة الفردية والنزعة نحو التسلط مألوفة في الحياة السياسية السورية.

نعمان:

يشير الكثير من دارسي تلك الفترة إلى أنّ الجامعة عموماً وكلّية الحقوق بشكل خاص شكّلتا طليعة الحراك السياسي والمطلبي في الشارع الدمشقي، ما هي ذكرياتكم حول ذلك؟

نزار:

ذكريات تلك الفترة ماثلة في الذهن إلى اليوم، كانت كلّية الحقوق في فترة معايشتي لها بين عامي ١٩٥٠-١٩٥٤م محور النشاط السياسي في سوريا، فمنها كانت تنطلق الحركات القومية بمختلف مشاربها واتجاهاتها، وفيها ترسخت أفكار الحرية والعدالة الاجتماعية. وكانت التظاهرات التي تبدأ في كلّية الحقوق سرعان ما ينضم إليها طلاب المرحلة الثانوية أو التجهيز كما كان الاسم المتداول وقتذاك. ولا تزال في الذاكرة تلك الحادثة التي انتهت باستقالة رئيس الجامعة المفكر القومي الدكتور قسطنطين زريق إذ انطلقت وقتذاك تظاهرة من كلّية الحقوق سرعان ما تصدّى لها أفراد الشرطة العسكرية ضمن حرم الجامعة لمنع التظاهرة من الخروج من الحرم الجامعي وتمّ اعتقال عدد من الطلاب ما عُدّ تعدّياً سافراً على حرمة الجامعة واستقلالها ما دفع رئيسها وهو الحقوقي والمفكرالقومي المعروف إلى الاستقالة احتجاجاً والعودة إلى عمله السابق في الجامعة الأميركية ببيروت رغم كل المحاولات لإقناعه بالتراجع عن قراره التي قام بها رسميون من الحكومة على أعلى

١ - أسعد هارون، ٢ - منير العجلاني، ٣ - بدوي الجبل.

المستويات متعلّلاً أنّ انتهاك حرمة الجامعة من قبل الجهات الأمنية عمل لا يغتفر من وجهة نظره. وفي الذاكرة حادثة أخرى من أجواء تلك الأيام تتعلق بالدكتور منير العجلاني أستاذ الحقوق الدستورية والسياسي السوري المعروف الذي انتخب نائباً عن دمشق وشغل منصباً وزارياً غير مرة. فقد شهدت فترة حكم الشيشكلي وما رافقها من محاولات تأطير الحياة السياسية والحزبية ضمن أطر محددة ومرسومة مسبقاً، حراكاً احتجاجياً أدّى من ضمن ما أدّى إليه إلى اعتقال الدكتور العجلاني، ولما حان موعد محاضرته الأسبوعية وكانت تعجّ بالطلاب الذين كانوا يواظبون على حضور محاضراته لأهميتها من جهة ولكونه شخصية سياسية عامة من جهة أخرى، أنابت الجامعة عنه الدكتور مصطفى البارودي العائد حديثاً من جامعات فرنسا مشبعاً بمشاعر الحرية والديمقراطية وكرامة الفرد واستقلال الجامعة فما كان من الدكتور البارودي إلّا أن اعتلى منبر القاعة وقال بجرأة وشجاعة قل نظيرها إنّ محاضرته اليوم ستكون حول مزايا ومناقب الدكتور العجلاني وإن اعتقاله وإيداعه سجن الشرطة العسكرية (وكان قد مضى حوالى أسبوع على توقيفه) لهو مناف لأبسط قواعد الحرية والديمقراطية والحقّ بالتعبير عن الرأي. وتابع الدكتور البارودي، وهو خطيب مفوه، قائلاً كلمات ما زالت محفورةً بالذاكرة رغم بُعدِ الأيام : «في هذا العهد الذي تُدَاسُ فيه حرياتنا وتنتهك كراماتنا يعتقل أستاذنا وأستاذكم الدكتور منير العجلاني أبو الحقوق الدّستورية وأنتم قابعون على مقاعدكم».

وتابع على ذلك النهج وبلغة خطابية رائعة محرّضاً الطلاب على الاحتجاج وهو ما كان موضع تصفيق واستحسان من الحاضرين وإن لم يستطع الدكتور البارودي أن يتمّ رسالته فيما بعد فقد كان السيف أبلغ من فصاحة البيان لكنه سجّل موقفاً رجولياً يُحسب له.

الفصل الثالث

بين الجلاء والوحدة مع مصر

أسلمك يا سيادة الرئيس خمسة ملايين سوريّ كلّهم سياسيون، ونصفهم يَعتقدُ أنّه يصلح لأنْ يكونَ رئيساً.

قولٌ منسوبٌ إلى شكري القوتلي قاله لعبد الناصر بعد توقيع اتفاقية الوحدة السورية المصرية في ٢٢/شباط/ فبراير ١٩٥٨م.

نعمان:

شكّلت انتخابات عام ١٩٤٧م مفصلاً هامّاً في الحياة السياسية السورية لأنها أوّل انتخابات تجري بعد الاستقلال، إلّا أنّ المهتمين يقولون إنَّ تلك الانتخابات كرّست وجود الطبقة السياسية نفسها التي كانت موجودة على الساحة في فترة الانتداب الفرنسي، كيف تقيّمون ذلك، وهل برأيكم كان يمكن، لولا آفة الانقلابات العسكرية، ظهور تعديل في الوضع السياسي يسمح لمختلف الطبقات الاجتماعية بأن تعبر عن نفسها سياسياً، سؤال افتراضي ولكنه مدخل لما سيأتي من حديثنا عن الانقلابات العسكرية.

نزار:

لا شكّ أن انتخابات عام ١٩٤٧م كانت حدثاً مهما ليس لأنّها الانتخابات البرلمانية الأولى التي تجري بعد نيل البلاد الاستقلال التام عن فرنسا فقط، بل لأنّ الظروف التي تمت فيها تلك الانتخابات والاهتمام الجماهيري الذي أحاط بها والتحالفات السياسية التي تمت خلالها دلت وقتذاك على حيوية المجتمع السوري وعلى رغبة عامة في بناء حياة سياسية على أسس سليمة وروح تنافسية وهو ما تمَّ تقويضه بعد ذلك مع الأسف من خلال آفة الانقلابات العسكرية التي

أودت بكلّ تلك الإيجابيات والآمال. هل يمكن أن يصدق أحد أن نسبة الإقبال على الاقتراع كانت في مدينة دمشق خلال تلك الانتخابات ٦٠٪ وهي نسبة لا تصل إليها اليوم أعرق الديمقراطيات الغربية في عواصمها. لقد جرت تلك الانتخابات بتاريخ ٧ تموز ١٩٤٧م، لكن الحراك والنقاش حولها بدآ قبل ذلك بفترة غير قصيرة وتمَّ تعديل قانون الانتخابات نفسه بضغط من الشارع إذ كان القانون المقترح على مجلس النواب بدايةً الإبقاء على نظام الانتخاب غير المباشر على مرحلتين بحيث يختار الناخبون ممثليهم الذين هم بدورهم يختارون أعضاء البرلمان، إلّا أن التظاهرات والاحتجاجات العارمة دفعت مجلس النواب إلى تعديل ذلك النظام إلى نظام الانتخاب عبر المرحلة الواحدة بحيث يختار الناخبون ممثليهم إلى البرلمان مباشرة. لكن المطالبة الشعبية بمنح حقّ الانتخاب للنساء لم تستطع أن تمرر ذلك إذ بقي حق الانتخاب، ولمرة أخيرة، محصوراً بالذكور وليتغير ذلك في الانتخابات اللاحقة عام ١٩٥١م. كما أنّ المطالبات الشعبية نجحت في تمرير تعديل هام آخر هو التوزيع الطائفي للمقاعد الذي ألغي وإن حفظ التعديل الجديد عدداً محدداً من المقاعد لغير المسلمين على اختلاف طوائفهم وكذلك تحديد عدد من المقاعد للعشائر، وللتاريخ والحقيقة لا بدّ أن يسجل لحكومة جميل مردم بك أنّها في النهاية صاغت نظاماً انتخابياً متقدّماً وأدارت انتخابات نزيهة وشفافة إلى حدّ كبير.

نعمان:

هل توافق على ما ورد في متن السؤال من أنّ تلك الانتخابات كرّست وجود الطبقة السياسية نفسها التي كانت تدير الحياة السياسية قبل الجلاء دون تغيير يذكر؟

نزار:

بدايةً لا بدّ من التذكير أنّ تلك الانتخابات قد جرت بعد سنتين من حصول البلاد على استقلالها التام عن الفرنسيين وهي فترة لا تسمح بتبلور تحولات عميقة في المجتمع تنعكس آثارها على الحياة السياسية والبرلمانية بشكل واضح، ثم إنّ الطبقة السياسية التي حققت الجلاء بعد نضال سنوات من المفترض أنّها لا تزال تتمتع بالألق الذي يوفره لها هذا الإنجاز الكبير الذي لم يخب وهجه خلال تلك الفترة القصيرة نسبياً من عمر الاستقلال. ومع ذلك فالمتفحص للنتائج التي تمخضت عنها الانتخابات وما رافق فترة الإعداد لها من حراك جماهيري أجبر البرلمان والحكومة على تعديل جوهري في قانون الانتخاب الذي كان سائداً يؤشّر على أنّ حراكاً مهماً قد بدأ يتبلور ضمن مكونات المجتمع السوري وإن لم يتح له الوقت من أن يفرز أطره السياسية الجديدة ولكنه انعكس سلباً على الأحزاب الموجودة أصلاً بتراجع عدد المقاعد التي حصلت عليها نتيجة الانتخابات إنّما لمصلحة فئات المستقلين على اعتبار أن الأطر السياسية الجديدة من أحزاب وتيارات لم تتبلور بعد كما

أسلفنا. فالحزب الوطني الذي اعتاد أن يحصل على أغلبية مريحة في الانتخابات السابقة والذي يرتبط اسمه بالشخصيات التي انتزعت الاستقلال لم يحصل سوى على أربعة وعشرين مقعداً من مقاعد البرلمان البالغة مئة وستة وثلاثين مقعداً، كما أن حزب الشعب لم يحصل سوى على عشرين مقعداً في حين ذهبت المقاعد الباقية وعددها اثنان وتسعون مقعداً إلى مستقلين وإن كان عدد من هؤلاء المستقلين هم بالأصل ممن كانوا ينتمون إلى هذين الحزبين إلّا أنَّ خوضهم الانتخابات وفوزهم بها كمستقلين لهو مؤشّر على أن تغيرات كانت قد بدأت تشمل الطبقة السياسية التقليدية وكانت تحتاج إلى مزيد من الوقت لتتبلور وهو مع الأسف ما قضت عليه آفة الانقلابات العسكرية التي لم تتأخر في الظهور، إذ عرفت طريقها إلى التاريخ السوري بعد أقلّ من سنتين من تلك الانتخابات الهامة التي نحن بصدد الحديث عنها.

ثم إن تلك الانتخابات أفرزت مؤشراً هاماً وجوهرياً لا يتمّ الالتفات إليه من قبل الدّارسين والباحثين، وهو أنّ حركة الإخوان المسلمين لم تستطع دخول البرلمان ولو بمقعد واحد على الرغم من تحالفها مع بعض الأحزاب والتيارات السياسية، بل إن مرشحها في حلب معروف الدواليبي، وهو من، هو!، فشل في الفوز في تلك الانتخابات. والمؤشّر الذي نود التنويه به أنّه برغم كلّ ما يقال عن تقليدية المجتمع السوري وهيمنة المؤسسة الدينية ورجالها فإنّ هذا المجتمع قد خرج من الاصطفافات الدينية والمذهبية نحو التموضعات

السياسية عندما أتيح له جانب من الحرية في عملية الاختيار. طبعاً لا نريد أن ننتهي إلى نتيجة مؤداها أن تلك الانتخابات كانت مبرأة من كلّ نقص أو عيب أو محاولة تلاعب بالنتائج، لقد سجلت العديد من المخالفات والصدامات وعمليات شراء الأصوات واتّهم محافظ حلب بممالأة مرشحي الحزب الوطني وجرت اشتباكات في حماة والسويداء أدّت إلى وقوع قتلى وجرحى وأعيدت الانتخابات في بعض المراكز نتيجة مخالفات، ولكن بالنتيجة وصفت الانتخابات بشكل عام أنّها على درجة معقولة من النزاهة وسجل لحكومة جميل مردم بك، الذي كان بدوره مرشحاً في دمشق، أنّها أدارت الانتخابات بجو معقول من الحيادية.

نعمان:

ربّما ما جرى بدمشق وحلب هو نتيجة انعكاس الحالة المدينية التي استطاعت أن تفرز ذلك الاصطفاف ذا البعد السياسي أكثر من ذلك الذي يعتمد على الأبعاد الأخرى من مناطقية أو طائفية، ولكن ربّما كان الوضع مختلفاً في التجمعات المدينية الأصغر التي ما زال الطابع الريفي أو العشائري أكثر تأثيراً فيها؟

نزار:

لنأخذ نتائج الانتخابات في اللاذقية التي عايشتها بالرغم من غضاضة العمر وقتذاك حيث كان والدي مرشحاً فيها وكان منزلنا

(المطبخ) الذي يجري فيه تأليف القوائم الانتخابية وتوضع فيه أسس الحملة الانتخابية للمحافظة. كانت اللاذقية مدينةً وقضاءً تشكل دائرة انتخابية واحدة، وقد تشكلت قائمة الحزب الوطني من أسعد هارون والدكتور نديم شومان ومحمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل)، في حين ضمت القائمة المنافسة كلاً من الدكتور أمين رويحة ومحمد شوّاف والدكتور وهيب الغانم الذي يعدُّ من الآباء المؤسسين لحزب البعث. الواضح أن كلتا القائمتين كانتا عابرتين للطائفية والمناطقية، ومع ذلك كانت المنافسة شديدة والأصوات التي حصل عليها المرشحون في كلّ مناطق الدائرة الانتخابية متقاربة جداً، نعم فازت قائمة الحزب الوطني إلّا أنّ المنافسة، كما أسلفنا، كانت شديدة جداً والنتائج متقاربة إلى حدٍ كبير، والأهم من النتائج هو قراءة الأرقام التي حصل عليها المرشحون، فوهيب الغانم على الرغم من أنّه لم ينجح بالنتيجة إلّا أنه استطاع الحصول على أصوات في بعض مراكز المدينة تفوق ما حصل عليه كلّ من أسعد هارون ونديم شومان وهما من أبناء المدينة. في المقابل استطاع هارون وشومان الحصول على أصوات في العديد من مراكز قضاء اللاذقية (أي الريف) تفوق ما حصل عليه الدكتور وهيب الغانم بل بدوي الجبل نفسه. بمعنى آخر لم تكن الاصطفافات الطائفية والمناطقية بل التحالفات السياسية هي من تحكم بنتيجة الانتخابات تلك.

نعمان:

شكّلت الانقلابات العسكرية مظهراً من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية في سوريا المعاصرة إذ لم يمض بضع سنوات على الاستقلال وستتان على أوّل انتخابات نيابية بعد الاستقلال حتى بدأ مسلسل الانقلابات. هل برأيكم أن تلك الانقلابات كانت بتأثير فشل الطبقة السياسية في إدارة شؤون البلاد كا يقول البعض، أم أنّها نتيجة صراعات الخارج على سوريا كما يصر البعض الآخر أو ربّما هي نتيجة هذا وذاك وبتأثير عوامل أخرى؟

نزار:

لا شكّ أنّ ظاهرة الانقلابات العسكرية التي ابتليت بها سوريا بعد أقل من ثلاث سنوات على الاستقلال تستحقّ التأمل والدراسة، وعلى الرغم من كثرة ما قيل وكتب عن هذه الظاهرة إلّا أنّ معظم تلك الكتابات والتحليلات كانت ذات بُعد وصفي (أي وصف الحدث) أكثر مما تناولت الحدث بالعمق ملقية الضوء على أبعاده وخلفياته الممتدة إلى السياسة الدولية والصراع على المنطقة من جهة، وأيضاً على أبعاده الداخلية التي أشرت إلى أزمة حكم لم تستطع الطبقة السياسية التي أنتجت الجلاء من أن توجد لها حلّاً يؤمّن الاستقرار للبلد.

الرئيس شكري القوتلي أثناء زيارته إلى اللاذقية ويظهر في الصورة عن يمينه الوزير أسعد هارون
وعن يساره الوزير بدوي الجبل ورئيس الوزراء سعيد الغزي.

نعمان:

لنبدأ بالجانب الخارجي، هل تودّ القول إنّ الانقلابات العسكرية كانت بتدبير من قوى خارجية وإنّ مَن قاموا بها هم صنيعة أجهزة استخبارات أجنبية؟

نزار:

من الإجحاف الجواب بنعم مطلقة عن هذا السؤال، ولكن بطبيعة الحال لا يمكن في عالم السياسة وصراع القوى الدولية أن نقول إنّ تلك الحركات الانقلابية كانت مجرد شأن داخلي بالمطلق بل إنّ ثمّة تداخلاً بين الداخلي والخارجي في طياتها شأنها شأن كلّ عمل ذي بُعد سياسي. ومرة أخرى لم يتمّ دراسة تلك الانقلابات ذات الأثر الكبير بتاريخ سوريا المعاصر دراسة موضوعية وحيادية تتيح تقييم المؤثرات الخارجية وذلك لأسباب عديدة منها: عدم توافر، أو ربّما عدم إمكانية الوصول إلى الوثائق التي تغطي تلك الفترة في محفوظات (أرشيف) مفاصل الدولة السورية التي كانت بطبيعة الحال دولة ناشئة حديثة بافتراض أنّ ثمّة وثائق محفوظة مفيدة في هذا المجال. وأما ما يتعلق بمحفوظات الدول ووزارات خارجيتها فإنّ ما يتاح منها يحتاج إلى دراسات معمقة لمختصين وباحثين وهو ما لم يتهيأ للتاريخ السوري المعاصر بشكل عام. وإذا كان ثمّة مؤشرات غير قطعية على دور خارجي في تلك الانقلابات مثل الحديث عن توقيع اتفاقية خط التبلاين التي رفضت حكومة القوتلي توقيعها ثم

سرعان ما وقّعت بعد حركة حسني الزعيم الانقلابية في مطلع آذار عام ١٩٤٩م، إلّا أنّ الصراع المستعر على سوريا بين القوى الإقليمية (الهاشميون في بغداد والسعوديون في الرياض) وبين القوى الدولية (الأميركيون والأوروبيون) ثم بين الغرب والاتحاد السوفياتي في مرحلة لاحقة لا بدّ أن يؤشّر إلى وجود دور ما يزيد أو ينقص لتلك القوى في الانقلابات المتتابعة. ومع ذلك فإنّ ثمّة ظواهر رافقت أو مهدت لتلك الحركات الانقلابية لا نستطيع أن نجد لها تفسيراً؛ فمثلاً ما الذي جعل شكري القوتلي يأتي برجل مغامر مثل حسني الزعيم من التقاعد ليسند إليه منصب قائد الدرك ثم قائد للجيش خلال فترة وجيزة ولينقض بعدها ذلك الضابط ذو التربية العسكرية التركية الذي كان مصطفى أتاتورك مثله الأعلى ، على الحكم وليجعل من نفسه (مشيراً) ثم رئيس دولة ولينتهي خلال أقلّ من ثلاثة أشهر من حركته مقتولاً بيد صديقه وكاتم أسراره سامي الحناوي صاحب الانقلاب الثاني. لطالما حاولت أن أجد مبرراً لقبول القوتلي تسليم الزعيم مقاليد الجيش، هل كان الرئيس مغلوباً على أمره؟ هل كان ذلك نتيجة ضغط خارجي أم داخلي؟؟؟ لا جواب ولا دراسات تاريخية رصينة عن ظاهرة الانقلابات، بل عن تاريخ سوريا المعاصر تشفي غليل المتسائل.

نعمان:

ينحو البعض باللائمة على الطبقة السياسية التي أنتجت الجلاء

وصاغت مشروع الوطنية السورية لعدم قدرتها على حفظ الاستقرار الذي تتخذ ظاهرة الانقلابات العسكرية دليلاً عليه، بالتالي فإنّ تلك الطبقة السياسية لم تستطع الحفاظ على مشروعها الذي صاغته خلال سنوات النضال بداية من خلال الانفصال عن الدولة العثمانية وصولاً إلى مقارعة الانتداب وتحقيق الجلاء.

نزار:

كتوصيف هذا صحيح، لكن لا بدّ من إيراد الأسباب التي قد تعطي هذه الطبقة ورجالاتها بعضاً من العذر بعدم قدرتهم على تحقيق ذلك الاستقرار. فبدايةً إنّ موقع سوريا الجيوسياسي يجعل منها نقطة تصارع بين القوى العالمية ما يعني صعوبة فرض الاستقرار السياسي بسهولة لا سيّما في فترة كانت تموج بصراعات الأفكار والأيدولوجيات وسط مجتمع سوري متعدّد الأديان والقوميات والثقافات والبيئات يضاف إلى ذلك كلّه تلك النزعة الفردية عند المواطن السوري التي تجعل من انضوائه وانتظامه ضمن أطر اجتماعية وسياسية جمعية محدّدة أمراً بالغ الصعوبة، وكثيرة هي الشواهد التي تدلّ على تلك النزعة، وربّما أشهرها ما ينسب إلى الرئيس القوتلي من قوله لعبد الناصر عند توقيع بيان الوحدة السورية المصرية التي تنازل فيها القوتلي طوعاً عن منصب الرئاسة: أسلمك قيادة خمسة ملايين سوري يعتقد معظمهم أنّه من مصاف الزّعماء. ومن ذلك ما كتبه الصحفي المصري الشهير محمد حسنين هيكل

تحت عنوان مجتمع النهر ومجتمع المطر في دراسة تحليلية عن أسباب الانفصال بين مصر وسوريا عام ١٩٦١م إذ يشير إلى أن رتابة جريان نهر النيل عبر آلاف السنوات قد (قولب) الإنسان المصري ضمن إيقاع محدّد متكرّر وبالتالي منح المجتمع المصري استقراراً وثباتاً وتطويعاً لساكن وادي النيل، في حين أنَّ اعتماد السوريين على الأمطار التي هي متغيرة ولا تخضع لمعدلات ثابتة، أو متقاربة كما الحال في معدلات جريان النيل، إضافة إلى براعة السوري بالتجارة عبر سنوات طوال جعل من الفرد السوري عصياً على الانضباط وأميل إلى النزعة الفردية.

إلّا أنّ ثمّة عاملاً أشد أهميّة قد يحمل بعضاً من التبرير للطبقة السياسية التي صنعت الاستقلال ولم تستطع خلق مناخ سياسي مستقرّ بعده ومفاده أنّ تلك الطبقة حاولت أن تصنع شيئاً من السيادة والاستقلالية فلا هي قبلت أن تكون مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالغرب كما فعلت دولة ناشئة مثل السعودية مثلاً، ولا هي في صدد أن تلحق نفسها والبلد بالتالي بالمعسكر الاشتراكي، أو السوفياتي الصاعد وقتذاك لاعتبارات عديدة ومفهومة، وبالتالي فإنّ نزعة الاستقلالية تلك حرمتها من رعاية قوة دولية تؤمن لها استقراراً نسبياً بل جعل البلد الذي تحكمه عرضةً لصراع القوى الدولية الذي يفسّر مرة أخرى ظاهرة عدم الاستقرار الذي كانت الانقلابات العسكرية المتتابعة أوضح تعبير عنه كما أشرنا إليه تفصيلاً في مكان آخر.

١ – الرئيس ناظم القدسي، ٢ – الرئيس شكري القوتلي، ٣ – الرئيس سعيد الغزي، ٤ – الوزير بدوي الجبل، ٥ – الوزير أسعد هارون.

نعمان:

ينحي البعض باللائمة أيضاً على تلك الطبقة السياسية، أعني التي حققت الجلاء ولم تستطع أن تؤمن الاستقرار السياسي بعده، من خلال نقطتين: الأولى عدم قدرتها على طرح وتنفيذ برامج تطوير اجتماعية واقتصادية في البلد تنقله نحو التحديث وإتاحة الفرصة للأجيال الصاعدة كي تتبوأ دورها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. والثانية، وقد سبق التطرق إليها سابقاً في أحاديثنا وتتعلق ببقاء تلك الطبقة، باستثناءات قليلة، رغم الانقلابات العسكرية تمارس دوراً في الحياة السياسية وتقبل تبوء المناصب الوزارية والإدارية في مختلف عهود الانقلابات!.

نزار:

حول النقطة الأولى، وعلى الرغم من أن تلك الطبقة هي تقليدية عموماً (بالمعنى الإيجابي وليس السلبي لمفهوم التقليدية) إلّا أنه من الظلم أن تتّهم بأنّها لم تسع لإحداث تطور وتقدم في المجتمع وخصوصاً في المجال الاجتماعي والاقتصادي. لكن لا بدّ من الإشارة مجدّداً إلى أنّها، أي هذه الطبقة، لم يتح لها أن تستقر على مقاعد العمل التشريعي والتنفيذي فترات كافية لكي تظهر ما كانت تحاول العمل عليه إذ عاجلها الانقلاب الأول بعد أقل من ثلاث سنوات على الاستقلال عن دولة الانتداب ولتتوالى بعدها الانقلابات يفصل بينها أحياناً أشهرٌ قليلة أو بضع سنوات. وواقع

الحال فإنّنا نستطيع الحديث عن فترتين يمكن القول إنّ رجال تلك الطبقة وأفكارها أتيح لهم الحكم خلالها، الفترة الأولى من الجلاء عام ١٩٤٦م وحتى انقلاب حسني الزعيم في مطلع آذار ١٩٤٩م أي أقلّ من ثلاث سنوات كما أسلفنا، والفترة الثانية منذ إسقاط حكم الشيشكلي عام ١٩٥٤م وحتى قيام الوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨م وهي فترة هامة وغنية في تاريخ سوريا المعاصر ولعلها شهدت أهم انتخابات نيابية ليس في سوريا وحدها بل في المنطقة العربية سواء بظروفها أو نتائجها، وستتحدث عن تلك الفترة بشيء من التفصيل لاحقاً. ومع ذلك فإنّ ما تمَّ تحقيقه من إيجابيات على المستوى العام ليس بالقليل. فعلى المستوى السياسي فقد قامت الانتخابات البرلمانية التي جرت في تينك الفترتين، أي انتخابات عام ١٩٤٧م التي تحدثنا عنها وانتخابات عام ١٩٥٤م التي سيرد الحديث عنها لاحقاً، على أسس من سيادة القانون وحقّ الجميع في ممارسة العمل السياسي بحريّة وشفافية وحرية الإعلام في نقل الحدث والتعليق عليه إلى ما هنالك من مظاهر تشير إلى جو من الحيادية من قبل الجهاز التنفيذي الحكومي على الرّغم من أنّ العديد من رجال الحكومات القائمة التي تشرف على الانتخابات كانوا مرشحين في تلك الانتخابات وبعضهم لم يكن الفوز من نصيبه مثل الرئيس سعيد الغزي الذي كان رئيساً للحكومة التي أدارت تلك الانتخابات ومع ذلك سقط في المرحلة الأولى منها ودخل في (البالوتاج) حيث نجح في تلك المرحلة الثانية؛ وإدارة المعركة الانتخابية بهذا الشكل

تعتبر إيجابية إضافة إلى الرئيس الغزي وإلى تلك المرحلة، إن تلك الممارسات الإيجابية، على الرغم من تسجيل خروقات محدودة تمّ الإشارة إليها، لا يمكن إلّا أن تسجّل وتثمّن ليس كحدث عابر فقط بل على اعتبارها تؤسس لقيم الدّيمقراطية والشفافية والفصل بين السلطات وهذه ليست بشيء قليل. أما على المستوى الاجتماعي فلقد كان ثمّة إنجازات ليست بالقليلة ولا هي هامشية منها نشر التعليم على نطاق واسع ومجانيته في المراحل كافّة وإقرار قوانين متقدمة اجتماعياً مثل قوانين العمل والمساواة بين الرجل والمرأة في المجال الوظيفي والتعليمي ثم السياسي من خلال حقّ الانتخاب للمرأة والترشيح لاحقاً. باختصار فلقد عمل رجال العهد الوطني على تعميق وجود الطبقة الوسطى في المجتمع السوري وتعميق قيم المجتمع المدني بشكل عام، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال وصف تلك الطبقة بأنّها (رجعية) كما كان يحلو لمنافسيها أن يطلقوا عليها، بل إنّ أفكار وتصرفات رجال تلك الطبقة هي في الواقع تقدمية إذا نحينا الجانب الأيديولوجي الذي نشأ لاحقاً والذي ربط التقدم والرجعية بمدى البعد أو القرب من أفكار اليسار الذي كان موجة عارمة في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

أما ما تتهم به تلك الطبقة، وأقصد رجال ما يعرف بالحكم الوطني الذي أعقب الجلاء، من أنّها مالأت الانقلابات العسكرية وقبلت أن تستمر في لعب دور سياسي وإداري في ظل هيمنة الضباط الذين قادوا تلك الانقلابات فهو، وكما أسلفنا صحيح، باستثناءات

محددة ومعروفة، لكنّنا نعيد شرح الظروف التي سمحت لهؤلاء الرجال المؤمنين أساساً بفكرة الحياة البرلمانية ومبدأ التداول الدوري للسلطة من خلال الانتخابات بقبول مثل هذه الأدوار. فالانقلابات العسكرية مبدئياً لم تأت بفلسفةٍ اجتماعيةٍ أو اقتصاديةٍ ولا حتى سياسيةٍ متناقضةٍ أو مختلفةٍ عما كان سابقاً، فأصحاب تلك الانقلابات كانوا يقولون، أو يدعون، بإيمانهم بضرورة وجود الحياة البرلمانية والحزبية، وقد قاموا بحركاتهم الانقلابية مضطرين إلى تصحيح مسيرة الحياة السياسية ولا يلبثون أن يعودوا إلى ثكناتهم. وعلى المستوى الاقتصادي فقد استمر القائمون على الانقلابات في تسيير جوانب الحياة الاقتصادية وفق الأسس نفسها التي كانت سائدة من أسس حرية التجارة والنشاط الاقتصادي وسوى ذلك من أسس موجودة. ولا يختلف الجانب الاجتماعي عن ذلك إذ لم يسع قادة الانقلابات العسكرية إلى إحداث خضّات اجتماعية تغيّر الأسس التي كانت سائدةً ومعمولاً بها. من هذا المنطلق فإنّ رجال ما يعرف بالحكم الوطني لم يجدوا كثير غضاضة من التعامل مع عهود الانقلابات والعمل في ظلّها. طبعاً ثمّة استثناءات تتمثل في فترة حكم الشيشكلي الذي حاول خلق كيان سياسي مختلف تحت اسم حزب التحرير العربي مع الميل نحو ترسيخ دكتاتورية عسكرية ما دفع مكونات المجتمع السياسي السوري كافة إلى الاتحاد ضدّه وإسقاط حكمه عام ١٩٥٤م وهو ما سنركز عليه لاحقاً كما بيّنا. وإنّ وصول حزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٤م قد غيّر قواعد

اللعبة تماماً إذ أصبحت الحركات الانقلابية نتيجة الصراع بين أجنحة الحزب نفسه مع تغيير في شكل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهو ما جعل رجال عهد الحكم الوطني غير قادرين على الاستمرار في الحياة السياسية السورية بل إنَّ ذلك غير متاح لهم أصلاً حتى لو رغبوا.

نعمان:

يتوقف جميع المهتمين والباحثين بالشأن السوري عند الحركة التي أدت إلى إنهاء حكم الشيشكلي وما رافقه مما يعرف بمؤتمر حمص وصولاً إلى انتخابات عام ١٩٥٤م التي غيّرت من تركيبة الطبقة السياسية السورية من خلال وجود الأحزاب التقليدية مع البعثيين والشيوعيين وغيرهم في برلمان واحد لأوّل مرة. لقد عايشتم تلك الفترة مع الوالد أسعد هارون وكان وعيكم السياسي والعام قد اكتمل آنذاك.

آمل من خلال الإجابة عن هذا السؤال التالي: تسليط الضوء على فترة حكم الشيشكلي وشخصيته لا سيّما أنّنا نسمع الكثير عنه حالياً واعتبار تخليه عن الحكم نقطة بيضاء في سجله. كما أود تسليط الضوء على قبول بعض الساسة ومنهم أسعد هارون الاشتراك في حكومة تحت حكم الشيشكلي الذي يوصف بديكتاتورية عسكرية، وعلى البعض من معايشتكم الشخصية لتلك الفترة بما في ذلك مؤتمر حمص.

نزار:

لا شكّ أن الفترة التي امتدت سنوات في مطلع الخمسينيات وانتهت بالحركة التي أسقطت حكم الشيشكلي الذي كان يوصف بالديكتاتور!!! ثم انتخابات عام ١٩٥٤م وما أفضت إليه من نتائج أشّرت إلى ظهور اتجاهات جديدة في المجتمع السياسي السوري هي من السنوات الهامة في تاريخ سوريا المعاصر.

نعمان:

ما المقصود بالاتجاهات الجديدة التي بدأت برأيك تظهر خلال تلك الفترة؟

نزار:

أوضح مثال على ذلك هو الفوز المدوي لخالد بكداش وهو الشيوعي الصرف بمقعد عن مدينة دمشق التي توصف بأنّها مدينة محافظة تقليدية. وهو ما دفع أكثر من صحيفة عربية أن تعنون صفحتها الرئيسية (دمشق تنتخب نائباً شيوعياً). لم يكن الحدث بسيطاً وقتذاك، لا سيّما إذا عرفنا أنّ أكثر من مرشح من الأسماء المعروفة لم يوفق بحجز مقعد له تحت قبة البرلمان ومنهم مصطفى السباعي الذي كان زعيماً لتنظيم الإخوان المسلمين وكان معروفاً باعتداله وعلاقته المميزة بكلّ أطياف المجتمع السوري حيث خسر الانتخابات بمواجهة رياض المالكي المحسوب على البعثيين. ويقال

إنّ ما أوصل خالد بكداش إلى البرلمان ليس أصوات الشيوعيين التي لم تكن كافية لتحقيق ذلك الفوز، وإنما توجيه الشيخ أحمد كفتارو لأنصاره بدعم خالد بكداش، لكونهما كرديين، إضافةً إلى ما قيل وقتذاك عن تحالف بين خالد العظم والشيوعيين بدمشق هو ما ضمن ذلك الفوز. بالمناسبة أتيح لي شخصياً بعد ذلك بسنوات أن أتعرف إلى خالد بكداش عن قرب غير مرة إحداها في موسكو عندما كنت مشاركاً في مهرجان الشبيبة العالمي عام ١٩٥٧م الذي جعل منه الروس، أو السوفيات بلغة ذلك الزمان، ملتقى يجسد النجاح الذي كان الشيوعيون يعتقدون أن دولتهم الحلم قد حققته.

كما أتيح لي أن ألتقيه غير مرّة قبل ذلك وبعدها وفوجئت في إحداها بتصرفات فيها من المعاملة والمرونة ما كنت أظن أنّها لا تليق باسم كبير كخالد بكداش، الذي احتفظ بصورته كمقاوم شرس صلب، أو لعلّ سنوات الشباب كانت تضع بأذهاننا أنّ الشهرة والريادة تبعدان صاحبها عن سلوكيات وتصرفات الإنسان العادي في حياته اليومية.

نعمان:

يشير آخرون إلى مؤشرات أخرى عن تحول عميق في الحياة السياسية وقتذاك وهو فوز البعثيين بعدد مهم من المقاعد في تلك الانتخابات.

نزار:

نعم، فقد بلغ عدد المقاعد التي فاز بها البعثيون ٢٢ مقعداً منها مقعد بدمشق فاز به رياض المالكي وخمسة مقاعد بحماة استطاع أكرم الحوراني ببراعته المعروفة في مثل تلك المناسبات تأمينها. لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الجو العام وقتذاك في سوريا كان يتحدث عن تقدميين ورجعيين وكانت طروحات البعث والشيوعيين توصف وقتذاك بأنّها أفكار تقدمية من خلال الدّعوات إلى العدالة في توزيع الثروة ومشاركة المرأة في الحياة العامة ورفع مستوى الطبقات الفقيرة. ولا بدّ من القول إنّ نزاهة الانتخابات وحياديّة السلطة التنفيذية أتاحتا لممثلي هذه الأفكار أن يجدوا طريقهم نحو البرلمان. كما أتاحت لحزب الشعب، لأوّل مرة، أن يتفوق على الحزب الوطني في عدد المقاعد إذ فاز بثلاثين مقعداً في مقابل تسعة عشر مقعداً للحزب الوطني، كما فاز المستقلون بستين مقعداً من أصل مائة وأربعين مقعداً كانت تمثل مجموع مقاعد البرلمان.

نعمان:

هذا من الجانب السياسي، ماذا عن المظهر الاجتماعي في تلك الانتخابات كمشاركة النساء ومختلف الطبقات الاجتماعية فيها؟

نزار:

بالفعل فلقد شاركت النساء ترشيحاً وانتخاباً في انتخابات عام

١ – علي هارون، ٢ – نوفل إلياس، ٣ – أسعد هارون، ٤ – عبد القادر شريتح، ٥ – رياض سلكا.

والصورة أُخذت عام ١٩٥٤م بمناسبة الانتخابات النيابية.

١٩٥٤م حيث سمح للسيدات المتعلمات فقط بالانتخاب، والواقع أنّ أصوات النسوة عموماً اتجهت نحو من يوصفون بالتقدميين على اعتبار أنّهم أميل لإعطاء النساء الحقوق التي كنّ يطالبن بها.

كما شهدت دمشق ترشح سيدة، هي الدكتورة طلعت الرفاعي، التي قامت بنشاط انتخابي واسع وحاولت الدخول في تحالفات، بل إنّها قادت حملة ضدّ خالد العظم بمشاركة مع بعض الصحفيين وإن لم تستطع حجز مقعد لها تحت قبة البرلمان. ولمن لا يعرف فالدكتورة طلعت الرفاعي شاعرة وناشطة اجتماعية وهي ربّما من أول النساء السوريات اللائي حصلن على شهادة الدكتوراه من جامعة غربية (السوربون) وعملن في المنظمات الدولية. أما الطبقات الوسطى والشعبية فقد أقبلت على المشاركة في الانتخابات ولعلها من سببت فوز المرشحين الذين كانوا يوصفون وقتذاك بالتقدميين كمرشحي البعث والحزب الشيوعي، أو لنقل إنّها، أي هذه الطبقة، عملت على الحفاظ على التوازن السياسي والاجتماعي في المجلس الذي نحن بصدد الحديث عنه.

نعمان:

بدأنا بالحديث عن الانتخابات التي أعقبت زوال حكم الشيشكلي، لنتحدث عن الفترة المضطربة التي أدت في النهاية إلى استقالته وتمهيد الطريق لعودة الحكم البرلماني من خلال نتائج انتخابات ١٩٥٤م.

جانب من جلسة خاصة لمجلس الوزراء في مؤتمر صحفي.

من اليمين: جانب من رأس دولة الرئيس صبري بك العسلي، الأمين العام حنا مالك، العميد أمين النفوري، العميد رئيس الأركان عفيف البزرة، الوزير مأمون الكزبري، الوزير هاني السباعي، الوزير أسعد هارون.

Lors d'une conférence de presse donnée par le Gouvernement De droite: en partie le Président du Conseil M.Sabri Assali, le Secrétaire général Hanna Malek, le général Amin Nfouri, le chef d'état-major lt général Afif Bizreh, le ministre Mamoun Kouzbari, le ministre Hani Sebaï, le mionistre Assaad Haroun.

نزار:

بداية لا بدّ من القول إنّه بالرغم من الحراك الشعبي ضدّ حكم الشيشكلي الذي كان يوصف بالحكم الديكتاتوري، وبالرغم من إجماع ممثلي التيارات السياسية على رفض ممارسات الشيشكلي وهو ما عبّر عنه العدد الكبير للموقعين على ما يعرف بمؤتمر حمص بتاريخ ١٧/٩/١٩٥٣م وبيانه الختامي الذي حمل توقيع معظم رجال السياسة والعمل العام في سوريا وقتذاك، أقول بالرغم من ذلك كلّه فما كان لحكم الشيشكلي أن يسقط لولا قيام حركة عسكرية ضدّه بدأت من حلب لتنتقل بعدها إلى مراكز ومدن أخرى؛ فحكم الشيشكلي عملياً انتهى بانقلاب عسكريّ وإن كان هذا الانقلاب مؤيداً من معظم الأحزاب والحركات السياسية السورية التي كانت موجودة على الساحة.

بل إنّ البعض يذهب إلى القول إنّ تلك الحركة العسكرية لم تكن تمثل غالبية الضباط والقطع العسكرية، وإنّ الشيشكلي لو أراد مقاومة ذلك من خلال مؤيديه في الجيش لكان استطاع القضاء على تلك الحركة ولا بدّ أن يحسب له أنّه آثر الانسحاب أمام شبح اقتتال بين فئتين من العسكريين مؤيدة له ومعارضة، وبالتالي حال دون إراقة الدماء.

كلمة للمحامي نزار هارون في إحدى المناسبات الانتخابية لعام (١٩٥٤م).

نعمان:

بالعودة إلى ما سمّي مؤتمر حمص وبيانه الذي أشرنا إليه، أعتقد أنك كنت متابعاً عن قرب إلى حدّ ما، لهذا الحدث.

نزار:

طبعاً من خلال حضور والدي المؤتمر وتوقيعه لبيانه الشهير فيما بعد ومن خلال تكون وعيي في تلك الفترة إذ كنت قد شارفت الانتهاء من دراستي الجامعية، وبالمناسبة فقد شارك ووقع بيان المؤتمر من اللاذقية إضافة إلى أسعد هارون كل من علي هارون وبدوي الجبل وعبد القادر شريتح وماجد صفية وصلاح شاهين، وكلّهم قريبون من الحزب الوطني، إضافة إلى وهيب الغانم ومحمد سعيد أبو كف وكانا محسوبين على البعث. ومن ذكرياتي الشخصية في هذا المجال أنّني كلّفت أن أقوم باستكمال تواقيع المشاركين في الساحل، أي جبلة وبانياس وطرطوس، فكان أن قمت بزيارات لهؤلاء لأخذ تواقيعهم وأذكر ممن زرتهم وقتذاك: جمال علي أديب ورياض علي أديب في جبلة ورياض عبد الرزاق ومحيي الدين مرهج في طرطوس ويوسف الخدام في بانياس وآخرين ذهبت بأسمائهم الذاكرة.

نعمان:

يؤخذ على أسعد هارون، وآخرين من الحزب الوطني وغيرهم

من القوى الموقعة على بيان حمص، أنّهم قبلوا بعد المؤتمر والبيان التعاون مع الشيشكلي وقبول مناصب وزارية في عهده!!!

نزار:

ولذلك أيضاً حكاية وتفاصيل لا بدّ من ذكرها، ليس من أجل الدفاع عن موقف أسعد هارون وآخرين وقتذاك، بل لوضع الأمور في نصابها. بدايةً لا بدّ من القول إنّ الصراع مع الشيشكلي كان بالنتيجة صراعاً سياسياً والسياسة بطبيعتها تقبل مثل تلك المواقف والمناورات والمماحكات، ما أقصد القول إنّ الصراع لم يكن مع سلطة احتلال أو انتداب حتى تتسم المواقف تجاهها بالمبدئية والحدية. من جهة ثانية فإنّ المبادرة جاءت من الشيشكلي نفسه الذي أدرك أنّ حركة التحرير العربي التي أسسها لم تستطع حجز مكانة شعبية لها، تمكنه من دعم حكمه وربّما شعر بمعارضة أطياف المجتمع والساسة لأسلوب حكمه فأراد من مبادرته تلك إجراء تعديل على تلك السياسات بإشراك الأحزاب والقوى السياسية الأخرى في إدارة الحكم علّها تخفف من النقمة على حكمه، كما أن مبادرة الشيشكلي تلك تضمّنت وعوداً بإجراء تعديلات نحو تخفيف المركزية، أو الدّيكتاتورية إذا شئتم، التي يوصف بها العهد.

ومع ذلك فأسعد هارون لم يقبل (التوزير) إلّا بعد مناقشات مستفيضة داخل الحزب الوطني الذي ينتمي إليه. وبطبيعة الحال هناك من أيّد دون تحفظ ومنهم فارس الخوري معتبراً أن لا بأس

في مثل تلك التجربة لاختبار نيات الشيشكلي تجاه الوعود التي أطلقها، ومنهم من عارض المبدأ أساساً وفي مقدمتهم لطفي الحفار، وفريق ثالث رأى إمكانية خوض التجربة ولكن بأسماء أقل أهمية من اسم أسعد هارون. السؤال الآن: هل أوفى الشيشكلي بما قطعه من وعود إصلاحية بعد ذلك، في الواقع من الصعب تبيان بوضوح بسبب قصر الفترة الزمنّية بين ذلك ونهاية حكم الشيشكلي إلّا أنّ ثمّة شواهد قد تضيء ذلك ومنها تجربة انتخابات نقابة المحامين، وكانت مهمة وذات دلالة وقتذاك، وقد عايشت تفاصيلها لكون والدي وقتذاك وزيراً للعدل إذ أقنع الشيشكلي بعدم التدخل في الانتخابات المذكورة كدليل على حسن النية بترك الحريات تأخذ مجراها، وفعلاً فاز ظافر القاسمي بمنصب النقيب على الرغم من علاقته المميزة بصبري العسلي وشراكته له في مكتب المحاماة علماً أنّ العسلي كان ممن وقعوا بيان حمص وتحفظوا بعد ذلك عن تلبية دعوة الشيشكلي للمشاركة في الوزارة التي شكّلت فيما بعد والتي شارك فيها، كما أسلفنا، أسعد هارون وآخرون من الحزب الوطني، أو من القريبين منه ممن اقترحهم أسعد هارون ليشاركوه في هذه المغامرة الوطنية التي قال عنها فارس الخوري بحضوري إنّه لا بدّ من خوضها وإنّها فرصة قد تؤدي إلى نتائج إيجابية إذا صفت النيات.

نعمان:

عودة إلى الربط بين الماضي القريب والحاضر الذي نعيشه بأحداثة المأسوية، البعض يعدّ أنّ رضوخ الشيشكلي للحركة العسكرية المؤيدة شعبياً إلى حدّ معقول وبالتالي تخليه عن الحكم جنّب البلاد شبح صراعٍ عسكري ربّما تطور إلى بوادر حرب أهلية، ما هو تقييمكم لذلك ولشخصية الشيشكلي وفترة حكمه عموماً.

نزار:

لست أدري إذا كان قد مرّ زمن كافٍ، أو أصبحت الظروف أكثر ملاءمة للحكم على تلك الشخصية التي، أردنا أم لم نرد، لعبت دوراً مؤثّراً في التاريخ السياسي المعاصر لسوريا. بداية يوصف الشيشكلي بأنّه عسكري كفء ومهتم بتحسين أوضاع الجيش والعسكريين بشكل عام. انخرط في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م ونسب إليه إقدام في تلك الحرب. لا شكّ أنّه ككثير من الضباط السوريين آنذاك كان تواقاً إلى السلطة والنفوذ لذلك فلقد كان اسمه على لائحة المشاركين في الانقلابات العسكرية منذ الانقلاب الأول الذي حمل حسني الزعيم إلى السلطة عام ١٩٤٩م. عندما استأثر بالحكم عام ١٩٥١م حاول أن يعوّض عن نزعة التسلط والدّيكتاتورية التي تمثلت بحلّ الأحزاب والتضييق على الحريات من خلال إصلاحات إدارية واقتصادية إذ بدأ بأوّل تجربة للإصلاح الزراعي في سوريا من

خلال منح الفلاحين ملكيات زراعية وأيضاً تنفيذ مشروع تجفيف مستنقعات سهل الغاب الذي اعتبر وقتذاك مشروعاً رائداً ومثل ذلك مشروع تطوير وتوسيع مرفأ اللاذقية ورفع نسب الضريبة على الدخول المرتفعة والبدء بمشروع إنارة الريف وغير ذلك من الإجراءات التي هدفت إلى إكساب العهد شرعيةً كان يفتقدها من خلال تهميش الأحزاب السياسية والبرلمانية. إضافةً إلى ذلك فلقد أتاحت له النزعة التسلطية أن يحدّ من ظاهرة الجريمة والاضطرابات ذات البعد الاجتماعي ما اعتبر وقتذاك دليلاً على استقرار المجتمع وأمنه. في المقابل فقد شهد الجيش في عهده تطويراً في التسليح من خلال توريد أسلحة حديثة ومنح ميزات للضباط والعسكريين وهو ما يفسر وقوف العديد من الضباط والقطع العسكرية إلى جانبه خلال الحركة التي أدت في النهاية إلى تخليه عن الحكم.

يضاف إلى ذلك اهتمامه بتحسين العلاقات مع الدول العربية وخصوصاً السعودية ومصر لتكريس ما يعرف بمحور دمشق القاهرة الرياض، التي تجلّت وقتذاك بزيارة قام بها الملك سعود بن عبد العزيز إلى سوريا وكان ولياً للعهد حينذاك، وفيها أطلق في الشارع شعار حفظه السوريون، وتندروا عليه بعد ذلك (مجد العرب راح يعود بالشيشكلي وابن سعود).

نعمان:

لعلّ ذلك يكون لنا منطلقاً للتساؤل: هل كان توطيد العلاقات

مع السعودية هو ما عجّل، دون إغفال العوامل الأخرى التي تحدثنا عنها، بالحركة ضدّ الشيشكلي على اعتبار أن الهاشميين في العراق ساهموا إلى حدّ ما في إنهاء حكم الشيشكلي؟

نزار:

لا يمكن في هذه الحركة أو في غيرها من الحركات والانقلابات التي شهدتها سوريا وصولاً إلى الأزمة الحالية المستعرة منذ سنوات من إغفال العامل الإقليمي والدّولي، أو ما يُسمى الصراع على سوريا. وإذا كان الكاتب البريطاني باتريك سيل الذي غادر دنيانا منذ فترة (توفي في العشرين من نيسان/ أبريل ٢٠١٤م) قد اختار هذه العبارة أيّ الصراع على سوريا ليعنون بها كتابه الصادر عام١٩٦٥م لتغطي الفترة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٨م، فإنّ مظاهر الصّراع على الوطن السوري لم تهدأ بعدها وإن تحولت الظاهرة خلال فترة الرئيس حافظ الأسد لتكون صراعاً على الشرق الأوسط تشارك فيه سوريا كلاعب أكثر من كونها أداة صراع وهو ما دعا الكاتب نفسه ليُصدر كتابه المعنون (الأسد والصراع على الشرق الأوسط) في التسعينيات. ما أوردناه ليس إلّا تأكيداً على أنّ ما يحدث في سوريا عادة لا يمكن أن يكون بعيداً عن جو الصراعات الإقليمية والدّولية كما أنّ الحركة ضدّ الشيشكلي على الرغم من اكتسابها تعاطفاً شعبياً وقبولاً من قبل قسم من المؤسسة العسكرية ذات التأثير الكبير لا بدّ أن تكون موضع تدخل من قوى خارجية. ويميل البعض إلى أنّ اتجاه الشيشكلي

نحو السعودية قد أغضب عرش العراق الهاشمي الذي كان في حالة تنافس دائم مع السعوديين في محاولات بسط النفوذ الإقليمي وسوريا أوّل المستهدفين من ذلك التنافس إن لم نقل الصراع. ويدّعي البعض (وإن كان ذلك يحتاج إلى تدقيق) أن المحاكمات التي جرت في بغداد بعد حركة عام ١٩٥٨م التي أطاحت حكم الهاشميين في العراق قد كشفت النقاب عن وثائق في هذا المجال.

نعمان:

لنعد ونجمل تقييمك للشيشكلي.

نزار:

عند تقييم الرجل لا يمكن إغفال النزعة التسلطية التي اتسم بها حكمه وما رافق ذلك من حلّه للأحزاب وإنشاء حزب وحيد هو حركة التحرير العربي الذي اعتمد على الموظفين والمتعاملين مع الدّولة والشباب الصاعد الباحث عن مكان له في المجتمع بالوظيفة، كذلك التضييق على الحريات وصولاً إلى الأحداث المؤسفة التي وقعت في جبل العرب والتي ما زال الخلاف مستحكماً إلى اليوم عن مداها وعدد من قتل من المدنيين فيها. أمّا إذا كان الحديث يدور حول تخلّيه عن الحكم وهو ما يعتبره البعض فضيلة عظيمة تنسب إلى الرجل فلا بدّ من القول إنّ استقالته أتت تحت ضغط شعبي وحركة عسكرية؛ صحيح أنّه بقي يتمتّع بقوى عسكرية مؤيدة ذات وزن يمكن أن تغير موازين القوة لمصلحته إلّا أنّ ذلك قد يؤدي إلى

نشوب انقسام وقتال داخل الجيش وهو ما حال دونه بهذا التنحي. إنّني أعتقد أن تخليه عن الحكم إن كان قد تمّ لمنع مثل ذلك الخطر فتلك فضيلة يجب أن تنسب إليه، كما ذكرنا سابقاً في مكان آخر، ولكن ربّما كان هناك عوامل أخرى لا نعرفها وربّما ذهبت مع الرجل مع تلك الرصاصات التي أودت بحياته في مغتربه البرازيلي في ذلك اليوم الخريفي من تشرين الأول عام ١٩٦٤م، بعد هذا التحليل ليس لديّ ما أستطيع أن أضيفه إلّا شيئ واحد وهو أن الشيشكلي أظهر حرصاً على بناء دولة عادلة وإرساء قواعد ثابتة سياسية واقتصادية للإدارة، وحاول بالنسبة إلى الوضع الداخلي والتحالفات الخارجية مما كان يعتقد أن ذلك كان لمصلحة الوطن السوري، ولعلّ ذلك كان من أسباب نهايته المأسوية تلك.

نعمان:

عرفت الفترة ما بعد حكم الشيشكلي وحتى قيام الوحدة عام ١٩٥٨م عودة إلى الحكم البرلماني ممثلاً بانتخابات نيابية توصف بأنّها هامة في تاريخ سوريا المعاصر أي انتخابات عام ١٩٥٤م وما حملته تلك الانتخابات من نتائج أشرت وقتذاك إلى بدء تغير المجتمع السوري وانعكاس ذلك على تركيبة الحياة السياسية، إذ يعدّ العديد من الدّارسين والمهتمين أنّ النتائج التي أفرزتها تلك الانتخابات وخصوصاً ما يتعلق منها بفوز البعثيين والشيوعيين والقوميين بعدد معقول من المقاعد إنما كان يؤشر إلى تبدل في المفاهيم الاجتماعية والسياسية للمجتمع السوري وبدء تحول المجتمع عن الطبقة السياسية

التقليدية التي حكمت سوريا منذ الاستقلال من خلال وجودها على رأس السلطة أحياناً أو بالمشاركة مع أصحاب الانقلابات العسكرية أحياناً أخرى وهو ما أدّى بدوره إلى قبول شعبي واسع لفكرة الوحدة مع مصر وتسليم الزعامة لعبد الناصر.

نزار:

الحقيقة أن أحداث ١٩٥٦م أو ما عُرف بالعدوان الثلاثي وما رافق ذلك من تأميم لقناة السويس حمل لعبد الناصر انتصاراً سياسياً على الرّغم من أنّه من الناحية العسكرية لم يتمّ تحقيق شيء ولكن التوافق الروسي الأميركي الضمني على ضرورة انسحاب القوى الغازية من مصر وبالتالي القبول بعودة قناة السويس إلى مصر قد حمل لمصر وللمشروع الناصري بريق انتصار أججته الحملات الإعلامية. لقد تحول عبد الناصر بعيون السوريين، أو قسم كبير منهم، إلى بطل قومي وزعيم ستتحقق على يديه آمال العرب في دولة واحدة. ثم لا بدّ من الاعتراف أن أزمة الحكم في سوريا التي تجلت في الانقلابات العسكرية والخلافات السياسية المستعرة بين الأحزاب والقوى السياسية والتهويل بإمكانية استيلاء الشيوعيين على مقدرات البلاد وأيضاً ما روّج عن مؤامرات حلف بغداد والتهديد التركي كلّها ظروف ساعدت على قبول فكرة الوحدة مع مصر وترسيخ عبد الناصر زعيماً أوحد.

نعمان:

لكن كيف نفسّر قبول الطبقة السياسية السورية ولا سيّما ما يعرف بالرعيل الأول بهذا الشكل من الوحدة الاندماجية وتسليم قيادة البلاد طوعاً وهي الطبقة التي أنجزت الاستقلال وصاغت مفهوم الوطن السوري!؟

نزار:

بداية لا بدّ من القول إنّ تلك الطبقة السياسية التي تتحدث عنها كانت مشبعة بمفاهيم العروبة والوحدة العربية منذ بدايات القرن ولعلّ رجال هذه الطبقة هم من ساهموا في نشر مفهوم القومية العربية قبل المصريين وقبل عبد الناصر مذ كانوا منتسبين إلى الجمعيات القومية التي نادت بالتخلص من الحكم العثماني في باريس والآستانة وبيروت ودمشق وبغداد. إلّا أنني أعتقد أن مفهوم هؤلاء لمبادئ القومية العربية وتطلعهم إلى بناء الدولة العربية لم يكن متطابقاً مع أساليب الحركة الناصرية ولا مع الشكل الذي تمّت فيه الوحدة بين سوريا ومصر، لكن الظروف التي أشرنا إليها والمدّ الشعبي الكاسح الذي تمتع به عبد الناصر والوضع الداخلي السوري – أحزاب- عسكر –خلافات- أرغمت هؤلاء على الموافقة على الوحدة بشكلها الذي عرفته أو إيثار الصمت عند البعض ليجد هؤلاء وهؤلاء أنفسهم بالنتيجة خارج إطار العمل السياسي وليمهد ذلك لظهور شخصيات وقوى أخرى أكثر ملاءمة للجو السياسي

السائد وخصوصاً بعد حلّ الأحزاب التي هي محرك وروح العمل السياسي.

نعمان:

بالنسبة إليك شخصياً، كيف كان التفاعل مع الظروف الجديدة التي حملتها الوحدة، وهل ثمّة شعور لديك أنّه يمكن متابعة العمل السياسي على الرغم من التغيير الجذري الذي أصاب الحياة السياسية؟

نزار:

كما أسلفنا، ففي بداية عهد الوحدة بدا وكأنّه بقي للطبقة السياسية التقليدية دور ما تلعبه في قادم الحياة السياسية مع عهد الوحدة وكنت وقتذاك في مرحلة النضج السياسي إذا صح التعبير وآن الأوان لمتابعة الدور الذي لعبته العائلة ولعبه والدي أسعد هارون وجدي عبد الواحد هارون في العمل العام والساحة السياسية، وكان الولوج إلى هذا السبيل هو الاشتراك في انتخابات الاتحاد القومي، وهو تنظيم تمّ صناعته على عجل ليسد فراغ غياب الأحزاب السياسية وقد رشحت نفسي في تلك الانتخابات التي ستحدد الرئيس المحلي للاتحاد، وقد انحصرت المنافسة في مراحلها النهائية بيني وبين المرحوم الشيخ عبد الستار السيد الذي استمر في ساحة العمل السياسي سنوات طويلة بعدها وشغل منصب وزير الأوقاف بعد الحركة التصحيحية ولينتقل ذلك إلى ابنه الشيخ محمد الذي يشغل

منصب وزير الأوقاف اليوم، وقد فاز الشيخ عبد الستار بفرق صوت واحد. وأذكر أن والدي كان خارج البلد وقتذاك ما دعا الشيخ عبد الستار للقول: حظي سيئ، فلو كان أسعد هارون موجوداً لما سمح بحصول تلك المنافسة بيني وبين ولده!!. ثم تمّ بعد ذلك اختيار أعضاء مجلس الأمة وكان من المفترض أن أكون واحداً منهم إلّا أن سنّي وقتذاك كانت دون الثلاثين وهي السن المحددة للعضوية ما حال دون ذلك. بعدها اتجهت بوصلة الحياة السياسية اتجاهات مختلفة لم يعد فيها سمة دور للعمل السياسي الحرّ الذي كنا نتوق إليه، ما دفعني للعمل بنصيحة حميد فرنجية بالتزام مكتبي وإن بقي لي العديد من مساهمات في العمل العام تجلّت بأنشطة اجتماعية وثقافية بل ورياضية في بعض الأوقات.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الحماسة للعمل السياسي والاهتمام بانتخابات الاتحاد القومي كانا لا يزالان حتى تلك الفترة ينظر إليهما نظرة جدّية وبالفعل، فقد كان الناس متفائلين بعبد الناصر وبالوحدة وحتى بالحرية التي وعدهم بها وكرّس عهده بهذا الاتحاد القومي الذي لم يخرج عن كونه بديلاً لحركة التحرير التي أنشأها الشيشكلي، إنّما استطاع عبد الناصر بما له من وهج في حينه أن يجعل لهذا الاتحاد في مرحلته الأولى المدّ الشعبي الذي دعا أطياف المجتمع كافة للمشاركة بحماسة في انتخاباته، وأذكر بالنسبة إلى اللاذقية أنّ المدينة قسمت إلى دائرتين انتخابيتين الدائرة الأولى هي الشيخ ضاهر والعوينة وتوابعها، والثانية الصليبة والشحادين

وتوابعها، وخصص لكلّ دائرة ٣٠ عضواً وكانت المنافسة كبيرة جداً وقد استطعنا بتحالف تقليدي أقمناه إلى أن تنجح القائمتان بشكل كامل باستثناء خرق ثلاثة أسماء، أحدها سيدة، خاضت المعركة مستقلة وهي السيدة وداد أزهري، أمّا الشخصان الآخران فهما على ما أذكر عبدالله بنشي وعلي قعقع، وقد جرى انتخابي رئيساً للقسم الأول للاتحاد القومي في مدينة اللاذقية في الوقت الذي انتخب الشيخ عبد الستار السيد رئيساً للاتحاد القومي في المحافظة مما أشرنا إليه أعلاه، وأذكر أنّه في معرض نشاطنا الانتخابي وقد كان حينذاك عبدالحكيم قدور محافظاً للاذقية وكان على ما يبدو أوسع أفقاً وأدرك كيفية ما يجري، ما دعاه لأن يقول لي وقد شاهد اهتمامنا بتلك الانتخابات:

(ما بدها كلّ ها الشغلة).

المحامي نزار هارون خطيباً مرحباً بالرئيس عبد الناصر بمناسبة زيارته اللاذقية،
ويظهر في الصورة الرئيس جمال عبد الناصر ونائباه حسين الشافعي وأنور السادات.

الفصل الرابع

ملامح عن سوريا التي عرفت

ما شهدته في سوريا أثناء زيارتي لها في
الخمسينيات من جودة الصناعة واتساع الطبقة
الوسطى ورغبة الناس في التعلم جعلني وقتذاك
أحلم أن أشاهد مثيله في بلدي.

مهاتير محمد،
رئيس وزراء ماليزيا ١٩٨١/٢٠٠٣م
ورائد النهضة الحديثة فيها

نعمان:

تركز حديثنا فيما سبق من صفحات على الجانب السياسي بأحداثه ورجاله وصراعاته، لكنّ سوريا التي نتحدث عنها ليست الجانب السياسي فقط مع أهميته، لكنّها أيضاً حياة الناس وظروف عيشهم ومستوى دخلهم ومحددات ثقافتهم وآمالهم وتطلعاتهم. أنا أعرف أن السياسة بتعريفها العام ليست إلّا أسلوب وطريقة إدارة المجتمع بما في ذلك ما أشرنا إليه من جوانب اجتماعية واقتصادية وثقافية وهو ما دعا الأميركيين لأن يطلقوا على المنظومة السياسية عندهم اسم الإدارة فيقال الإدارة الأميركية كناية عن النظام السياسي الأميركي، لكن المفهوم السائد لدينا مختلف عن ذلك إذ ما زال لدينا ذلك التمييز بين ما هو سياسي وبين ما هو متعلق بأبعاد المجتمع الأخرى ربّما بتأثير اعتبار السياسة واحدة من المحرمات (التابو) التي ما زلنا نحذر أشد الحذر عند الاقتراب منها.

بكلّ حال ما سنركز عليه خلال الصفحات التالية هو سوريا التي عرفتها بجوانبها الأخرى ودعنا نبدأ بما يعتقد أنّ المجتمع السوري كان يتمتّع بطبقة وسطى عريضة نسبياً، ومفهوم الطبقة الوسطى مع

أنّه يشير مبدئياً إلى مستوى الدخل الاقتصادي الّذي يحوزها أفراد هذه الطبقة، إلّا أنّ الأهم هو القيم الاجتماعية التي يحملها أفراد هذه الطبقة والتي توصف بأنّها محفز لاستقرار المجتمع وعامل نهضة له.

نزار:

لا شكّ أنّ وجود طبقة وسطى في المجتمع السوري كان سمة معتبرة لهذا المجتمع لا سيّما إذا ما قارنا المجتمع السوري بمجتمعات عربية أخرى كمصر على سبيل المثال. وواقع الأمر أنّ وجود تلك الطبقة الوسطى أعطى المجتمع السوري منذ ما بعد الحقبة العثمانية نوعاً من الاستقرار الاجتماعي الذي يتمثل بعدم بروز ظاهرة العنف الاجتماعي وظاهرة التعايش بين مكونات وفئات المجتمع بسلام وضمن أطر ومحددات اجتماعية مألوفة ومتعارف عليها. ولعلّ من دلالات ذلك أن مرحلة الاضطراب السياسي المتمثل بالانقلابات العسكرية التي هي ظاهرة سوريا بامتياز في تلك الحقبة لم تقترن باضطرابات اجتماعية وعنف أهلي بل كانت تحمل بطياتها مظاهر الصراع على السلطة الذي هو بدرجة أو أخرى انعكاس بدوره للصراع الدّولي والإقليمي على سوريا موقعاً وتأثيراً. وإذا كانت محددات الطبقة الوسطى بداية هي مستويات الدخل المادي وتأثيراً هي مجموعة القيم الاجتماعية التي تحملها تلك الطبقة كما أشرت في سؤالك، فلقد أتيح للمجتمع المديني (نسبة إلى المدينة) أن يتمتّع بمستويات معقولة من الدخل وقد شمل ذلك الموظفين

الحكوميين والنشاط الحرفي والمهني والتجاري وأيضاً هؤلاء المعتمدين بدخلهم على الملكية الزراعية. لقد كانت مستويات الدخل عند مختلف تلك الفئات المدينية متقاربةً بشكل عام وإن كان ذلك لا يمنع من وجود فئة ذات دخل مرتفع ولكن تلك الفئة لم تكن تشكل طبقة بالمفهوم المعروف للطبقات الاجتماعية كما كانت في بلاد أخرى ومنها مصر على سبيل المثال. أمّا على مستوى القيم التي حملتها تلك الطبقة الوسطى العريضة فلنا أن نبدأ بالعلم كقيمة اجتماعية معتبرة والوسيلة المضمونة للارتقاء الاجتماعي وسبق أن أوضحنا في سياق هذه الصفحات أنّ رجال السياسة بمرحلة ما عرف بالعهد الوطني كانوا إمّا من العائلات، المعروفة ذات الملكية الزراعية الكبيرة نسبياً، وإما ممن استطاع الحصول على تعليم ذي مستوى عال ممّن هم من خارج هذه العائلات، وسبق أن أوردنا العديد من الأمثلة على ذلك، بمعنى أنّ التعليم كان وقتذاك من أسس الارتقاء الاجتماعي والوظيفي في المجتمع. من ناحية أخرى فإنّ الحكومات أولت بدورها التعليم اهتماماً ملحوظاً ساعد على ترسيخ مفهوم الطبقة الوسطى؛ فالتعليم في سوريا منذ أواخر الحكم العثماني مجاني في جميع مراحله ومتاح دون قيود اجتماعية أو مناطقية بشكل مقبول إلى حدّ كبير.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الطبقة ومنهم صغار التجار والملاكين كان لهم دور وطني كبير في الحياة السياسية سواء في مرحلة النضال لأخذ الاستقلال أو في مرحلة البناء الاجتماعي

للوطن، وإنّي أعتقد أنّ من الأخطاء الكبرى التي يتحمل مسؤوليتها من تولى الحكم بعد الانقلابات العسكرية، من الأخطاء الوطنية الكبرى، القضاء على تلك الطبقة بسبب ما نشأ من تضخم مادي وفروق اجتماعية هائلة بين أفراد المجتمع تحوّل معها إلى مجتمع طبقات، ما يستدعي وجود بحثٍ خاصٍ يحتاج إلى مختصين وخبراء.

نعمان:

الحديث هنا عن التجمعات المدينية بشكل عام، لكن ماذا عن الريف وسكان سوريا في تلك الفترة بغالبيتهم سكان أرياف ومشتغلون في العمل الزراعي؟

نزار:

لا شكّ أنّ مستويات الدّخل كانت ولا تزال بشكل عام هي أعلى لدى سكان المدن عما هي عليه لدى سكان الأرياف. لكنّنا يجب أن نلاحظ ظاهرة ذات أثر هي أن سوريا ليست بلاداً مترامية الأطراف تبعد فيها الأرياف مسافات شاسعة عن المدن والمراكز الحضرية بشكل عام، فالريف قريب بل متداخل مع المدينة وخصوصاً في دمشق وحوران وجبل العرب والساحل مع فرق ما فيما يتعلق بالجزيرة وحلب. هذه الظاهرة، أي تموضع الأرياف قريباً من المدن والمراكز الحضرية، جعل القيم الاجتماعية وخصوصاً التعليم تجد طريقها إلى سكان الأرياف وليكون التعلم وسيلة هؤلاء للارتقاء

الاجتماعي. لا شكّ أنّ الانخفاض النسبي للدخل لدى سكان الأرياف قد قلّل إلى حد ما من مستويات أو عدد سنوات التعليم للفرد فنشأت ظاهرة التوجه نحو العمل الوظيفي عند مستوى متوسط من التحصيل التعليمي أو الاتجاه نحو المدارس والكلّيات العسكرية على اعتبارها أقل زمناً ووسيلةً مضمونةً للوظيفة العامة.

نعمان:

لطالما وصفت الطبقة السياسية التي تصدّت للعمل الوطني وحققت الاستقلال وفرزت من رجالها من كانوا على سدّة السلطة لفترات بعد الاستقلال بصفات الرجعية والإقطاع، هل كان ذلك حقيقة واقعة وسمة من سمات تلك الفئة وهؤلاء الرجال أم أنّ ذلك مجرد اتهام سياسي فرزته صراعات الحياة السياسية ورسخه انتشار الأفكار اليسارية، وبالتالي صارت مفاهيم الرجعية والتقدمية مربوطة بمدى بعد الفرد أو اقترابه من الأفكار اليسارية على سبيل المثال.

نزار:

لنبدأ بمفهوم الرجعية والتقدمية. أنا أعتقد أن من أشرت إليهم من فئة ومن رجال لا يمكن وصمهم بالرجعية بأيّ حال من الأحوال، يمكن أن نقول عنهم إنهم تقليديون أو محافظون، أما صفة الرجعية كما هي في الأصل من حيث ترسيخ مفاهيم الماضي وعدم قبول الأفكار الجديدة ومعطيات العلم والتطور فهم بعيدون عنها كلّ

البعد. لقد قبل رجال هذه الفئة وروادها القيم الغربية في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي أحياناً وعملوا على ترسيخها في القوانين والأنظمة وهذا برأيي مظهر تقدمي لا رجعي. أمّا ما نشأ بعد ذلك من ربط لمفهوم التقدم بالانتماء والتبني لأفكار اليسار فهذا خلط بين مفاهيم التقدم والرجعية والمفاهيم الثورية التي ارتبطت في تلك الفترة بالفكر اليساري ولهذا قصة أخرى ليس مجالها هذه الصفحات.

الآن ماذا عن الإقطاع كصفة كانت توصف بها تلك الفئة؟. لا شكّ أنّ ثمّة ملكيات زراعية ضخمة كانت تحوزها أسر بعينها وأفراد معينون، وكانت هذه الملكيات متفاوتة بين منطقة وأخرى فهي في الريف الدمشقي وأرياف الساحل كانت تصل إلى حدود ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الدونمات وأكثر من ذلك في الريف الحموي والحلبي وربّما أضعاف ذلك في الجزيرة وإن كانت أقسام هامة من أراضي الجزيرة بملكية الدّولة التي كانت تؤجرها لأفراد معيّنين يتصرفون فيها تصرف المالك من ناحية استغلالها والاستفادة منها. ثم لا شكّ أنّه كان ثمّة ظواهر من الظلم المادي والاجتماعي والإنساني كان يقع على الفلاحين العاملين في تلك الملكيات الزراعية وأنَّ دخل هؤلاء يكاد في حالات كثيرة لا يفي باحتياجات الحياة الأساسية ما يجعلهم وأسرهم في حال احتياج دائم للعمل الذي يقومون به ويربطهم بالأرض التي يعملون فيها وبمالكها. لكن من الإنصاف القول أيضاً إنّ ذلك لم يكن يصل إلى حدّ جعل

الخروج من دوامة ذلك مستحيلاً أو متعذراً، بل إنّ انتشار التعليم بين أبناء الفلاحين في مختلف المناطق السورية ساهم بدرجة أو أخرى في كسر قاعدة أن الارتباط بين الفلاح وأسرته بالأرض ومالكها هي حالة حتمية لا انفكاك منها.

نعمان:

لكن ثمّة من يتهم تلك الطبقة أو الفئة، وأعني من كانوا يعرفون برجال العهد الوطني، بأنّهم ولكونهم قادمين من أسر مالكة لمساحات كبيرة من الأراضي الزراعية فإنّهم لم يهتموا بمشاريع ما عرف لاحقاً بالإصلاح الزراعي وما تبعه من توزيع الأراضي الزراعية على الفلاحين، وكان علينا أن ننتظر سنوات الوحدة مع مصر، ثم تولي حزب البعث السلطة لنشهد مثل تلك الإجراءات.

نزار:

لا شكّ أنّ مشاريع الإصلاح الزراعي التي تشمل من جملة ما تشمل تفتيت الملكيات الزراعية الكبيرة وتمليك الفلاحين مساحات من الأراضي لم تكن من المشاريع التي تمّ طرحها من قبل رجال ما يعرف بالعهد الوطني ولا من قبل من تولوا السلطة خلال الانقلابات العسكرية المتعددة، ولا أعتقد أنّه من الخطأ القول إنّ مثل تلك المشاريع لا تناسب المصلحة الاقتصادية لهؤلاء الرجال على اعتبار أنّ العديد منهم أبناء أسر تملك مساحات واسعة من

الأراضي الزراعية. لكن الإنصاف يقتضي الإشارة إلى أنّه لم يكن سمة تلازم حتمي بين ملكية هؤلاء لمساحات كبيرة من الأراضي الزراعية والسلوك القاسي والعنيف الذي توصف به تصرفات طبقة الإقطاع؛ فالعديد منهم أهملوا ملكياتهم الزراعية تلك بل خسروها في زحمة انشغالهم في العمل الوطني قبل الاستقلال والسياسي بعد الاستقلال وفي ظل توجيه أبنائهم نحو التعلم والانخراط في العمل العام بعيداً عن النشاط الزراعي كمورد للدخل. ثم إنّهم هم من اتجه نحو الصناعة في فترة شهدت فيها البلاد نهضة صناعية لا سيّما في مجال صناعة الغزل والنسيج والصناعات الغذائية والتحويلية. وللتأكيد نحن هنا لا نجري محاكمة لنجرّم أو نبرّئ بل لوصف حالة للخروج بتصور قد يوافق عليه البعض ويرفضه آخرون.

نعمان:

بالحديث عن النهضة الصناعية التي عرفتها سوريا خلال فترة ما بعد الاستقلال، يقول الاقتصادي السوري الدّكتور مطانيوس حبيب إنّ سوريا عرفت في الفترة بين الجلاء عام ١٩٤٦م وعام ١٩٦٤م نمواً اقتصادياً موجباً قدره ٦,٢ سنوياً، وإن إجراءات التأميم التي تمت بدءاً من عام ١٩٦٤م وما بعد؛ شهدت نزوح ٨٠٠ مليون ل.س أو ما يعادل وقتذاك ٢٠٠ مليون دولار أميركي وهذا الرقم يعادل أربعة أضعاف إجمالي رؤوس الأموال للشركات الصناعية التي تمّ تأميمها. دعنا من هذه الإضاءة ننتقل إلى الحديث عن تلك النهضة

الصناعية وما تبعها من هجرة لرؤوس الأموال السورية إلى الخارج فيما بعد.

نزار:

بالفعل شهدت السنوات اللاحقة للجلاء اتجاه رأس المال الوطني نحو الاستثمار في الصناعة فأصبح القطاع الصناعي ذا ثقل ربّما على حساب القطاع الزراعي على اعتبار أنّ قسماً من رجال الأعمال الذين اتجهوا نحو الصناعة هم في الأصل من الملّاكين الزراعيين، أو ممن استفادوا من جمود حركة التجارة السلعية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ما دفع نحو التركيز على المنتج المحلي خصوصاً في مجال صناعة الغزل والنسيج لا سيّما أنّ المادة الأولية لهذه الصناعة وهي القطن متوافرة محلياً. وفي الواقع فقد كانت الشركة الخماسية التي صنفت حينذاك كأهم منشأة صناعية في المنطقة في هذا القطاع الصناعي، من أوضح نتائج هذا الاتجاه إضافة إلى شركات أخرى تتركز في دمشق وحلب بشكل خاص. بعد ذلك توسع النشاط الصناعي ليشمل الصناعات الغذائية والتحويلية وليعقب ذلك تحول أصبح ملحوظاً في المجتمع السوري يتمثل بنشوء طبقة عاملة تحصل على أجر ثابت تلحق بها فئة من المهنيين المهرة والإداريين والفنيين وكلّها فئات مدينية بدأت تتلمس طريقها نحو الطبقة الوسطى ولتعمق من وجود هذه الطبقة في المجتمع السوري، وترافق دلك مع تطور تشريعي بقوانين العمل والقيود على

حرية أرباب العمل بتسريح العمال. لقد تحولت مدينة سورية هي حلب لتصبح مدينة صناعية ليس على مستوى سوريا فقط بل على مستوى الدّول المحيطة أي لبنان والعراق والأردن، مدينة توجد فيها إضافة إلى المصانع الكبيرة نسبياً الورش الصناعية المتخصصة في حين تحولت دمشق بغوطتها إلى مركز هام للصناعات الغذائية والتحويلية ووجدت المنتجات السورية طريقها للتصدير ليس نحو الدّول المجاورة والخليج فقط، بل أصبح النسيج السوري ذا سمعة مرموقة في دول كثيرة ومنها دول أوروبية، بمعنى أنّه أصبح لدى الاقتصاد السوري قيمة مضافة على المادة الأولية يتمّ تصديرها وهو ما سمح بالنمو الاقتصادي الذي أشرت إليه في معرض سؤالك.

نعمان:

بطبيعة الحال إنّ مثل ذلك النشاط الاقتصادي لا بدّ أن يرافقه نشاط مصرفي، فهل نستطيع الحديث أيضاً عن نهضة أو تطور ما في هذا المجال لا سيّما أنّه كان من مظاهر التأميم ليس هجرة رؤوس الأموال فقط، بل أيضاً هجرة الكفاءات ومنها الكفاءات المصرفية إذ بدا لفترة أنّ رجال الأعمال السوريين هم من يدير القطاع المصرفي اللبناني الذي تبوأ مركز الريادة في المنطقة بدءاً من منتصف الستينيات.

نزار:

في الواقع لقد عايشت فترة كان فيها المصرفيون السوريون على رأس المؤسسات المصرفية اللبنانية، ولقد وجد في فترة معينة عددٌ كبيرٌ من السوريين تسلّموا مراكز الإدارات العامة للمصارف ورؤساء لمجلس إدارتها وكان من مدينة اللاذقية خصوصاً عدّة أشخاص تسلّموا تلك المناصب ومن لا يذكر نعمان أزهري الذي طور منشأة اقتصادية مصرفية تبوّأت المركز الأول في لبنان؟ وكذلك آخرين، إضافة إلى عدد كبير من مديري الفروع لا يحصى، نعود إلى القول إنّ لبنان كان ولا يزال المنفذ المصرفي لرجال الأعمال والتجار والصناعيين السوريين في الحالات التي لا تلبّي المصارف السورية احتياجات هؤلاء، ولقد قدّر اقتصادي سوري هو الدكتور غسان الرفاعي حجم الأموال السورية المودعة في الخارج عام ٢٠١٠ بحدود مائة مليار دولار، ولا شكّ أنّ قسماً هاماً منها أودع المصارف اللبنانية. بالعودة إلى الصناعة المصرفية التي شهدتها سوريا في الفترة التي نتحدث عنها، أي ما بين الجلاء ومنتصف الستينيات، فإنّه في الواقع وجدت خلال تلك الفترة العديد من المصارف الخاصة لكنّها كانت صغيرة أو متوسطة الحجم وذات نشاط محلّي لم يصل إلى ما وصلت إليه المصارف اللبنانية من قدرة على استقطاب رؤوس الأموال الخارجية والقيام بتمويل مشاريع ضخمة في بلدان أخرى، لكن النشاط المصرفي السوري مثله مثل النشاط الصناعي كان وطنيّ الطابع لا مكان فيه لاستثمارات أجنبية ذات ثقل.

نعمان:

لكن الدّولة بدورها لم تكن غائبة عن النشاط الاقتصادي لا سيّما في المشاريع ذات الأهمية الاستراتيجية، فلقد شهدت تلك السنوات إنشاء مشروعين هامين هما مشروع مرفأ اللاذقية ومشروع مصفاة حمص ثم مشروع تجفيف سهل الغاب بعد ذلك وكلّها مشاريع تولتها الحكومة. لنبدأ بمشروع مرفأ اللاذقية الذي لا شك لك معرفة واحتكاك به منذ البدايات. بكلّ الأحوال يعتبر البعض أن خالد العظم هو الأب الحقيقي لمشروع مرفأ اللاذقية الذي رأى ضرورته الفائقة على ضوء نتائج الانفصال الجمركي بين سوريا ولبنان عام ١٩٥٠م وما سبق ذلك وترافق معه من خلافات بين سوريا ولبنان وإغلاق الحدود بينهما.

نزار:

نبدأ بالحديث عن خالد العظم الذي لم نتطرق إليه كثيراً من خلال هذه الصفحات. لا شكّ أن خالد العظم شخصية متفردة ورجل سياسة متميّز وإن كان لا يصنّف من رجال النضال الوطني الذين قارعوا الفرنسيين وحققوا الجلاء، كما لا يمكن اعتباره من دعاة الفكر العروبي الذي كان قاسماً مشتركاً بين هؤلاء الرجال وربّما كان ذلك ما حال دون رغبته الشديدة في تبوء منصب الرئاسة الأولى إذ مالت الكفّة لمصلحة شكري القوتلي في المنافسة التي جرت بينهما في البرلمان بعد انتخابات عام ١٩٥٤م الشهيرة. لكن أهميته برأيي

تكمن في أنّ تفكيره وسلوكه الاقتصادي يتجاوزان المصالح الذاتية الضيقة على المستوى الخاص أو المستوى الطبقي، إذا صحّ التعبير، ليكون هدفها المصلحة الوطنية العامة، بمعنى آخر إنّه لم يكن أسير الفكر الاقتصادي لطبقته ومحيطه ما دفع البعض لمنحه لقب (المليونير الأحمر) كناية عن أنّه وإن كان سليل أسرة إقطاعية دمشقية عريقة، إلا أنه استطاع تطوير أفكاره ليمد نشاطه نحو الصناعة بداية ثم ليملك من المرونة الفكرية ما يجعله قريباً من الأفكار الاجتماعية والاقتصادية التي تتوافق إلى حدّ ما مع طروحات الاتجاهات اليسارية التي كانت منتشرة على نطاق واسع. ولعلّ ذلك ما يفسر ما أشرنا إليه أنّه وبانتخابات عام ١٩٥٤م الشهيرة استطاع الجمع بين التحالف مع خالد بكداش الزعيم الشيوعي، وفي الوقت نفسه الحصول على مساندة طبقة التجار والصناعيين الدمشقيين. والواقع أنّ مشروع مرفأ اللاذقية كان وليد ما عرف بالقطيعة الاقتصادية بين سوريا ولبنان التي انتهت بفكّ الوحدة الاقتصادية بين البلدين عام ١٩٥٠م كما أسلفنا؛ فسوريا لم تكن تملك مرفأً تجارياً بل كانت تعتمد على مرفأ بيروت في ظل حرية انسياب السلع بين البلدين بالاستناد إلى الوحدة الجمركية بينهما، لكن الوضع أصبح مختلفاً مع إنهاء هذه الوحدة فكان لا بدّ من تأمين منفذ بحري لسوريا الذي هو مرفأ اللاذقية.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الطبقة السياسية الحاكمة في ذلك الوقت أو تلك الناشطة سياسياً، وخصوصاً سياسيي اللاذقية

قامتا بنشاط واتصالات ومتابعات عديدة لإقرار مشروع المرفأ، وقد أدّى ذلك إلى بعض الخلافات بوجهات النظر مع أهل طرطوس من السياسيين الذين راحوا يروّجون لمرفأ طرطوس.

وكذلك لا بدّ من الإشارة إلى أنّ عدداً من المشاريع الإصلاحية أقرّت في تلك الفترة سواء من حيث حقوق العمال أو المرأة أو مشاريع تنمويّة بما ورد ذكره في مكان آخر وما يسجل إيجابياً لمصلحة تلك الفئة.

نعمان:

يرى البعض أن إنهاء الوحدة الجمركية بين سوريا ولبنان كان من أهدافه حماية الصناعة السورية الناشئة وقتذاك من مزاحمة الصناعة اللبنانية ومن المزاحمة التي يمكن أن تحوزها السلع المستوردة المتدفقة من لبنان، بمعنى آخر وجد لحماية الطبقة البرجوازية السورية التي بدأت تتميز طبقياً واقتصادياً في تلك السنوات.

نزار:

لا أعتقد أنّ في ذلك غضاضة أو اتهاماً لخالد العظم ولمن أيّد الانفصال الجمركي والنقدي عن لبنان. والواقع أنّ الاتحاد الجمركي بين البلدين كان لمصلحة التجار والمصارف ووكلاء الشركات الأجنبية اللبنانية ولمرفأ بيروت بطبيعة الحال، وخالد العظم لم يطلب مباشرة إنهاء الوحدة الجمركية والنقدية بل كان طلبه بداية

تحويل ذلك إلى وحدة اقتصادية ونقدية كاملة بين البلدين وهو ما رفضه اللبنانيون مباشرة مثلما رفضوا إنهاء الوحدة الجمركية انطلاقاً من مصالحهم ما دفع الحكومة السورية إلى إنهاء الوحدة الجمركية بين البلدين بقرارها بتاريخ ١٩/ ٣/ ١٩٥٠م.

نعود إلى قصة مرفأ اللاذقية، كما أشرت كان لا بدّ في ضوء هذه التطورات من إيجاد مرفأ سوري فكان إحداث مرفأ اللاذقية على يد حكومة خالد العظم كشركة مساهمة تحوز الدولة السورية القسم الأعظم من أسهمها وتترك نسبة للاكتتاب العام وهو ما شهد إقبالاً من السوريين لشراء الأسهم واعتبروا ذلك ليس للربح فقط بل للمساهمة في مشروع وطني، وقد بقيت الشركة بشكلها القانوني شركة مساهمة حتى الثمانينيات حيث تملكت الدّولة الأسهم التي كانت مملوكة للأفراد والمؤسسات الخاصة وعوّض هؤلاء بالقيمة الاسمية للأسهم كما كانت عليه عند التأسيس في مطلع الخمسينيات.

نعمان:

لا شكّ أنّه كان لمرفأ اللاذقية تأثير اقتصادي واجتماعي على المدينة ناهيك عن دوره في خدمة الاقتصاد الوطني بشكل عام، وينسب إلى خالد العظم قوله في الكلمة التي ألقاها في حفلة بدء الأعمال بمشروع المرفأ: (هنيئاً لمن كان له شبر أرض باللاذقية) مستعيراً العبارة الشهيرة التي تقول (طوبى لمن كان له مرقد عنزة بجبل لبنان).

نزار:

لا شكّ أنّ مشروع مرفأ اللاذقية قد أحدث تغييراً اقتصادياً واجتماعياً في المدينة إذ أمّن المشروع فرص عمل كبيرة لأبناء المدينة من عمال وفنيين وخريجي جامعات، كما نشأت بتأثير المشروع فعاليات جديدة لم تكن منتشرة على نطاق واسع كفعاليات التخليص الجمركي والتوكيل الملاحي والنقل البريّ. من جهة أخرى فقد أحدث مشروع المرفأ تطوراً في المفاهيم والخبرات الإدارية إذ تعاقب على إدارة الشركة بدايةً رجال ذوو خبرة ومعرفة في هذا المجال منهم نور الدين كحالة الذي شغل لاحقاً منصب وزير ثم نائباً لرئيس الجمهورية زمن الوحدة مع مصر، ومنهم عزت الطرابلسي الاقتصادي المعروف الذي شغل مناصب وزارية وأصبح لفترة حاكماً لمصرف سوريا المركزي وآخرون لا يتسع المجال للحديث عنهم في هذه الصفحات.

نعمان:

لكن الحديث عن مشروع مرفأ اللاذقية وتأثيراته وتداخل ذلك مع صراعات المصالح والنفوذ لا بدّ أن يقودنا للتطرق إلى شخصية كان لها دور ما في ذلك وتمّ تناولها في ما تكتبه الصحف بل في النتاج الأدبي والدرامي الذي اتخذ من تلك الفترة ميداناً له وأقصد شخصية (أبو هاني).

نزار:

أبو هاني كتوصيف رجل بسيط لا يحسن القراءة والكتابة، لكنّه في الواقع يحمل فكر رجل الأعمال الذي يدلّه حدسه على الفرص ويملك قدرة فطرية على تحويل تلك الفرص إلى أعمال تحقق ربحاً. والواقع أنّ (أبو هاني) بنشاطه سدّ فراغاً كان ماثلاً بعدم وجود مرفأ وبالتالي عدم قدرة السفن التي بدأت تزداد حجماً لا سيّما مع نهاية سنوات الحرب العالمية الثانية، على الترصيف ضمن الميناء الطبيعي الذي تملكه اللاذقية قياساً على ما كان الحال عليه قبل ذلك من خلال السفن الشراعية الصغيرة. لحلّ هذا الإشكال سارع أبو هاني بإنشاء (مواعين) خشبية تنقلها زوارق باتجاه السفن الرّاسية قبالة المدية حيث يتمّ بواسطة هذه المواعين نقل حمولات البواخر باتجاه الميناء ومن ثم إلى المستودعات أو السيارات. ولقد قاد حدس أبو هاني العملي إلى أن يتعامل مع العمال ورؤساء العمل الذين يعملون في هذا النشاط ليس على أساس الأجر اليومي الثابت، بل على أساس (الحصة) فللعامل حصة من نتاج العمل كلّه، وللريس (أي رئيس المجموعة) حصة أكبر، بل إن حصصاً كانت تعطى لأفراد ذوي تأثير ونفوذ دون حتى أن يشاركوا في العمل، بل إنّ(أبو هاني) أوجد نوعاً من الضمان الاجتماعي البدائي إذ إنّ المرضى من العمال كانوا يحصلون على حصّة من ناتج العمل، وفق ذلك كان العمال يبذلون جهوداً لتسريع تفريغ حمولات البواخر. والواقع أنّه في فترة القطيعة بين سوريا ولبنان اتجهت الأنظار إلى نشاط (أبو هاني) لسدّ الفراغ

الناتج من توقف ورود البضائع السورية عبر مرفأ بيروت واستطاع (أبو هاني) فعلاً سدّ هذا الفراغ وطبعاً كوّن ثروة مالية معتبرة في تلك الفترة. لكن الأحوال تغيّرت بعد ذلك وبعد إحداث شركة مرفأ اللاذقية وانتشار الأفكار الأقرب إلى اليسار وما ينادي به حاملو هذه الأفكار من ضرورة التخلص من سيطرة رأس المال الذي اعتبر (أبو هاني) ممثلاً محلياً له فنشأت فكرة تأميم مواعين وزوارق أبو هاني لتصبح بملكية شركة المرفأ وضم العمال ليكونوا تابعين للشركة الوليدة وهو ما نشأت معه معركة نيابية في الأيام الأولى من برلمان انتخابات عام ١٩٥٤م انتهت بإقرار مشروع التأميم وليعوّض(أبو هاني) بقيمة المواعين والزوارق التي تم تأميمها دون النظر إلى القيمة التجارية للمشروع وآلت الممتلكات تلك إلى المرفأ والتحق العمال أنفسهم بشركة المرفأ إلى أن تمّ الانتهاء من إحداث الأرصفة وتركيب الروافع الكهربائية وأصبحت البواخر قادرة على الترصيف لتفريغ حمولاتها ما قلّل إلى حدّ كبير من أهمية المواعين كوسيلة معتمدة في هذا المجال.

نعمان:

المشاريع التي تحدثنا عنها والتي كان للحكومة يدٌ في تبنيها كمشاريع استراتيجية كمرفأ اللاذقية ومصفاة حمص تمّ العهدة في إنشائها إلى شركات أوروبية شرقية، شركة يوغسلافية للمرفأ وشركة تشيكية للمصفاة، على الرغم من نشوء منافسة كبيرة من قبل شركات

١ – قاسم ياسين، ٢ – محمد سعيد الزعيم، ٣– عزة الطرابلسي، ٤ – الحاج توفيق ميسر، ٥– جول نصري، ٦– رودولف سعادة، ٧– أسعد هارون، ٨– سليمان أزهري.

والصورة تشكل أول مجلس إدارة لشركة مرفأ اللاذقية مع أمين سر المجلس

غربية وقتذاك للفوز بهذين العقدين، هل يعكس ذلك توجهاً سياسياً أم سببه عوامل أخرى؟.

نزار:

بداية لا بدّ من الاعتراف أنّ تلك الفترة هي فترة ازدهار الأفكار اليسارية والاشتراكية، ثم إنّ مساندة الغرب ممثلاً بالولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية لإسرائيل قد أوجد تلقائياً حالة من العداء تجاه تلك الدول وبالتالي قبولاً أكثر تجاه الدول التي تقف في الجهة الأخرى أي دول المعسكر الشرقي كما كانت تعرف حينذاك. من جهة ثانية ورغم أنّه كانت هناك منافسة من شركات غربية للفوز بهذين المشروعين وهي شركات ذات خبرة وسمعة حسنة، ورغم أن بعضاً من الوجوه المعروفة كانت ممثلة ووكيلة لتلك الشركات، إلّا أنّ عاملين حاسمين لعبا دوراً في الاتجاه نحو الشركات الشرقية أوّلهما عامل الكلفة إذ إن الأسعار التي كانت معروضة من الشركات الأوروبية الشرقية كانت أقل بلا شك، والعامل الآخر كان الخشية من أن تتدخل السياسة أثناء تنفيذ المشاريع من شركات غربية، بمعنى أن تضغط تلك الدول على شركاتها لتوقيف العمل أو عدم إكمال المشاريع أو ربطها بمتطلبات محددة، ربّما لم يكن ذلك واقعياً لكن تخوفه كان ماثلاً في الأذهان وهو ما رجّح إلى جانب الكلّفة الأقل اختيار هاتين الشركتين لتنفيذ المشروعين. ولا بدّ هنا من وقفة إنصاف تجاه رجلين لعبا دوراً هاماً وبذلا جهوداً حثيثة

في هذا الاتجاه، الأول هو المرحوم توفيق هارون الذي كان وزيراً للأشغال العامة عند التعاقد مع الشركة اليوغسلافية التي أنشأت مرفأ اللاذقية في مرحلته الأولى والتي أثبتت أنّها تملك من الكفاءة والخبرة اللازمة لتنفيذ مثل هذا المشروع، والثاني هو المرحوم فاخر كيالي الذي كان وزيراً للاقتصاد في المرحلة التي تمّ فيها التعاقد مع الشركة التشيكية لإنشاء مصفاة حمص وكان اختياراً موفقاً أيضاً بكلّ المقاييس، ومكمن التقدير الذي يحوزه هذان الرجلان أن العقدين تمّا بعيداً عن المصالح الشخصية، لا نقصد لهما شخصياً فقط بل لشخصيات ذات حضور ونفوذ ربّما كان لها مصلحة مختلفة بما حدث.

نعمان:

دعنا ننتقل إلى مناقشة الجوانب الفكرية والثقافية التي كانت سائدة بين السوريين في المرحلة التي نتحدث عنها ولنبدأ بالنزعة العروبية التي كانت مهيمنة على الساحة وتكاد تكون القاسم المشترك للنشاط الفكري والسياسي، بل إنّ فئتين سياسيتين ممن لا تتوافق أفكارهما مع تلك النزعة وهما الإخوان المسلمون الذين يعني مفهوم الأمة عندهم أوسع مما هو عروبي، والقوميون السوريون الذين يفهمون الأمة على أنّها تضم أفراد الكيان الجغرافي السوري، هذان التياران برغم ذلك حاولا تحت طغيان ذلك الاتجاه إيجاد نوع من التوفيقية مع الفكرة العروبية إذ تحدث الإخوان المسلمون عن

التماهي بين العروبة والإسلام، وربّما أخذت هذه الفكرة طريقها نحو مفكرين آخرين ليسوا مسلمين أصلاً كميشيل عفلق أحد الآباء المؤسسين للبعث. في حين اتّجه القوميون السوريون نحو القول إنّه ليس ثمّة تناقض بين أفكارهم والتنسيق في سبيل كيان عروبي إلى أن يحين دور ذلك.

نزار:

أكثر من ذلك، ففي كثير من المواقف كان السوري لا يقدم نفسه على أنّه عربي فقط قبل أن يعرّف بسوريته، بل بدا أحياناً يخجل من الإشارة إلى انتمائه السوري ويحاول أن يوحي أن ذلك مرحلي ووليد الظروف دون أن ينسى لوم المستعمر الذي فرض عليه ذلك.

والواقع أنّ هناك ظروفاً موضوعية ساهمت ورسخت ذلك، أوّلها أن سوريا كوطن مرجعي ونهائي هي فكرة وظاهرة حديثة تعود إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، قبله لا شكّ أنّه كان هناك ثمّة تمايز ما للسوريين كجماعة لكن ذلك لم يرق طوال سنوات إلى تشكيل كيان سياسي متميز عكس ما لدى المصريين مثلاً الذين عرفوا نوعاً من الكيان السياسي الواحد منذ آلاف السنين، كما أنّه لا بدّ من التذكير أنّ السعي للانفصال عن السلطنة العثمانية استند إلى مرجعية عروبية اتخذت من القومية العربية والنزوع نحو تشكيل كيان عربي موحد أطراً لهذا السعي ومرجعية انضوى هذا الاتجاه تحت ظلها. وعلى الرغم من أن التخلص من التبعية للسلطنة العثمانية تمّ في

ظل الهاشميين بترتيب بريطاني وفي ظل شرعية دينية تملكها تلك الأسرة كانت لازمة وقتذاك لتبرير حركة ضدّ سلطنة في النهاية ذات صبغة إسلامية بحكم انتماء أكثرية سكانّها إلى الإسلام على الأقل إن لم نشأ الحديث عمّا كانت تمثله من بعد إسلامي قبل الحركة الكمالية على مدى سنوات طوال، إلّا أنّ الواقع يقول: إنّ من أعطى الحياة لهذه الحركة هم الضباط والمثقفون والشبان السوريون الذين تشبعوا في الواقع بفكرة العروبة منذ نهايات القرن التاسع عشر ولم يكن يدور في خلدهم أن ما سيحصلون عليه في النهاية لن يكون إلّا دويلة تحت اسم دولة سوريا يهيمن عليها الفرنسيون ليبدأوا بعدها مرحلة النضال للحصول على الاستقلال عن فرنسا. لسنا بصدد إعادة سرد أحداث التاريخ الذي صار معروفاً وتمت الإشارة إليه غير مرة في هذه الصفحات وصولاً إلى قبول الوحدة مع مصر التي أنهت عملياً الكيان السياسي للدولة السورية، لكن ما نود الإشارة إليه هو التفسير الواقعي لنمو الظاهرة العروبية أو القومية على حساب الظاهرة الوطنية أو السورية في تلك السنوات التي نتحدث عنها. ومن اللافت هنا أنّ السوريين في بداية تأسيس كيانهم الوطني قبلوا فيصل بن الحسين، وهو غير سوري، ملكاً على سوريا، ثم عادوا وبعد أقلّ من أربعين عاماً ليطوّبوا عبد الناصر، وهو غير سوري أيضاً، زعيماً ورئيساً لهم. ولا شكّ وعلى الرغم من وجود عوامل سياسية تقف وراء هاتين الحالتين ووجود اختلافات في الظروف والأحوال

بينهما، إلّا أنّه لا يمكن إغفال النزعة العروبية عند السوريين كعامل هام ومحوري ساعد على قبولهم ذلك في الحالتين.

في كل الأحوال كانت النزعة العروبية طاغية على السوريين بشكل عام وانعكس ذلك في نظرتهم وسلوكهم في كلّ الحالات التي كانت توجد احتكاكاً وتعاملاً مع العرب الآخرين مثل ما عومل به الفلسطينيون بعد نكبتهم الأولى عام ١٩٤٨م من معاملة لم تتوافر لمن وجد طريقه إلى بلد عربي آخر غير سوريا، ومثل حالات عديدة معروفة. ومن الذكريات الشخصية ما تمّ في فترة تأميم قناة السويس وعدوان عام ١٩٥٦م على مصر إذ اعتبر السوريون أنفسهم معنيين بالحدث مباشرة وكنت، مع كثيرين غيري بطبيعة الحال، ممن انتظم في اللجان الشعبية التي بدأت بالتدرب على السلاح والقتال استعداداً لمعركة كنّا نجد أنفسنا منخرطين فيها حتماً.

نعمان:

ذلك كان عن الجانب العروبي عند السوريين، لكن ماذا عن الجانب الديني لا سيّما ونحن اليوم في خضم حديث عن التطرف الإسلامي والجهادية التي ارتبطت بالعنف والتكفيرية التي تحمل في طياتها ثنائية أنا أو الآخر. كان المجتمع السوري يوصف بأنّه في جزء هام منه مجتمع ذو توجه إسلامي محافظ، وكانت التيارات السياسية ذات التوجه الإسلامي ومنها الإخوان المسلمون حاضرة في المشهد السياسي والاجتماعي، لكنّ ظاهرة العنف ومقولات التكفير لم تكن موجودة عند تلك التيارات ولم نعرف تلك الظواهر إلّا في ثمانينيات

القرن الماضي وبشكل أوضح خلال سنوات الأحداث المؤسفة التي ما زلنا نعيش تداعياتها منذ سنوات.

نزار:

الواقع أنّ ظاهرة العنف المجتمعي ظاهرة لم يكن لها كثير حضور في السنوات السابقة أو التي تلت الحصول على الاستقلال السياسي وظهور الكيان السوري المستقل سياسياً. بل إنّه من اللافت أنّ الحركات الانقلابية المتعددة لم ترتبط بكثير من العنف أو الدماء ربّما باستثناء حادثة قتل حسني الزعيم ومحسن البرازي على يد منفذي الانقلاب الثاني بزعامة سامي الحناوي حيث يُتّهم القوميون السوريون بتنفيذ إعدام الزعيم والبرازي انتقاماً لتسليم انطون سعادة إلى السلطات اللبنانية وإعدامه فيما بعد. بمعنى آخر لم يكن (إسلام) تلك الفترة عنفياً ولا تكفيرياً بل كان متقبلاً إلى حد كبير التعايش مع الأديان الأخرى بل مع حاملي الأفكار الشيوعية التي كانت سائدة في تلك السنوات. وحتى حركة الإخوان المسلمين طبعت بطابع سياسي أكثر منه دعوياً فكانت تشارك في الحياة السياسية وتخوض الانتخابات النيابية وتقبل الظواهر التي تفرضها تلك الانتخابات من تحالفات وتكتلات مع أحزاب واتجاهات تتناقض معها فكرياً وعقائدياً ولا ضرورة للتذكير ببعض الأمثلة التي أتينا على ذكرها سابقًا ومنها ترشح مصطفى السباعي غير مرة للانتخابات النيابية وعدم نجاحه في مرات منها، وفوز خالد بكداش الشيوعي في

انتخابات عام ١٩٥٤م بأصوات الإسلاميين الأكراد من أتباع الشيخ أحمد كفتارو وبتوجيه من الشيخ نفسه على ما قيل حينذاك. نعم تغيّر المشهد فيما بعد وأصبحت أفكار التكفير وظاهرة العنف المستند إلى خلفيات إسلامية ظاهرة ملحوظة مع ضرورة الإشارة إلى نقطتين اثنتين في هذا المجال أولاهما: إنّ هذه الظاهرة هي نتيجة ظروف وممارسات أدت إلى بروزها مثلها مثل أيّ ظاهرة اجتماعية تتكون بحكم البيئة والظروف، بمعنى أنّها ليست لصيقة بالإسلام والمسلمين كما يحلو للبعض أن يظنّ، وبغض النظر عن الظروف والأحوال. وثانيتهما: إنّه بالرغم من الضجيج الصاخب عن التكفيرية والجهادية، وبالرغم من ارتباط ذلك أخيراً بسلوكيات عنيفة تمارسها جماعات تصنف نفسها ضمن هذه التيارات فإنّه من غير الصحيح، أيضاً كما يحلو للبعض أن يقول، إنّها ظاهرة عامة أخذت في تيارها السواد الأعظم من المسلمين، بل إنّ كثيراً من الضجيج الإعلامي والتوظيف السياسي يقف وراء ذلك، وحين ينجلي غبار المعارك الفعلية والإعلامية سنرى كيف ستعود تلك الحركات لتأخذ حجمها الحقيقي وسنشهد مرة أخرى أنّ السوريين عموماً هم حملة فكر معتدل قابل للتعايش مع الآخر.

نعمان:

في مجال الثقافة بمختلف إفرازاتها الأدبية والفنية وغيرها يقال أيضاً إن السوريين (مستهلكون) للمنتجات الثقافية، بمعنى أنّهم

قارئون ومتابعون للإبداع الأدبي والفني، لكنهم ليسوا منتجين له. بمعنى آخر لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه الثقافة السورية، وباستثناء أسماء لامعة في مجال الشعر كنزار قباني وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة وسواهم فإنّ الروائيين والكتاب والموسيقيين والمطربين الذين يتابعهم السوريون ويعجبون بإبداعاتهم هم غالباً إما مصريون وإما لبنانيون.

نزار:

لاشك أنّ الثقافة والفنون المصرية كانت السائدة في الأربعينيات وحتى السبعينيات؛ فالكتّاب والأدباء والموسيقيون والمطربون هم غالباً مصريون، ثم ظهرت بعد ذلك تأثيرات الثقافة والفنون اللبنانية وينطبق ذلك أيضاً على الصحافة والصحفيين إذ إنّ القاهرة وبعدها بيروت كانت مقر الصحف والمجلات التي يقبل السوريون على قراءتها. مرة أخرى لم يكن السوريون يجدون غضاضة في ذلك الأمر بل كانوا مثلاً يقولون (فيلم عربي بدلاً من فيلم مصري) في زمن سيطرة السينما المصرية، ويتلقون كتابات سعيد فريحة وجبران التويني وكامل مروة دون أي حساسية، ويستقدمون أم كلثوم وفيروز ووديع الصافي لحفلات معرض دمشق الدولي. هل يقودنا ذلك إلى القول إنّه لم يكن ثمّة منظومة ثقافية يمكن أن نطلق عليها الثقافة السورية وإن السوريين استعاضوا عن ذلك بمنظومة ثقافية أطلقوا عليها الثقافة العربية؟. ربّما نعم ولعل لهذا مسببات ربّما كنّا أتينا على

ذكر بعضها خلال صفحاتنا تلك منها أن سوريا ككيان سياسي هي وليدة نهاية الحرب العالمية الأولى إضافة إلى أن التحرر من السلطنة العثمانية اقتضى الانطواء تحت لواء القومية العربية من أجل إقامة كيان عربي لم يتحقق منه سوى دويلة على سوريا الداخلية سرعان ما كانت من نصيب الفرنسيين. ثم إنّ سوريا كأرض وكيان جغرافي كانت، ولا تزال إلى اليوم، ممراً للغزاة والفاتحين والهجرات ومعبراً تجارياً بين الشرق والغرب ما يؤشر عليه ذلك التنوع البشري الذي يضم خليطاً من القوميات والأديان والمعتقدات، كلّ ذلك ربّما، نقول ربّما، ساهم في تلك الظاهرة التي أسميناها عدم بروز منظومة يمكن أن نطلق عليها الثقافة السورية، علما بأنّه لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الحرية التي يتمّتع بها لبنان بخلاف أكثرية الدول العربية، أتاحت إنتاج كفاءات فكرية وصحافية وحتى تجارية وضعته في موضع الإعلام والتدويل.

الفصل الخامس

مواقف ورجال

وإنّك لتجد السوري واللبناني متميزاً بشخصه يصيب النجاح في مجال أعماله في الوطن والمهجر، لكنّه فردي النزعة إذ يصعب عليه الانخراط في عمل جماعي سواء أكان سياسياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً.

الكاتب والصحفي المصري
أحمد بهاء الدين
ضمن حديث صحفي

نعمان:

لا شك أنّه أتيح لك خلال تلك السنوات الطويلة وخصوصاً في الفترة التي كنت ترافق فيها الوالد من لقاءات مع بعض الشخصيات السياسية وشخصيات عامة أخرى، ولعلك اكتسبت عبرة ما من هذه الشخصية أو تلك. لا بأس من تناول بعض هذه الشخصيات من خلال تلك اللقاءات والعبر المستفادة منهم، عل ذلك يكون عوناً للقارئ على التعرف إلى تلك الشخصيات عن قرب، وتكون تلك العبر المبنية على تجارب حياة ذات نفع للأجيال الشابة.

نزار:

لا شك أن الذاكرة تحتفظ بمواقف لشخصيات جمعتني الظروف بهم رغم فرق السن، وكما أشرت فإنّ ملازمتي لوالدي ومن ثم وراثتي لصداقاته وعلاقاته مع شخصيات سورية ولبنانية وعربية أتاحت لي البقاء باحتكاك مع بعض تلك الشخصيات مع التأكيد أنّ حرصي على استمرار تلك العلاقات قد ساهم في الاستمرارية بعد رحيل الوالد عن دنيانا، بل إنّني حرصت وأحرص على استمرار تلك العلاقة والتواصل مع أفراد الجيلين الثاني والثالث من أبناء هؤلاء

الرجال الذين رحل معظمهم عن دنيانا على اعتبار أنّ تعرّفي إليهم رغم فرق العمر يعود كما أسلفت إلى ملازمتي لوالدي في الفترة التي كان يزاول العمل السياسي أو بعد ذلك حين لم تعد الظروف السياسية تسمح بذلك.

نعمان:

لنبدأ مع ناظم القدسي الذي تردد اسمه غير مرة في جلسات إعداد هذه الصفحات.

نزار:

في مناسبة اجتماعية كنت من بين حضور مجلس يتصدره ناظم القدسي حين دارت أحاديث متنوعة أتت على ذكر شخص يعرفه الجميع، وكنت حينذاك في مطلع حياتي المهنية وأعرف لما لهذا الشخص من ذكاء وفطنة وأيضاً ما عليه من علامات استفهام فكان أن أدليت برأيي بشكل واضح وصريح حيال هذا الشخص، ولقد شعرت أنّ الرئيس القدسي لم يرتح لتصرفي وقد تأكد ذلك لي عندما انتحى بي جانباً بعد انفراط عقد المجلس وقال (يا ابني يا نزار هنالك أشخاص لا تجوز مخاصمتهم كما لا تجوز أيضاً مصادقتهم والشخص الذي تكلّمت عليه بالمجلس واحدٌ من هؤلاء فخذ حذرك في المستقبل).

نعمان:

يرتبط اسم ناظم القدسي لدى جيلنا أنّه السياسي الذي قبل أن يكون رئيساً للجمهورية أثناء سنوات الانفصال مما كان يعتبر في فترة من الفترات لدى دعاة الوحدة والقومية وبعض الناصريين، خروجاً عن الخط الوطني، طبعاً مرور السنوات وتغير الظروف والأحوال أصبح يتيح لنا تناول تلك الفترة وشخصياتها بموضوعية وتفهم أكثر مما تتيحه معاصرة الحدث آنياً.

نزار:

صحيح، والواقع أنّ ناظم القدسي من الشخصيات التي تكاد تتفق الآراء على نزاهتها ووطنيتها وتمسكها بقيم الحرية والديمقراطية بل بسعيها منذ الأربعينيات نحو شكل من أشكال وحدة الأقطار العربية وله مساهمات ومساع في هذا الاتجاه. لا شك أنّ مفهوم الوحدة التي ينشدها القدسي وأمثاله ممّن يعرفون برجال العهد الوطني تختلف بمضمونها عما شهدته سنوات الوحدة بين مصر وسوريا بين عامي ١٩٥٨م و١٩٦١م إذ إنّ قيم الديمقراطية والحرية والحياة البرلمانية من مقدسات السياسة عند هؤلاء، وبالتالي فلم يكن مستغرباً أن يكون لهؤلاء وهم من آمن بفكرة الوحدة العربية وعمل لها مواقف ناقدة لتجربة الوحدة مع مصر وسعي لاحق لتقويم ما نتج منها من مثالب وأخطاء أقله من وجهة نظرهم.

ثم إنّ ناظم القدسي ناهيك عما يتصف به من مناقبية ونزاهة

فهو رجل علم تخرج في كلّية الحقوق بجامعة دمشق عام ١٩٢٣م ثم حصل على الدكتوراه من جامعة جنيف عام ١٩٢٩م وكان من رجال الكتلة الوطنية وإن كان قد انضم إلى حزب الشعب الذي انبثق من هذه الكتلة بمواجهة منافسه ونظيره الحزب الوطني وانتخب مرات عديدة نائباً عن مدينة حلب وشغل منصب وزير مفوض في واشنطن عام ١٩٤٥م ووزير خارجية عام ١٩٤٩م ورئيساً للحكومة ولمجلس النواب غير مرة ثم رئيساً للجمهورية سنوات ما بعد الوحدة مع مصر ليعتزل العمل السياسي بعدها ويعيش خارج سوريا وليستقر أخيراً بالأردن التي توفي فيها عام ١٩٩٨م. ويقول عبد الوهاب حومد في مذكراته، وكان مقرباً من القدسي، إنّه أثناء سنوات الوحدة وكان القدسي مقيماً بسوريا لكنه بعيد أو مبعد عن العمل السياسي إن ناظم القدسي التمس منه، أي من عبد الوهاب حومد، أن يسعى له بوظيفة ما كمدير مصرف أو شركة، ويضيف عبد الوهاب حومد إنّ ذلك الشخص الذي شغل من المناصب أرفعها لسنوات طوال كان يحتاج إلى عمل يعيش منه لا سيّما أنّه لا ينحدر من عائلة ثرية بل من عائلة ملاكين زراعيين، ما كانت الزراعة تعطيهم مورداً كافياً يساعدهم على القيام بواجباتهم الاجتماعية لا سيّما وأنّه ممن يعملون في الحقل العام.

نعمان:

هذا يقودنا لتساؤل، إذ يعتقد الكثيرون أن كلّ أو معظم من تصدّوا للعمل السياسي وشغلوا المناصب السياسية والإدارية العليا

في فترة الانتداب أو في سنوات ما يعرف بالعهد الوطني هم من أبناء العائلات الثرية أو الإقطاعية أو ذات الثراء الكبير وبالتالي فقد كانت المناصب والوظائف العليا حكراً على هؤلاء في حين أنّنا نرى أنّ ناظم القدسي وقد شغل من المناصب الرفيعة ما شغل لم يكن ينتمي إلى واحدة من تلك العائلات.

نزار:

وهذه أيضاً من الأفكار المسبقة الجاهزة التي يتداولها الناس دون تمحيص وتدقيق وبقيت واحدة من الانتقادات التي ينتقد فيها ما يعرف بالحكم الوطني. لا شك أنّ بعضاً من الشخصيات التي لعبت دوراً في الحياة السياسية وشغلت المناصب العليا كانت من تلك العائلات، لكن الكثير منهم لم يكونوا كذلك بل وصلوا إلى ما وصلوا إليه نتيجة نضالهم وانخراطهم في العمل العام وأيضاً نتيجة المستوى التعليمي الذي حصلوا عليه، فقد كان التعلم لسنوات طويلة وسيلة من وسائل الارتقاء الاجتماعي والوظيفي في سوريا. وإذا كان لنا من أمثلة على ذلك فلنا بفارس الخوري مثل واضح فهو لم يكن سليل أسرة ثرية أو ذات نفوذ بل إن تفوقه وتحصيله العلمي ونضاله الوطني كان من أسباب ظهوره وتسنم المناصب العليا. وأيضاً الدكتور معروف الدواليبي من أسرة غير ذات شهرة وثراء ونفوذ ومع ذلك أتيح له من الشهرة والمناصب الكثير بسبب تفوقه العلمي وشخصيته المميزة. نأتي إلى مأمون الكزبري الذي صحيح

أنّه ينتمي إلى أسرة معروفة لكن شهرتها في مجال الفقه وعلوم الدين وليس في مجالات الثروة والنفوذ وتملك المساحات الواسعة من الأراضي، والأمثلة عديدة في هذا المجال كصبري العسلي وعبد الوهاب حومد وسواهما.

نعمان:

يروي أهل اللاذقية حادثة عن ناظم القدسي لا أدري مدى صحتها وإن كانت معروفة ومشهورة فحواها أنّه حين قدم القدسي إلى اللاذقية كرئيس للجمهورية زمن الانفصال ووقف خطيباً في ساحة الشيخ ضاهر حاول بعض الساخطين على انفصام عرى الوحدة التشويش على خطابه وشتمه فكان أن تدخل رجال الشرطة لاعتقال هؤلاء فقال القدسي: اتركوهم لا أريد في عهدي أن يسجن أو يوقف أحد بسبب آرائه.

نزار:

لم أكن من شهود تلك الحادثة لكنّها رويت ونقلت على لسان كثيرين وبعضهم كانوا من شهودها وهي ممكنة الحصول وتتوافق مع أفكار حرية الرأي التي يحملها القدسي وأمثاله، ولا بد أن نعترف أن سنوات حكمه لم تسجل حوادث الاعتقال التعسفي والعنف الشديد من قبل الأجهزة بالشكل الذي عرفته سوريا.

نعمان:

عن أية شخصية ممن عرفت والتقيت ستكون القصة والعبرة التالية:

نزار:

سيكون الحديث التالي عن شخصية لبنانية هامة ساهم المرض المبكر في اعتزالها الحياة السياسية والعامة هو المرحوم حميد فرنجية.

نعمان:

قبل الخوض في الحديث عن حميد فرنجية، لاحظت أنّك تحدثت مراراً عن شخصيات لبنانية مع أن موضوعنا أساساً عن سوريا، أعرف أنّ ثمّة تداخلاً وتقاطعاً وأحياناً ترابطاً في الحياة السياسية بين سوريا ولبنان وبالتالي علاقات وطيدة بين الساسة بين البلدين على الرغم من أنّ تلك العلاقات، أقصد بين البلدين، شهدت من التوترات والعداوات والخلافات بقدر ما شهدت وربّما أكثر من فترات وفاق وتفاهم، لكن يبدو أنّ قدر الدولتين، ولا أقول الشعبين، أن يكونا دوماً في وضع يراوح بين الحميمية والعداء ولا مكان للحيادية، أو النأي بالنفس وفق ما درج عليه القول أخيراً.

نزار:

ما يجمع لبنان وسوريا عبر التاريخ والجغرافيا والتداخل السكاني

أكبر من أن يسمح بحيادية أو علاقات باردة كتلك التي تربط الدول التي لا تمتلك تلك الخصوصيات. لسنا بحاجة لاستعراض مجريات التاريخ القريب وحتّى قيام لبنان ككيان مستقل على يد الفرنسيين في العشرينيات من القرن الماضي لندلل على الترابط بين الكيانين أو الدولتين إذا أردت. لقد بقي عدم الاعتراف بالمرجعية النهائية للبنان كوطن قائماً إلى أن تمّ حسمه بما يعرف بوثيقة الوفاق الوطني على يدي كلّ من بشارة الخوري ورياض الصلح عام ١٩٤٣م التي اعترفت بمرجعية الوطن اللبناني وخصوصاً لدى الطائفة السنية التي كانت من أكثر الرافضين لذلك قبلها، ولا شك أن موقف الرئيس شكري القوتلي بمباركة هذا الميثاق ساعد وساهم في تخفيض الرفض والجدال حوله وإن كان ذلك ارتبط بموافقة ضمنية من كلا البلدين بضرورة وجود علاقات متميزة بينهما بقيت إلى اليوم وإن عرفت موجات من المدّ والجزر خلال تلك السنوات.

نعمان:

ولعل حديثنا عن الميثاق الوطني يقودنا بدوره إلى حميد فرنجية إذ يعدّ بعض الدارسين والمهتمين أنّه صاحب دور مميز في هذا المجال قد لا يقل عن دور كلّ من بشارة الخوري ورياض الصلح ولا سيّما بالإصرار على مضمون الانتماء والوجه العروبي للبنان في سياسته الخارجية خصوصاً وهو من يعتبر بمثابة المؤسس لوزارة الخارجية اللبنانية في عهد الاستقلال إذ تولى تلك الوزارة غير مرة منذ عام ١٩٤٥.

نزار:

وهو حقوقي ومحامٍ وصحفي ونائب في البرلمان منذ عام ١٩٣٢م، بل إنّه ترشح للرئاسة عام ١٩٥٢م أمام كميل شمعون وكاد يكون رئيساً قبل أن تقوده الظروف والتفاهمات إلى الانسحاب. وهو من مؤسسي صحيفة (لوريون لو جور) المهمة في عالم الصحافة اللبنانية، إضافة إلى توليه الوزارة وزيراً للمالية وللخارجية غير مرة كما ذكرت. ولعل أهمية حميد فرنجية تكمن في أنّه كان الأمين على تنفيذ الميثاق الوطني والمؤكد على الوجه العروبي للبنان والداعي إلى ضرورة التنسيق والتفاهم مع الدول العربية في الشأن الخارجي خصوصاً. إلّا أنّ المرض أقعده عن العمل السياسي مبكراً لإصابته بمشكلة دماغية قادته إلى الانسحاب من العمل السياسي مطلع الستينيات ثم إلى وفاته عام ١٩٨١م ممّا أتاح ظهور شقيقه سليمان فرنجية على الساحة السياسية وليستطيع تبوّء ما عجز عنه حميد فرنجية أي كرسي الرئاسة الأولى.

نعمان:

نعود إلى الحديث عن تلك الحادثة أو العبرة التي التقطتها من حميد فرنجية من خلال العلاقة التي كانت تجمعه مع أسعد هارون ما جعلك قريباً من أجواء العلاقات الوطيدة بين الساسة السوريين واللبنانيين كما كانت حينذاك.

نزار:

عقب تخرجي في كلّية الحقوق بدمشق عام ١٩٥٥م وفي طريق عودتنا والدي وأنا من دمشق إلى اللاذقية عبر بيروت كما كانت العادة حينذاك وكما كانت عادة والدي لتكون فرصة للتواصل مع أصدقائه في بيروت من الساسة والصحفيين والعاملين بالشأن العام وخصوصاً ممن جمعتهم به صداقة وزمالة أثناء دراسته في باريس أو أثناء اعتقاله من قبل الفرنسيين في معتقل المية والمية، أو سجن الرمل. وكانت تلك اللقاءات هي ما مكنتني من التعرف إلى العديد من تلك الشخصيات أمثال تقي الدين الصلح وعلي بزي وزهير عسيران ومحمد صفي الدين ونصري المعلوف ورشيد كرامي وصائب سلام وشوقي الدندشي وآخرين. في واحدة من تلك الزيارات كنا ضيوف عشاء عند حميد فرنجية دعانا إليها بمناسبة تخرجي في الجامعة حين سألني وهو المحامي اللامع: هل تنوي العمل بالمحاماة؟ ولما أجبته بالإيجاب قال: إليك إذاً هذه النصيحة، (أكسر رجلك في مكتبك) وهو تعبير عامي دارج يعني: إلزم مكتبك. عملت بهذه النصيحة طوال سنوات من عملي المهني وإلى اليوم وعرفت خلال تلك السنوات أهمية تلك النصيحة التي تدفعك لبذل الجهد لمراجعة ملفات القضايا التي تعمل عليها ناهيك عن القراءة والمطالعة في المجالات الحقوقية وسواه والابتعاد عن التسكع في الشوارع المحافظة على كرامة المهنة والمحامي. لقد كانت نصيحة هامة تلقيتها في أوّل السلّم المهني من رجل خبير وقد نقلتها إلى

جميع الزملاء الذين تدربوا في مكتبي وها أنا ذا أنقلها بدوري إلى زملاء المهنة من الشباب.

نعمان:

ولعل حديثنا عن حميد فرنجية ينقلنا مباشرة إلى الحديث عن سليمان فرنجية الذي جمعتك به علاقة وطيدة وربّما ثمّة عبرة أو قول مما بقي في الذاكرة من خلال تلك اللقاءات.

نزار:

نعم وبداية فإنّ العلاقة مع سليمان فرنجية توطدت أوّلاً خلال إقامته في اللاذقية أواخر الخمسينيات مبتعداً عن إشكالات فرضتها الظروف السياسية والأمنيّة في لبنان واستمرت هذه العلاقة بعد دخوله معترك السياسة ليسد الفراغ الذي خلفه انسحاب أخيه حميد فرنجية من العمل السياسي بسبب المرض وأيضاً أثناء توليه رئاسة الجمهورية بين عامي ١٩٧٠- ١٩٧٦م. وأذكر أنّه أثناء إحدى زياراتي إليه في القصر الجمهوري سألني خلال حديث عن الزراعة والأراضي الزراعية عن كرم زيتون كان لوالدي، وحين أجبته أنّه مهمل قال عبارة أسمعها لأوّل مرة (يا نزار ببلادنا يطلق على كرم الزيتون عبارة رزق الأرملة) أي إنّه لا يحتاج إلى كثير جهد وعناية حتى يؤتي ثمره. وعلى كلّ حال كان سليمان فرنجية على قدر كبير من الدماثة والتواضع والوفاء، كانت تلبية طلبات الناس من أسباب سعادته،

وحديثه وجلساته بعيدة كلّ البعد عن الشكليات والبروتوكول، وكان يؤثر الحلول التوافقية والبعيدة عن الفرض والعنف والإكراه. وأذكر مرة كنت بضيافته على الغداء وصودف وجود الياس سابا وزير التربية حينذاك وجرى الحديث عن إضرابات طلابية لتلبية بعض المطالب فكان أن توجه إلى الوزير سابا قائلاً (الله يرضى عليك ما تزعلنا التلاميذ).

نعمان:

يعتقد الكثيرون أنّ الصدفة، أو لنقل تحديداً مرض حميد فرنجيه المبكّر، هو الذي جاء بسليمان فرنجية إلى ساحة السياسة ومكّنه من تسلم كرسي الرئاسة الأولى وهو ما لم يستطع حميد فرنجية تحقيقه عام ١٩٦٠م بمواجهة كميل شمعون. بمعنى آخر لم يكن سليمان فرنجية يمتلك تلك المواصفات الشخصية والكفاءة السياسية والإدارية قياساً على حميد فرنجية وأن التركيبة السياسية اللبنانية هي التي أتاحت له ما أتاحت.

نزار:

ربّما من الناحية الشخصية لم يكن لدى سليمان فرنجيه الكفاءة والمعرفة التي كانت لحميد فرنجية. وربّما ساعدت التركيبة السياسية اللبنانية والفراغ الذي تركه حميد فرنجية باعتزاله العمل العام نتيجة المرض على دفع سليمان فرنجية نحو الواجهة؛ فدخوله مجلس

النواب بدأ عام ١٩٦٠م بعد أن كان حميد فرنجية قد شغل تلك العضوية بلا انقطاع منذ عام ١٩٣٢م وحتى عام ١٩٥٧م، كما أنّه بدأ بتسلم المناصب الوزارية منذ عام ١٩٦٠م أيضاً بوزارة صائب سلام، وصولاً إلى فوزه بالرئاسة الأولى عام ١٩٧٠م بفرق صوت واحد متقدماً على الياس سركيس. كلّ ذلك صحيح لكنّ ذلك لا يقلل من مواصفات شخصية تمتع بها سليمان فرنجية أتينا على ذكر بعضها مثل التلقائية والتواصل المباشر مع الناس والاندفاع لخدمتهم والرغبة في معالجة الأمور بوسطيّة بعيداً عن العنف والتسلط.

من جهة أخرى يسجل لسليمان فرنجية مواقف تحسب له منها موقفه أثناء حرب تشرين ١٩٧٣م إذ قدّم لسوريا وللجيش السوري دعماً ومساندة ومؤازرة كانت ذات أهمية ما وطد علاقته مع سوريا ومع الرئيس حافظ الأسد، من جهة ثانية يحسب له موقف (دستوري إذا صح التعبير) إذ أصر في ظل عواصف الحرب الأهلية اللبنانية والضغوط التي مورست لحمله على الاستقالة أو تسليم السلطة إلى جهة ما، أصرّ على إكمال ولايته الدستورية إلى آخر يوم والخروج من القصر الجمهوري طبقاً للدستور ومراسم التسليم المنصوص عليها يوم ١٩٧٦/٩/٢٣م، إضافة إلى ذلك فإنّ سليمان فرنجية حمل بتكليف من القمة العربية الملف الفلسطيني إلى الأمم المتحدة عام ١٩٧٤م يوم كان ثمّة سعي دولي لحلّ المشكلة الفلسطينية وهو ما لم يكتب له النجاح ويالأسف، لكنّ تكليف الرئيس اللبناني من قبل العرب مجتمعين بأن يكون الحامل لصوتهم والمعبر عنهم أمام أهم

محفل سياسي دولي كان له من الدلالات لدور لبنان وأهميته، لكنّه لم ينقض سوى أشهر على وقفة الرئيس فرنجية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة حتى بدأت نذر الحرب الأهلية اللبنانية فأطاحت الدور الريادي الذي كان يمثله لبنان وقضت على تجربة سياسية في الحكم كان يعتقد أنّها تصلح للتعميم على دول المنطقة.

نعمان:

سليمان فرنجية واحد من الذين اكتووا بنار الحرب الأهلية اللبنانية إذ فجع عام ١٩٧٨م بمقتل ابنه وزوجته وأولادهما في حادث اغتيال على يد واحدة من الميليشيات المسلحة المسيحية التي أفرزتها تلك الحرب المجنونة، يشير البعض إلى أنّ تلك الحادثة المأسوية كانت من أسباب الاصطفافات السياسية لسليمان فرنجية لاحقاً إذ توطدت تحالفاته مع ما كان يعرف بجبهة الخلاص الوطني التي ضمت رشيد كرامي ونبيه بري وجنبلاط، كما كان من المعترضين أو المقاطعين للانتخابات التي أتت ببشير الجميل ثم أخيه أمين الجميل بعد اغتيال بشير لمنصب الرئاسة الأولى، وكان من أشد المعارضين لاتفاق ١٧ أيار مع إسرائيل ومن أكثر من عمل على إسقاطه لاحقاً.

نزار:

قد تكون المأساة الشخصية التي أصابت سليمان فرنجية

باغتيال ابنه وأفراد من عائلته سبباً من أسباب اختيار مواقفه السياسية لكن ثمة أسباب موضوعية أهم من ذلك؛ فسليمان فرنجية ومن قبله حميد فرنجية من دعاة لبنان ذي الوجه العروبي وإنّ العلاقة الحسنة مع الجار السوري قدر لبناني لا مهرب منه وبالتالي فإنّ ذلك لا يستقيم بشكل من الأشكال مع اتفاق كاتفاق ١٧ أيار ولا يتوافق مع الانضمام إلى تحالفات وجبهات يكون محورها العداء المطلق لسوريا. نعم عاد سليمان فرنجية فيما بعد ليطلق شعار (عفى الله عما مضى) عام ١٩٨٨م ولكن ذلك كان موقفاً ذا بعد شخصي أكثر منه موقفاً سياسياً.

نعمان:

حدثتني عن واقعة بقيت في ذاكرتك كان بطلاها أحمد قنبر وسعيد السيد عندما كان أوّلهما وزيراً للداخلية والثاني محافظاً لحمص وسأله أحمد قنبر عن رأيه بالانتقال محافظاً إلى اللاذقية.

نزار:

والحادثة تعود ربما إلى مطلع الخمسينيات حين استدعى أحمد قنبر سعيد السيد وقال له إنّه يفكر في نقله محافظاً إلى اللاذقية فكان جواب سعيد السيد: أنا لا أناسبكم في اللاذقية، استغرب قنبر الجواب وعندما استفسر عما دعاه لهذا القول أجاب السيد: أنا صديق أسعد هارون وهو زعيم الحزب الوطني باللاذقية الذي كان بموضع منافسة

سياسية وانتخابية مع حزب الشعب الذي يعدّ أحمد قنبر من أهم قياداته وبالتالي فإنّ ميولي وعواطفي في أية منافسة قادمة ستكون مع أسعد هارون. حينئذ أجابه أحمد قنبر: إذهب إلى اللاذقية ولا تهتم بما قد يقال في هذا المجال فلا أنت من الناس الذين يخالفون القانون مهما كانت الأسباب ولا أسعد هارون من الذين يطالبون بتلك المخالفات القانونية أيضاً، أما الهوى والميل والمحبة فلا شأن لنا بها وهي قضايا شخصية لا يحاسب عليها القانون.

نعمان:

الحديث عن المحافظين وعمّن كانوا يشغلون ذلك المنصب في المحافظات السورية يظهر لنا أن أهم الشخصيات الوطنية والسياسية ورجال النضال ضد الانتداب كانوا يسمّون محافظين ومنهم من ينتقل من الوزارة أو السفارة لشغل منصب محافظ، هل كان ذلك بسبب أهمية المنصب قياساً على اليوم أم لذلك أسباب أخرى؟

نزار:

صحيح، ولو تحدثنا عن اللاذقية مثلاً فسنقع على أسماء لامعة من الساسة ورجال النضال في سبيل الاستقلال وقد شغلت ذلك المنصب أمثال: إحسان الجابري الذي كان أوّل محافظ سوري للاذقية بعد عودتها إلى الوطن السوري إثر معاهدة عام ١٩٣٦ التي تعرف

١- الدكتور حبيب صوايا، ٢-جول نصري، ٣- الرئيس صائب سلام، ٤-صوايا، ٥- إميل نصري، ٦- شفيق جورية، ٧- الرئيس عبد الله اليافي، ٨- أسعد هارون، ٩- الرئيس سليمان فرنجية.

بمناسبة اجتماعية في اللاذقية عام ١٩٧٥م.

بالاستقلال الأول، وأيضاً الأمير مصطفى الشهابي السياسي واللغوي والعالم الموسوعي الذي كان عضو الوفد السوري المفاوض لمعاهدة عام ١٩٣٦م وختم حياته رئيساً لمجمع اللغة العربية، وعادل العظمة ومظهر باشا رسلان ورشيد حميدان ومصطفى الحوراني وعدنان الخطيب وكلّهم ذوو شأن في العمل السياسي والوطني. طبعاً لا يخلو الأمر أحياناً أن يتمّ تعيين بعض المحافظين من رجال الإدارة والقضاء في هذه المحافظة أو تلك.

أما عن منصب المحافظ وأهميته في تلك السنوات، فلا شكّ أن ذلك المنصب بالرغم من أنّه بالنتيجة ذو بعد إداري ومرتبط بوزير الداخلية، إلا أنه له في الوقت نفسه بعد سياسي تفرضه طبيعة الحكم والنظام السياسي الذي كان قائماً حينذاك، كما أنّ نتائج الانتخابات البرلمانية كانت ولا شك تلعب دوراً في اختيار هؤلاء المحافظين، وعليه فما كانت تلك الشخصيات التي سبق لها شغل منصب الوزارة أو السفارة تتحرج من شغل منصب المحافظ ذي الأهمية الإدارية والسياسية وفق ما ذكرنا، ولا كانت تبعيتهم لوزير داخلية ربّما اعتبروا أنفسهم أهم منه في العمل السياسي والوطني تترك أثراً في هذا المجال. بل إن أعمال ومنجزات هؤلاء تحسب لهم، فإلى اليوم ينسب إلى مصطفى الشهابي دون غيره فضل إنشاء دار الكتب في اللاذقية أثناء توليه منصب المحافظ لها في منتصف الأربعينيات، كما ينسب إليه الفضل نفسه حول إنشاء دار الكتب بحلب في أواخر الثلاثينيات حين تولى أيضاً منصب المحافظ فيها، وبين هذا وذاك

شغل الشهابي منصب الـوزارة والأمانة العامة لمجلس الوزراء ومناصب أخرى ربّما تفوق أهمية منصب المحافظ دون أن يكون لذلك أدنى اعتبار لا منه شخصياً ولا من الآخرين.

نعمان:

هل نستطيع القول إنه بوجود تلك الشخصيات على مقاعد المحافظين والصفة السياسية إلى جانب البعد الإداري لهذا المنصب كان يحمل شيئاً من صفات الحكم الذاتي أو الإدارة المحلية كما تسمى اليوم؟

نزار:

نهائياً كلّا، فسوريا لم تعرف منذ الاتفاق على الشكل النهائي للوطن السوري والمرسخ باتفاقية عام ١٩٣٦م ثم بعد الجلاء التام وإلى اليوم أيّ مظهر من مظاهر الحكم الذاتي بل كانت دائماً ولا تزال دولة ذات حكم مركزي، بل شديد المركزية تلعب فيها العاصمة الدور المركزي والحاسم ليس في الشؤون الخارجية والسياسات العامة فقط، بل حتى في الأمور الخدمية والإدارية ناهيك عن الاقتصادية. وحتى ما يعرف اليوم بمبدأ الإدارة المحلية فهو ذو مظهر شكليّ أكثر منه حقيقة واقعة. وأما ما تحدثنا عنه من حضور للمحافظين فهو لا يعدو انعكاساً لشخصيات من تولوا ذلك

١ - سعيد السيد (محافظ حمص)، ٢- سعيد الغزي (رئيس الوزراء)، ٣- العميد شوكت شقير (رئيس الأركان)، ٤ - نائب الرئيس المصري في حينه «أنور السادات»، ٥- الوزير أسعد هارون، ٦- الوزير رشاد برمدا.

والصورة بمناسبة زيارة أنور السادات إلى سوريا عام ١٩٥٤م.

المنصب في تلك السنوات وأهميتهم في العمل الوطني والسياسي والنضال الوطني.

نعمان:

هذا يقودنا إلى سؤال عما يطرح اليوم من أن الإدارة الذاتية الحقيقية قد تكون أحد أشكال الحلول التي يمكن أن تساهم في إيجاد مخرج للحالة السورية المستعصية منذ سنوات وتكون مخرجاً لإعادة تشكيل الوطن السوري على أسس من ذلك.

نزار:

من الصعب أن نأتي برأي سريع حول هذا، ولكن اللامركزية كانت حلّاً من الحلول التي أتت بها بعض من الأزمات في بلدان عديدة. أما هل يصلح ذلك لبلد مثل سوريا، ربّما، لكنّ ذلك يجب أن يأتي برأي توافقي وضمن وحدة التراب السوري أوّلاً، ومن ثم تلمس أبعاد ومنطلقات تلك اللامركزية وفي ذلك حديث طويل، أرى أنّ مجال بحثه في الظروف الراهنة مقبول وطنياً.

نعمان:

لننتقل إلى حادثتين بقيتا في ذهنك من زمن الدراسة الجامعية تحدثنا عنهما، الأولى يوم تم اعتقال الدكتور منير العجلاني وكان أستاذاً للقانون الدستوري وطبعاً سياسياً معروفاً شغل العديد من

المناصب، والثانية عن إصرار قسطنطين زريق على الاستقالة من رئاسة جامعة دمشق احتجاجاً على اقتحام الشرطة العسكرية لحرم الجامعة. والحادثتان وقعتا أثناء حكم الشيشكلي في بداية الخمسينيات.

نزار:

الدكتور منير العجلاني من الشخصيات التي يتفق الجميع على كفاءته العلمية وسمعته العطرة في الحياة السياسية والأكاديمية، كان أستاذاً لمادة القانون الدستوري في كلّية الحقوق ومن الذين يتهافت الطلبة على حضور محاضراته لما له من قدرة على الإحاطة بمواضيعه وإغناء حديثه من خلال ثقافته الواسعة وقدرته على نقل المعلومات إلى الطلاب. ولأنّه كان ككثيرين غيره من الساسة الذين عارضوا النزعة التسلطية التي طبعت فترة حكم الشيشكلي بطابعها، فقد تم اعتقاله من قبل ما يعرف يومذاك بـ(المكتب الثاني) أو مخابرات الجيش وكان مقره يومذاك قبالة كلّية الحقوق في مكانها الذي ما زالت فيه إلى اليوم في مبنى الجامعة القديم، وهو بالمناسبة بناء جميل تم تشييده مطلع القرن ليكون مقراً للجامعة التي ينوي الأتراك إقامتها إلا أنه سرعان ما تحول ليكون مقراً للجيش الرابع العثماني ثم مقراً للحامية الفرنسية وليعود مع سنوات الاستقلال إلى وظيفته الأصلية مقراً للجامعة السورية أو جامعة دمشق كما تعرف اليوم. إثر اعتقال الدكتور منير العجلاني كلّفت إدارة الجامعة الدكتور مصطفى البارودي تدريس مادة الحقوق الدستورية وكان عائداً من

فرنسا حديثاً ممتلئاً حيوية ونشاطاً ومشبعاً بروح الحرية والديمقراطية وهو بدوره مثقف وخطيب مفوه. وما زلت أذكر أنّه بدأ محاضرته الأولى بقوله: في هذا العهد الذي سلبت فيه حرياتنا وسلبت كرامتنا يُعتقل أستاذنا الدكتور منير العجلاني أبو الحقوق الدّستورية في سوريا وأنتم ساكتون عن ذلك، وأكمل محاضرته على هذا النسق. ويبدو أنّ أصداء ذلك وصل مباشرة إلى أسماع رجال المكتب الثاني غير البعيدين عن كلّية الحقوق، والظاهر أنّه تمت معالجة الأمر مع الدكتور الباردوي بهدوء إذ تابع محاضراته بعدها وفق المنهاج دون العودة إلى الحديث عن الدكتور العجلاني واعتقاله، بل أجاب في أوّل درس لاحق، حين سئل عن أخبار الدكتور العجلاني، قائلاً: إنّ حديقة الجامعة جميلة فتمتعوا بها، وهذا مؤشر على تأثير الحكم العسكري ونفوذه حينذاك.

نعمان:

لنسرد الحادثة الثانية التي كان بطلها الدكتور قسطنطين زريق يوم كان رئيساً للجامعة وبعدها نتناول أبعاد الحادثتين لأنهما تعودان إلى فترة واحدة هي فترة حكم الشيشكلي ومسرحهما الجامعة. وحسب ما قرأت في بعض المصادر أن سبب اقتحام الشرطة العسكرية للحرم الجامعي أنّه أثناء قيام الشيشكلي بتوزيع الشهادات على متخرجي كلّية الحقوق رفض طالب اسمه راغب هاني السباعي تسلم شهادته قائلاً إنّه يرفض تسلم شهادة الحقوق من رئيس دولة

لا تحترم الحقوق والقوانين، ومع أن الشيشكلي ابتسم وقتئذ قائلاً هؤلاء هم طلاب الحقوق، إلّا أن الشرطة العسكرية اقتحمت الحرم الجامعي بعدها للقبض على الطالب الذي أوقف مدة أسبوع في أحد المخافر ليطلق بعدها.

نزار:

لست على معرفة بالسبب المباشر للحادثة، لكن ما يهمّني فيها أن رئيس الجامعة الدكتور قسطنطين زريق وهو المفكر القومي العروبي البارز والمثقف والكاتب استقال احتجاجاً على الحادثة وأصر على استقالته رغم كلّ المساعي للعدول عنها وغادر دمشق عائداً إلى الجامعة الأميركية ببيروت ليكون أستاذاً ثم رئيساً لها. وللتذكير فإنّ الدكتور زريق، وهو دمشقي أرثوذكسي، كان قامة من قامات الفكر والثقافة في سوريا والمنطقة، ويعتبر من مؤسسي ومنظري الفكر القومي العربي إنّما باختلاف أنّه كان من أشد الرافضين لأي شوفينيّة أو تعصّب يلحق بهذا الفكر ومن أوّل المنادين بضرورة تلازم قيم الحرية والتعددية مع الدعوة القومية. وبالمناسبة فالدكتور زريق كان من أصدقاء والدي ما أتاح لي فرصة لقائه وقيامه بإهدائي نسخة من كتابه (معنى النكبة) ولا أنسى نصيحته لي وأنا أخطو أولى خطوات الميدان العملي والمهني بعد التخرج في كلّية الحقوق بقوله: ليكن سعيك للعلم والمعرفة وبعدها يسعى العمل إليك، على أن هذا

السعي يجب أن يكون مقروناً بالأخلاق ولا شيء يحفظ لك كرامتك ويصون مستقبلك سوى ذلك.

نعمان:

ولأن الدكتور زريق كان من المنادين بضرورة تلازم السعي القومي مع قيم الحرية والحياة السياسية المطبوعة بطابع ديمقراطي وتعددي جعل منه مفكراً ومنظراً أكثر منه صاحب تجربة في السلطة والعمل السياسي الميداني.

نزار:

الواقع أنّ الدكتور زريق شغل مناصب منها منصب الوزير السوري المفوض في واشنطن أوّل سنوات الاستقلال وأيضاً رئيس الجامعة السورية التي استقال منها أمام أوّل امتحان لما يحمله من أفكار وقيم كما بيّنا. والواقع المؤسف أنّ تلك الأفكار التي تدعو لربط القومية بالقيم الإنسانية وأسس الحرية والديموقراطية لم تلق اهتماماً من دعاة القومية الذين أتيح لهم تبوء المناصب السياسية والقيادية في أكثر من بلد عربي، بل إنّ التجارب القومية أصبحت ويالللأسف مقترنة بالديكتاتورية والتسلط وعدم احترام حقوق الإنسان.

نعمان:

يتبادر إلى أذهان الكثيرين، ولاسيما من أبناء جيل الشباب، أنّ

النزعة القومية والدعوة العروبية لم تكن واردة أو لها دعاة إلّا على يد الاتجاهات الراديكالية التي ظهرت ثم تبوأت الحكم في أكثر من بلد عربي كالحركة الناصرية وارتدادها في أكثر من بلد عربي وحزب البعث العربي الاشتراكي، أما ما قبل ذلك فلم يكن ثمّة اتجاه قومي وعروبي لا سيما في أفكار ودعوات الأحزاب والشخصيات التي كانت في سدة الحكم في تلك البلدان.

نزار:

وهذا بعيد عن الواقع لا سيّما إذا كنا نتحدث عن سوريا خصوصاً وبلاد الشام بشكل أعم. ربّما يصدق هذا الكلام على مصر بعض الشيء التي لها خصوصية أنّها كيان سياسي مستقر منذ آلاف السنين ومع ذلك وجد من كان يدعو قبل الناصرية إلى الاعتراف بعروبة مصر أقلّه على أسس ومنطلقات فكرية. أما في سوريا وبلاد الشام فالوضع مختلف تماماً، فالوعي القومي والنزوع نحو التحرر على أسس قومية والدعوات إلى إقامة كيان سياسي عربي واحد موجود منذ نهايات الحكم التركي لبلادنا، بل إن ما عرف بالثورة العربية الكبرى التي سعت إلى تحرير البلاد العربية من الحكم التركي وما شهدته من التفاف المثقفين والضباط السوريين والعراقيين حولها ما كان إلا على أسس عروبية ودعوة قومية، بل إنّ تلك الفترة شهدت السعي إلى إقامة دولة عربية تشمل بلاد الشام والحجاز والعراق، ثم ليتقلص الحلم ليصبح دولة تمتد من جبال طوروس حتى

صحراء سيناء. نعم لم يتحقق ذلك بسبب تلاعب الإنكليز واتفاقات سايكس بيكو- الشهيرة وغير ذلك من عوامل، لكن السؤال هل تحققت أية وحدة على يد دعاة القومية والعروبة بمفهومها الثوري منذ الخمسينيات وهم من قيض لهم أن يكونوا على مقاعد الحكم والسلطة سنوات طويلة أم أننا نشهد ويالللأسف مزيداً من التفتت حتى للكيانات السياسية التي كانت تسمى مصطنعة والتي أتت بها نتائج الحرب العالمية الأولى.

وبالتركيز على سوريا فإنّ كلّ رجال النضال الوطني ضدّ الانتداب الفرنسي ومن يعرف برجال العهد الوطني والكيانات والأحزاب السياسية التي نشأت في تلك الفترة لم تكن بعيدة عن العروبة بل كانت العروبة إطاراً فكرياً ومرجعية أسسه قائمة ومعتبرة. نعم ربّما لم يكن هؤلاء (راديكاليين)أو ثوريين باصطلاحات تلك الأيام، وربّما كانوا من الداعين إلى التلازم بين النزعة العروبية وأسس التعددية والحياة البرلمانية والحريات العامة، ألم يكن ذلك ما دفع مفكراً عروبياً كبيراً كقسطنطين زريق إلى الاستقالة من رئاسة الجامعة احتجاجاً؟

نعمان:

أيضاً على المستوى المهني، أي مهنة المحاماة، حدثتني عن واقعتين لشخصية كان لها موقف ذو عبرة هو المحامي ذو الشهرة ليس على مستوى المهنة فقط بل على المستوى العام ظافر القاسمي.

نزار:

كان من حظي أن أتمكن من لقاء العلامة ظافر القاسمي نقيب المحامين السوريين في مرحلة الخمسينيات. ومما في الذاكرة عن المرحوم القاسمي وجودي في مجلس له بعد انتهاء فترة تدرّبي على المحاماة حيث عرض عليّ أن أتوكل في اللاذقية عن إحدى الشركات التي يتابع قضاياها وشؤونها القانونية من مكتبه بدمشق وسألني عن التكاليف التي أريدها لقاء ذلك. كان من المفترض وقتذاك وأنا حديث العهد بالمهنة وبمعرفة ظروفها أن أترك ذلك له، لكن حماسة الشباب قادتني وقتذاك إلى مبلغ يبدو أنّه كبير، فابتسم مشيراً إلى المثل الشعبي المشهور (صار لك في القصر من امبارح العصر) أي إنّك وأنت في مستهل مسيرتك المهنية لا يحق لك طلب مثل هذه المبالغ. وثمّة مناسبات مهنية عديدة جمعتني مع القاسمي وتعلمت منه أنّ النجاح المهني يتطلب المثابرة والاطلاع والتعلم المستمر. ولعل للقاسمي فضلاً آخر عليّ إذ إنّه وبعد تراجع مستوى المهنة في منتصف الستينيات إثر تقلص الحياة الاقتصادية وهيمنة القطاع العام على النشاط الاقتصادي مترافقاً مع عدم وجود مردود ذي أهمية للأملاك الزراعية، حاولت كما فعل الكثيرون من أصحاب المهن العلمية إيجاد عمل خارج سوريا، وصودف أن كنت ببيروت أتسلم عرضاً من إحدى المؤسسات السعودية للعمل لديها مرفقاً بمشروع العقد حين التقيت صدفة الأستاذ القاسمي أمام فندق

النورماندي حيث قادنا الحديث عن عرض العمل الذي تسلمته، وكانت نصيحته لي أنّه على الرغم من أن المبلغ المعروض عليك جيد وهو قريب لما كان هو يتقاضاه أثناء عمله بالسعودية فترة لم تطل عاد بعدها للإقامة والعمل في بيروت لكنه أردف قائلاً: إذا كنت ما زلت تستطيع تأمين دخل يؤمن لك العيش بمستوى معقول مع المحافظة على كرامتك فابق حيث أنت فإنّ ذلك أدعى لحفظ الكرامة، وهكذا كان. بقي أن نشير إلى أنّ القاسمي على الرغم من ارتباط اسمه بالمحاماة فقد كان سياسياً وكاتباً وأديباً له مؤلفات ليس في الدراسات القانونية والحقوقية فقط، ولكن أيضاً في مجالات الاجتماع والأدب والشعر والنقد الأدبي، ولعل هذه الفتوى القاسمية التي طبقتها تشير إلى أنّه لا شيء يحفظ كرامة الإنسان إلّا وطنه، ولعل القاسمي أيضاً وهو من هو آثر العمل الفكري في لبنان لقاء دخل أقل بكثير من العمل خارج البلد وعليه بشكل من الأشكال صفة لاجئ أو مغترب.

نعمان:

الواقع لدى بحثي في الشبكة الإلكترونية عن ظافر القاسمي تبين لي أن شهرته لا تناسب أعماله ومؤلفاته وأنشطته فهو ناهيك عن الدراسات والمؤلفات القانونية والحقوقية له كتاب بعنوان نظرات في الشعر الأموي وكتاب غزل من الصحراء ومعجم باسم قاموس الصناعات الشامية وهو عضو الجمعية الدولية للعلوم التاريخية

ومقرها باريس وشغل منصب نائب رئيس منظمة المحامين الدولية وأستاذ للحضارة الإسلامية بالجامعة اللبنانية وأستاذ زائر للعديد من الجامعات الفرنسية حيث كان يتقن الفرنسية كأهلها بل ربّما أكثر.

لكن دعني اتجه اتجاهاً آخراً في مسار حياة القاسمي إذ يسجل البعض لفترة حكم الشيشكلي على الرغم مما ينسب إليه من تسلط وما يتهم به الرجل من ديكتاتورية أنّه تقبل نتائج انتخابات نقابة المحامين، وكانت شيئاً ذا أهمية وقتذاك، تلك الانتخابات التي أتت بظافر القاسمي نقيباً لمحامي سوريا عامي ١٩٥٣/ ١٩٥٤م على الرغم من أنّه من المعارضين لأسلوب حكم الشيشكلي وواحدٌ من كثيرين اعتقلوا في عهده وأحد الموقعين على ما عرف ببيان حمص الذي ضم الفعاليات السياسية التي اجتمعت وأصدرت ذلك البيان الشهير الذي طالب بإنهاء حكم الشيشكلي، بل إنّه شريك صبري العسلي في مكتب المحاماة والعسلي من أكثر المناوئين للشيشكلي وعهده.

نزار:

وتفسير ذلك أن حكم الشيشكلي قد مرّ بمرحلتين إذا جاز التعبير، ففي السنوات الأولى طبع فعلاً بطابع الحكم الفردي والتسلط وهيمنة الأجهزة الأمنية والعسكرية ما أبعد عنه بطبيعة الحال معظم إن لم نقل جميع الشخصيات التي كانت تمثل قوام الأحزاب والتيارات السياسية التي منعت من مزاولة نشاطها لمصلحة التشكيل

السياسي الذي أسّسه الشيشكلي تحت اسم حركة التحرير العربي كتنظيم سياسي وحيد. لكن في المرحلة الثانية من سنوات حكمه حاول الشيشكلي التخفيف من حدة فردية الحكم ونزعته التسلطية وبدأ بإجراء اتصالات مع رجال الأحزاب والتيارات السياسية بغية إحداث تغيير في طبيعة الحكم مع وعود منه بعودة تدريجية إلى الحياة السياسية الطبيعية داعياً إياهم إلى الانخراط في الوزارة والحكم للبدء بتنفيذ هذه الوعود. بطبيعة الحال حدثت انقسامات في الرأي داخل تلك الأحزاب والتيارات السياسية بين مؤيد لذلك ومعارض وكان أن شهد الحزب الوطني بدوره ذلك الانقسام ودخل بعض رجاله في الوزارة. تلك المرحلة التي نتحدث عنها سمحت أن يكون ظافر القاسمي على رأس نقابة المحامين السوريين وهو المعارض للعهد ولطريقة الحكم ولولا النهج الجديد الذي حاول الشيشكلي انتهاجه في المرحلة الأخيرة من سنوات حكمه ما كان للقاسمي أن يحوز ذلك.

نعمان:

كان خالد بكداش من جملة الشخصيات التي أتينا على ذكرها وذكر لقاءات معها، لنبدأ بما تحمله الذاكرة عن خالد بكداش بداية.

نزار:

عام ١٩٥٦م أو ربّما ١٩٥٧م، فتوالي السنوات لا بد أن يؤثر

١ – السيدة حرم ظافر القاسمي، ٢ – جمال علي أديب، أسعد هارون، ظافر القاسمي،
٥ – كمال شومان، الصورة في اللاذقية.

في الذاكرة، كنت في دمشق وذهبت بعد نهاية يوم حافل بالعمل للقاء والدي الذي كان يجلس مع أصدقاء وسياسيين وآخرين في مقهى الواحة ومنهم خالد بكداش الذي بادرني بالسؤال: ألست ذاهباً إلى موسكو؟، ويقصد إلى مهرجان الشباب العالمي الذي سيقام هناك، قلت له: لست مدعواً، فقال: على الفور إنّي أدعوك الآن، وبالفعل وجدت الدعوة بانتظاري عند عودتي إلى اللاذقية وكانت رحلة بواسطة سفينة روسية قدمت مرفأ اللاذقية خصوصاً لنقل الوفد السوري الكبير العدد ثم أبحرت من اللاذقية إلى مرفأ أوديسا حاملة على متنها خليطاً عجيباً غريباً من المدعوين. كان على متن السفينة من هم منخرطون في العمل السياسي ولا سيما بطبيعة الحال اليساريون والشيوعيون وأيضاً من الأحزاب والتيارات الأخرى وفنانون وشعراء وكتّاب، وأذكر أن فخري البارودي وأعضاء فرقة السماح للرقص الشعبي التي أسسها البارودي وأشرف عليها كانوا من جملة المدعوين. وعند وصولنا إلى ميناء أوديسا أقيم لنا استقبال حافل ثم تابعنا رحلتنا بالقطار باتجاه موسكو وكنا نلقى عند كلّ محطة من محطات توقف القطار استقبالاً حاشداً وحفلات تكريم تتسم بالبذخ والحفاوة.

نعمان:

أعتقد أن ذلك المهرجان الذي تتحدث عنه أقيم عام ١٩٥٧م إذ بالرغم من أن ما كان يعرف بمهرجان الشباب والطلبة كان تقليداً

سوفياتياً بدأ مطلع الخمسينيات واستمر إلى عام ١٩٨٥م، إلّا أن مهرجان عام ١٩٥٧م وهو السادس كان مميزاً وعدّ حينذاك أوّل كوة في الجدار الحديدي حول الاتحاد السوفياتي وجاء نتيجة السياسة الجديدة التي اتبعها خروتشوف بعد توليه القيادة إثر وفاة ستالين عام ١٩٥٣م.

نزار:

بالفعل كان مهرجاناً حافلاً ومميزاً شارك فيه آنذاك أكثر من ثلاثين ألف شاب من حوالى ١٣٠بلداً وقد أرادته القيادة السوفياتية وقتذاك دليلاً ومؤشراً على نجاحات كانت تعتقد، ويعتقد العالم حينذاك، أنّ الاتحاد السوفياتي وما يمثله من قيم واتجاهات قد حققها. لا شك أنّ تلك السنوات شهدت حضوراً دولياً للدولة السوفياتية، وهذا هو الأهم، كما شهدت أيضاً انتشاراً كبيراً للأفكار الشيوعية والاشتراكية التي كانت (الموضة) الفكرية لأجيال الشباب إذا صح التعبير.

نعمان:

وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى الحديث عن خالد بكداش إذ إنّ تلك الفترة التي تشير إلى أنّها شهدت تمدد وانتشار الأفكار الشيوعية والاشتراكية سمحت لخالد بكداش أن يفوز بمقعد نيابي في انتخابات عام ١٩٥٤م الشهيرة في سوريا وكان أوّل نائب شيوعي

في دولة عربية ما دعا إحدى الصحف الأميركية أن تعنون يومذاك: دمشق المدينة المحافظة تنتخب نائباً شيوعياً.

نزار:

الواقع أن اسم خالد بكداش كشيوعي بل كأوّل رئيس لحزب شيوعي سوري قد بدأ بالظهور قبل ذلك بفترة طويلة؛ فخالد بكداش وإن لم يكن رسمياً عضواً في الوفد السوري الذي فاوض الفرنسيين على بنود معاهدة عام ١٩٣٦م التي يعتبرها البعض الاستقلال الأول، إلا أنه كان حاضراً على هامش تلك المفاوضات مستفيداً من أن الاشتراكيين الفرنسيين برئاسة ليون بلوم هم من كان في سدة الحكم أثناء تلك المفاوضات ما دعا الروس إلى الطلب من خالد بكداش وكان وقتذاك مقيماً في موسكو إلى الذهاب إلى باريس لمواكبة تلك المفاوضات ما أكسب الشيوعيين السوريين وخالد بكداش طبعاً سمعة وطنية وهو ما أتاح لهم بعضاً من حرية التحرك في الداخل السوري ومن ذلك إصدارهم جريدة باسم صوت الشعب منذ عام ١٩٣٧م، بل إنّهم نشطوا سياسياً بمعرفة ورضى رجال العهد الوطني قبل وبعد ذلك دون أن يكون حزبهم مرخصاً رسمياً.

نعمان:

إلّا أن السمة الوطنية لهم انتكست بسبب مشروع تقسيم فلسطين إذ إن موافقة موسكو على هذا المشروع وسط صمت مريب

من خالد بكداش اعتبر وقتئذ انتكاسة لهم ودفع الكثير من أنصارهم إلى الانسحاب من التنظيم بسبب ما عدوه خيانة وطنية وقومية.

نزار:

صحيح، إلّا أنّ ارتباط إسرائيل بالولايات المتحدة ووقوف الاتحاد السوفياتي إلى جانب مطالب العرب في الصراع مع الصهيونية وإسرائيل أعاد إلى الشيوعيين وإلى اليسار عموماً وإلى خالد بكداش خصوصاً سمته الوطنية والعودة إلى توصيف مواقفهم أنها ليست تقدمية فقط بل ووطنية أيضاً. لكن انتكاسة أخرى تعرضوا لها بموقفهم من الوحدة إذ وقف خالد بكداش ضدّ الوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨م وكان مقعده في البرلمان السوري الذي صوت على الوحدة المقعد الوحيد الذي كان شاغراً إذ غادر إلى موسكو مبتعداً عن الصخب والمدّ الجماهيري الذي رافق هذا الحدث ولتعود اتهامات معاداة القومية العربية لتلحق به وبأنصاره. أما عن فوز خالد بكداش في انتخابات عام ١٩٥٤م كأوّل شيوعي عربي يحقق ذلك فلنا أن نعدد بعض العوامل التي ساعدت على ذلك ومنها طبعاً أن الأفكار اليسارية أو التقدمية حسب تعبير تلك الأيام كانت قد أخذت طريقها إلى أوساط السوريين ولا سيّما فئة الشباب، إلّا أنّ ثمّة عوامل أخرى منها أن حكومة سعيد الغزي قد أدارت انتخابات نزيهة وشفافة باعتراف كل الأطراف، ومنها أيضاً أنّه، وللمفارقة، حدث تحالف انتخابي بين خالد العظم وخالد بكداش

ومكمن المفارقة أن العظم مرشح البرجوازية والإقطاعية الدمشقية، أي مرشح الرجعيين حسب أهل اليسار وبكداش مرشح التقدميين، لكنّ الحياة السياسية الطبيعية كثيراً ما تقبل مثل هذه الظواهر، وأخيراً هناك عامل مؤثر آخر وهو أن أصواتاً كردية غير قليلة قد صبت لمصلحة بكداش على اعتباره من أصول كردية، وثمّة من يعتقد أن الشيخ أحمد كفتارو وهو مفتي الجمهورية ومن أصول كردية أيضاً وجّه الأصوات الكردية نحو خالد بكداش وتلك مفارقة أغرب من الأولى أن يوجه رجل دين مريديه لانتخاب زعيم حزب شيوعي.

بقي في الذاكرة عن زيارة موسكو لحضور مهرجان الشباب والطلبة حادثة جديرة أن تذكر، فقد زار موسكو أثناء المهرجان وفد رسمي سوري ضم كلّاً من خالد العظم وفاخر كيالي وبطبيعة الحال كان خالد بكداش الموجود في موسكو مضيفهم والمحتفي بهم على اعتبار أنّه في ميدانه الذي عرفه وألفه على مدى سنوات طوال. ولأنني على صلة ما بالقادمين من دمشق، فقد وجدت أنّه من المناسب أن أزور الوفد في مكان إقامته، وحين هممت بالمغادرة بعد فترة قصيرة لأترك الوفد لمهامه الرسمية أشار إلي فاخر كيالي أن أبقى لأمر لم أتبين سببه إلّا حين جاء من يقول إن خروتشوف الزعيم السوفياتي قادم للسلام على الوفد السوري وكانت مناسبة هامة حينها أن أكون من جملة من صافحهم خروتشوف ولأشهد الزعيم يرفع كأس الفودكا قبل شربه متمنّياً أن يكون انتصاراً للعرب في نهجهم التقدمي وبعده القومي هو (نخب) تلك الكأس وفق العادة المتبعة

برفع الأنخاب، وقد خطر لنا ونحن نسمع هذا الكلام أن المقصود هو النصر على إسرائيل، ولنا أن نتصور اليوم أن تلك الزيارة وذلك النخب يخفيان وراءهما رغبة القيادة السوفياتية في استمالة مسؤولين حكوميين سوريين نحو الجانب السوفياتي في مرحلة كان الصراع فيها على أشدّه على سوريا بين القوى الإقليمية والدولية، ويبدو أن سوريا للعديد من الأسباب كانت وما زالت موضع صراع وتجاذبات القوى والمحاور والدول.

نعمان:

ماذا عن فارس الخوري، أو الأحرى عن قهوة الست أم سهيل.

نزار:

مرة واحدة أتيح لي فيها لقاء فارس الخوري بصحبة والدي حيث استقبلنا بمنزله بحضور زوجته، وكان سبب الزيارة كما أذكر هو استمزاج رأيه بما كان معروضاً من الشيشكلي على والدي وآخرين من الحزب الوطني للمشاركة في حكومة وهو ما تمّت الإشارة إليه في سياق هذه الصفحات. كان على الست أم سهيل أن تعدّ القهوة بعد أن ذكّرها فارس بك أن قهوة (أبو نزار) سادة، لكن القهوة جاءت (حلوة) ما دعا والدي للتنبيه فاعتذرت الست وعادت بفنجان قهوة آخر ليتبين أنّها أيضاً (حلوة)، ولما أدرك المضيف ذلك من هيئة والدي قال: لا تعذب نفسك أم سهيل خالطة القهوة مع السكر مسبقاً

وبالتالي ستحصل على الفنجان نفسه كيفما كان طلبك!. ذكر هذه الحادثة ليس سببه فنجان القهوة وهل هي سادة أم لا، بل الإضاءة على كيف كان يعيش ويتصرف هؤلاء الرجال الذين كانوا شاغلي الرأي العام والصحافة في أيامهم، إذ كانت صاحبة البيت المضيفة هي التي تصنع القهوة وتقدمها للضيوف، هؤلاء كانوا من ظلمهم البعض وسماهم بالرجعيين والإقطاعيين!

نعمان:

وإذا كان فارس الخوري قد أيد المشاركة في حكومة مع الشيشكلي وهو ما أقدم عليه أسعد هارون وكان سبباً لخلاف، ولا نقول لقطيعة، بينه وبين رجال الحزب بعد ذلك إلّا أنّ صبري العسلي لعب فيما بعد دوراً في إعادة اللحمة بين رجال الحزب الوطني ولذلك مواقف أعتقد أنّها ما زالت في الذاكرة.

نزار:

كان صبري العسلي من أصدقاء والدي المقربين وصودف أن التقيته مراراً كثيرة طبعاً سواء مرافقاً لوالدي حيث كنت وقتذاك في فترة الشباب وحديث التخرج في الجامعة، أو منفرداً وفي زيارات عائلية. والواقع أنّها كانت فترة دقيقة وحساسة، أقصد الفترة التي تلت انتخابات عام ١٩٥٤م والتي ترشح فيها أسعد هارون كمستقل ونجح في الانتخابات، على أثر ذلك تشكلت كتلة برلمانية برئاسة خالد العظم ضمت عدداً من نواب دمشق والساحل والجزيرة، أطلق

عليها في بادئ الأمر كتلة العظم- نظام الدين- هارون، وكانت حينئذ أكبر كتلة بالبرلمان ضمت عدداً من نواب دمشق والغوطة والجزيرة والساحل السوري، وقد أطلق عليها هذا الاسم بسبب الأقطاب المشار إليهم أعلاه الذين أسّسوها، وطبعاً هذه التسمية أطلقتها عليها الصحافة آنذاك وخصوصاً جريدة الرأي العام التي كانت قريبة من خالد العظم علماً بأنّ اسم الكتلة تحول بسرعة وبعد أن تحددت أسماء النواب المنضمين إليها، إلى اسم الكتلة الديمقراطية، إلّا أنّ بقاء هذه الكتلة لم يدم طويلاً بالزخم والقوة العددية نفسيهما إذ برز طموح خالد العظم إلى منصب رئاسة الجمهورية ما أدىّ إلى مناقشات مستفيضة لتقييم الوضع واستقر رأي الأكثرية على ترشيح القوتلي وكان أسعد هارون مع هذا الاتجاه. هذا الاتجاه دفع البعض وأوّلهم صبري العسلي إلى السعي لإعادة اللحمة إلى الحزب الوطني من خلال طي صفحة الخلافات التي رافقت مشاركة بعض رجال الحزب في حكومة الشيشكلي؛ بطبيعة الحال كان أسعد هارون يتوق إلى العودة إلى رفاقه القدامى مدفوعاً بالحنين إلى أيام العمل المشترك فكان أن نجحت مساعي صبري العسلي في هذا المجال وليكون العسلي رئيساً للوزارة مع الرئيس القوتلي حيث استمر كلاهما في شغل المنصب حتى توقيع الوحدة مع مصر ذلك الحدث الذي كان مفصلياً في التاريخ السياسي لسوريا.

نعمان:

نختم ذكرياتك عن شخصيات معروفة ومشهورة في تلك الفترة بالحديث عن بدوي الجبل الشاعر الكبير والسياسي وأنا أعرف صداقتك مع البدوي واستمرار هذه الصداقة وحرصك على إبقاء روابط الود والصداقة إلى اليوم مع أسرة البدوي وأسرة الشيخ سليمان الأحمد عموماً.

نزار:

أشد ما يسرني تلك العلاقة العائلية التي ورثتها أباً عن جد والتي أعتز بها دائماً. كما تعلم فإنّ تلك العلاقة قديمة تعود إلى الشيخ سليمان الأحمد وعبد الواحد هارون، علاقة كانت قائمة على التقدير والاحترام المتبادلين لم تشبها شائبة عبر سنوات طوال، ثم ما لبثت هذه العلاقة المميزة أن انتقلت إلى البدوي ووالدي وكان من أثمن ما ورثت عن والدي تلك العلاقة المميزة مع البدوي وسائر أفراد الأسرة. ومن مظاهر تميز تلك العلاقة ترؤس عبد الواحد هارون لجنة تكريم الشيخ سليمان الأحمد عام ١٩٣٨م بمناسبة يوبيله الذهبي، كما أنّ البدوي وقف خطيباً في حفلة تأبين عبد الواحد هارون وهو من أرخ وفاة أسعد هارون أيضاً. إضافة بالطبع إلى الخط الوطني والسياسي العريض الذي جمعهم في أغلب الظروف والذي كانت الكتلة الوطنية بزعامة شكري القوتلي التي ناضلت وحققت الاستقلال إطاره ومرجعيته.

لقد ربطتني شخصياً علاقة وثيقة بالبدوي وأسرته حيث كانت زيارة منزلهم الدمشقي لازمة من لزوميات زياراتي المتعددة لدمشق، ولقد بقيت حرارة تلك العلاقة الشخصية قائمة حتى في الفترات التي أصاب فيها الفتور علاقة أسعد هارون بالبدوي بتأثيرات المواقف السياسية بطبيعة الحال. وأذكر أنّه بعد زواجي زرت وزوجتي اسطنبول والبدوي مقيم فيها، أو منفي إليها ربّما، فكان لا بد من زيارته في مكان إقامته ثم ترافقنا معاً برحلة قطار طويلة إلى فيينا.

نعمان:

بدوي الجبل، برأيي وبرأي آخرين، واحد من كبار شعراء العربية، ومع ذلك فلم تكن شهرته على مدى سنوات توازي تلك الأهمية وربّما يعاد الاعتبار إليه هذه الأيام، هل السبب أنّ السياسة سرقته من الشعر والأدب إلى عالمها المليء بالصراعات والمناورات؟

نزار:

البدوي حظي ولا يزال بسمعة ومكانة كشاعر متفرد وإن كان اشتغاله بالعمل السياسي قد طغى في بعض الأحيان وسرق الأضواء من البدوي الشاعر لمصلحة البدوي السياسي. لكن ثمّة عوامل أخرى يجب أن نعترف بها وهي أنّه في مرحلة من المراحل تمّ حجب الأضواء عنه كشاعر كبير بتأثيرات مواقفه السياسية التي

بمناسبة اجتماعية يظهر في الصورة مجد الدين الجابري، فيصل الأتاسي،
صبري العسلي، د.نضر علي أديب، يحيى علي أديب، وداد علي أديب وأسعد هارون.

ربّما لم تكن ترضي أنظمة الحكم في فترة أو أخرى. ومثال ذلك أنّ البدوي وفي ذروة المدّ الناصري الذي اكتسح الشارع السوري خصوصاً والعربي بوجه عام لم يكن حيادياً فحسب بل معارضاً أيضاً لهذا التيار وله قصيدتان في هجاء عبد الناصر في الوقت الذي كان فيه عبد الناصر يكاد يكون معبود الجماهير العربية.

نعمان:

وهذا يقودنا للحديث عن ميول البدوي الهاشمية التي بقي مخلصاً لها على الرغم مما كان ينسبه بعضهم إلى الهاشميين ولا سيما الفرع العراقي من مواقف سياسية وفكرية، بل إنّه بقي محافظاً على ذلك الميل حتى بعد سقوط عرش بغداد الهاشمي عام ١٩٥٨م بتأثير المد الناصري.

نزار:

صحيح، وعلاقة البدوي بالهاشميين تعود إلى فترة ما عرف بدولة دمشق العربية التي نصب عليها فيصل بن الحسين فبدأت علاقة البدوي بالأسرة الهاشمية من تلك الأيام والبدوي لم يكن قد تجاوز سنوات الصبا. ثم وبانتقال فيصل ليكون على عرش العراق ليخلفه الملك غازي ثم فيصل الثاني استمرت علاقة البدوي المميزة بالأسرة الهاشمية ولقد عبر عنها صراحة بقوله:

هَاشِميُّ الهَوى أَحبَّ فَمَا دَارَى وَعَـادَى عَـلَى هَـوَاه وَعُـودي

وبظني أن البدوي بقي على هذا الهوى رغم تغير الظروف والأحوال.

نعمان:

يأخذ البعض على بدوي الجبل أنّه مال إلى الفرنسيين في وقت من الأوقات وسايرهم في طرحهم تقسيم سوريا إلى دويلات ومنها ما عرف وقتذاك بدولة العلويين أو دولة اللاذقية.

نزار:

لا نريد أن نبرر هذا التصرف وإن كانت عاطفتي تجنح إلى ذلك، مع الإشارة إلى أنّ هذا حدث والبدوي كان لا يزال فتى صغيراً طامحاً، وأفقه لم يكن قد اتسع ليشمل المفهوم الوطني والقومي الكبير مع العلم أنّه عبر عن ندمه مراراً وتكراراً وعوض عن ذلك بمواقف مشهودة محسوبة له هذا من جهة شخصية البدوي، وإذا كنّا نتحدث عن البدوي الشاعر فلا مجال لمثل هذه المآخذ فهو شاعر كبير بغض النظر عن مواقفه التي قد تمليها في بعض الأوقات ظروف وأحوال معينة ولا يجوز رغم اعتقاد البعض بعدم صوابية بعض من تلك المواقف أن يؤثّر ذلك في تقييمنا له كشاعر من كبار شعراء العربية كما أسلفنا. أمّا عندما نتحدث بالسياسة فقط فلنا أن نقول: إنّ ذلك الموقف بفرض صحته لا يجوز أن يحمّل أكثر مما يحتمل فمثل تلك المواقف عرفتها تصرفات ساسة آخرين في دمشق وحلب وغيرهما دون الخوض في الأسماء وهي مواقف وليدة الظروف وفي

صورة تجمع نزار هارون وعقيلته مع الشاعر بدوي الجبل في فيينا عام ١٩٦٢.

فترة لم يكن مفهوم الوطنية السورية قد ترسخ وتجذر عند الجميع، ثم إنّ وقوف بدوي الجبل بعد ذلك في صفّ الكتلة الوطنية ونضاله في سبيل وحدة سوريا واستقلالها، وما لاقاه من الفرنسيين من ملاحقة واعتقال حري بأن يعدّ معه ما سبق موقفاً وقتياً ربّما فرضته الظروف والأحوال. اليوم وبكلّ المقاييس تقييمنا للبدوي يجب أن ينحصر بكونه شاعراً كبيراً ووطنياً كبيراً أيضاً.

نعمان:

أودّ في ختام حديثنا عن شخصيات لعبت دوراً في مرحلة من مراحل سوريا المعاصرة وذكرياتك عن مواقف كنت فيها حاضراً بوجود تلك الشخصيات، وأيضاً عن شخصيات أخرى ورد ذكرها في تلك الصفحات أن أشير إلى أنّ الانطباع الذي قد يستخلصه القارئ عن هذه الشخصيات هو انطباع إيجابي بوجه عام. وربّما يتبادر إلى ذهن البعض تساؤل مفاده:

هل كان هؤلاء على صواب دائماً ولم تشب سلوكهم وتصرفاتهم أية شائبة، وهل هم براء من الأخطاء التي لا يخلو منها إنسان في مسيرة حياته؟.

نزار:

من المؤكد أنّ أيّ إنسان لا يخلو من نقائص وسلبيات في سلوكه سواء في حياته العامة أو الخاصة، ومن تكلّمنا عنهم هم من

جملة هؤلاء البشر الذين يخطئون ويصيبون. لكن حديثنا كان ينصب على الجانب العام لا الشخصي من حياة هؤلاء، الجانب الشخصي (بمعنى أن علاقتهم الخاصة بأفراد أسرهم وسلوكهم في حياتهم الشخصية) لم يكن هو الجانب الذي ركزنا عليه ولا هو يعنينا بحال من الأحوال وربّما كان لهؤلاء من المثالب والنقائص التي يعرفها المقربون منهم وهي كما أسلفنا لا تعنينا بحال من الأحوال.

أيضاً من المؤكّد أنّه في الجانب العام لشخصية هؤلاء ثمّة أخطاء ارتكبت من قبلهم، لكنّها تصنف ضمن دائرتين: الدائرة الأولى هي ما يكون مجال خلاف وجهات نظر، بمعنى ما هو خطأ عند البعض قد يكون صواباً عند آخرين، ولعلنا أشرنا إلى هذا من خلال العديد من الانتقادات التي وجهت إلى كثير منهم في موقف سياسي ما ومنها الانتقادات التي وجّهت إلى أسعد هارون وآخرين بقبولهم المشاركة في حكومة الشيشكلي، أو الانتقادات التي وجّهت إلى آخرين لمعارضتهم الوحدة السورية المصرية وسوى ذلك من مواقف ربّما كانت تعدّ خطأ بل حتى خطيئة في أذهان العامة في فترة من الفترات ثم نجد أنفسنا نعيد النظر في تصنيف تلك المواقف بعد مرور الأيام وتغير الأحوال.

الدائرة الثانية هي ضمن الانتقادات التي تحمل انتهاكاً للقيم الوطنية والأخلاقية العامة كالتآمر مع الخارج ضدّ مصلحة الوطن والرشوة واستغلال النفوذ والسلطة لمنافع شخصية وسرقة المال العام وغير ذلك من انتهاكات أخلاقية لا تتغير النظرة إليها

واستنكارها ونبذها مهما مرت الأيام ومهما حاول البعض أن يجمّل تلك السلوكيات بأسماء لا تنطبق عليها ويبررها بتأثير الظروف والأحوال.

لا شك أنّ بعض هذه الحالات أيضاً كانت موجودة لكنّها بالتأكيد لم تكن ظاهرة عامة ولم أجد من ضرورة للإشارة إلى أمثلة عنها في سياق هذه الصفحات. والواقع والإنصاف يقتضيان أن نقول: إنّ هؤلاء الرجال كانوا نتاج عصرهم، والحقيقة أن ذلك العصر لم يكن من سماته المميزة تلك الانتهاكات الأخلاقية والسلوكية، كما يقتضي الإنصاف أن نضيف أنّ طبيعة العمل السياسي والحرية النسبية للصحافة لا سيّما في فترات الحكم البرلماني أو ما عرف بفترة الحكم الوطني كان يحمل في طياته نوعاً من الرقابة على تصرفات وسلوكيات من هم في سدّة المسؤولية وبالتالي يجعلهم مترددين في مثل تلك التصرفات حتى ولو كانوا مستعدين للقيام بها بدخائل أنفسهم. لكنّ الإنصاف يقتضي القول في المقابل إنّ العديد من هؤلاء الرجال قدّموا في خضم النضال الوطني والعمل العام ليس وقتهم وجهدهم فحسب، بل أيضاً ثرواتهم وأموالهم وملكياتهم وهو ما لم نشر إليه أيضاً في سياق هذه الصفحات.

معدّا الكتاب

نزار هارون

- ولد في اللاذقية عام ١٩٣١، تلقى دراسته في مدارسها وحصل على الثانوية من ثانوية (النهضة الوطنية) ببانياس وكانت مدرسة خاصة جمعت بين طلابها مكونات المجتمع السوري كافة آنذاك. انتسب إلى كلّية الحقوق بجامعة دمشق وتخرج فيها عام ١٩٥٥. عمل بمهنة المحاماة بعد تخرجه ولا يزال. تفتّح وعيه السياسي والعام من خلال مرافقته لوالده السياسي السوري أسعد هارون، أحد أقطاب الحزب الوطني في الساحل ومن خلال تلك المرافقة توطدت علاقته بالكثير من السياسيين السوريين واللبنانيين وورث صداقات والده وعلاقاته بالعديد منهم، كان يد والده اليمنى أثناء الحركة السياسية ضدّ حكم الشيشكلي وما يعرف بمؤتمر حمص والانتخابات التي تمت بعد انتهاء حكم الشيشكلي، وكان وقتذاك في المرحلة النهائية من دراسته الجامعية. كان من المقدر أن يتابع مسيرة والده وعائلته بالانخراط في الحياة السياسية، وكانت الفترة الواعدة في بدايات عهد الوحدة مع مصر مجالاً لذلك إذ ترشح لانتخابات الاتحاد القومي

الذي كان من المفترض أن يكون وسيلة الحركة الناصرية نحو الديمقراطية الشعبية، لكن تلك النظرة تغيرت مع انتهاء الانتخابات، ثم تغيرت بوصلة الحياة السياسية السورية كلّها بدءاً من عام ١٩٦٤. تفرغ نزار هارون بعدها لمهنة المحاماة إضافة إلى انخراطه في العديد من الأنشطة الاجتماعية والثقافية.

- اختير عضواً في مجلس أمناء مؤسسة القدس.
- وقنصلاً فخرياً لمملكة الدنمارك عام منذ ١٩٧٣.
- حاز وسام استحقاق من مملكة الدنمارك برتبة فارس أوّل.
- سجل محامياً متمرناً منذ عام ١٩٥٥.
- انتخب عضواً متمماً بمجلس نقابة المحامين في الستينات.
- يحمل درع التكريم من وزارة العدل ونقابة المحامين عام ٢٠١٠.
- عضو لجنة وضع قانون التجارة البحرية السوري عام ٢٠٠٦.
- رئيس القسم الأول من الاتحاد القومي باللاذقية خلال عهد الوحدة المصرية السورية.
- شارك في العديد من الأنشطة الاجتماعية والثقافية.
- عمل رئيساً لنادي الساحل السوري (نادي حطين حالياً)، ومن ثم رئيساً للجنة المنطقة الرياضية في الساحل السوري خلال الخمسينيات، والتي كانت مسؤولة عن الحركة الرياضية.

نعمان صاري

- ولد في اللاذقية عام ١٩٥٦.
- تخرّج في كلّية الاقتصاد بجامعة دمشق عام ١٩٨٠.
- يهتم بتاريخ سوريا الاقتصادي والسياسي المعاصر.
- له دراسة مطبوعة بعنوان (اقتصاديات النقل البحري) إضافة إلى عددٍ من الدراسات الاقتصادية والسياسية والأدبية المنشورة في الدوريات المطبوعة والإلكترونية.
- شغل منصب معاون المدير العام لشركة مرفأ اللاذقية قبل أن يستقيل من العمل الحكومي، عضو مجلس إدارة سابق لجمعية المحاسبين القانونيين والمؤسسة العامة السورية للنقل البحري وحالياً عضو مجلس إدارة الشركة العامة لمرفأ اللاذقية.

المُلحق الوَثائقي

مفردات الملحق الوثائقي

١. كتاب التعزية الموجه من السيدة سلمى الحفار كزبري إلى عائلة المرحوم أسعد هارون.

٢. خطاب بدوي الجبل بتأبين المرحوم عبدالواحد هارون.

٣. تأريخ بدوي الجبل لوفاة أسعد هارون شعراً وهو منقوش على ضريحه.

٤. تأريخ وفاة عبدالواحد هارون شعراً كما نظمه الشيخ القاضي الشيخ عبداللطيف سعود.

٥. كتاب سفير سوريا في واشنطن فريد زين الدين تاريخ ١٩٥٥/١١/٢٥ لأسعد هارون الذي وجهه كذلك لأصدقاء آخرين للاهتمام بشخصيات أميركية كانت ذات تأثير بالرأي العام الأميركي.

٦. خطاب المحامي نزار هارون بتأبين المحامي الأستاذ حسن مراد رئيس فرع نقابة المحامين في حمص ورئيس الحزب الوطني فيها.

٧. خطاب المحامي نزار هارون ترحيباً بالرئيس جمال عبدالناصر في أول زيارة له إلى اللاذقية.

٨. البرقية الموجهة من وجوه الساحل السوري إلى وزارة الخارجية الفرنسية بطلب الوحدة السورية.

٩. وثيقة الانفصال عن الوحدة التي وقعها السياسيون وقادة الرأي في سوريا. تشير لمرحلة سياسية معينة في سوريا.

١٠. خطاب المحامي نزار هارون بالحفلة التكريمية التي أقامها للقاضي علي غنّام بمناسبة تقاعده.

١١. المعاهدة السورية الفرنسية.

١٢. بيان الوحدة السورية المصرية.

١٣. براءة وسام امية الوطني بتوقيع الرئيس شكري القوتلي.

١٤. وسام ممنوح من قبل الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية للمرحوم أسعد الهارون.

١٥. وسام وشاح النيل ممنوح من الرئيس جمال عبدالناصر إلى المرحوم أسعد هارون.

١٦. قصيدة شاعر العاصي بدر الدين الحامد في الحفل التأبيني لعبد الواحد هارون.

١٧. وسام الجمهورية من الطبقة الأولى منح من الرئيس جمال عبدالناصر إلى المرحوم أسعد هارون.

١٨. أول جريدة تصدر في اللاذقية عام ١٩١٠ لأصحابها السيد محمد مواهب الأزهري وأحمد رشيد الحكيم وبشراكة عبدالواحد هارون.

الوثيقة ١٨/١ | رسالة السيدة سلمى الحفّار الكزبري تعزية بالفقيد أسعد هارون

سلمى الحفار الكزبري
ص.ب : ٣٥٧٠
هاتف ٣٢٩٣٩

رسمه في ١٠ تشرين الأول ١٩٦٨

إلى السيدة الجليلة مريم فقيدنا الغالي العم أسعد هارون وأسرته الكريمة .

مصابكم يا سيدتي مصابنا ، وفجيعتكم هي فجيعتنا ، ودمعة واحدة غالية وجوه أحبتنا النبيلة لو تنيب عنا رسائلهم السامية وأرواحهم الطاهرة ، بل انهم يعقدون احياء خالدة في وجدان هذا الوطن الحبيب الذين بذلوا في سبيل حريته وعزته ورفعته الغالي والنفيس .

عرفت عميدكم الغالي والمناضل الوفي المخلص والمجاهد العظيم أسعد هارون منذ طفولتي ، وعرفته مع خلدك احاديث ابي المغفور له لطفي الحفار عنه ، ومع مراقفه المشرفة وصفاته النبلى ، فعرفت فيه الوطنية الصادقة ، والثقافة العميقة ، وكرم النفس وسمو الخلق . ثم عرفت فيه النائب الحر والوزير المستقيم والسفير المحترم المؤمن بعروبته ، وحامل رسالة الوطن الكبير وكارم الدخلدون . فاسمحي لي ، وليسمح لي أهلي الدمشقيون زملاء واخوتي جميعا وجميع افراد أسرة آل هارون ان أعبر بهذه الكلمات عن أعمق مشاعر الحزن والأسى ، باسمي واسم زوجي نادر وأمي واخوتي ، وعن جميع افراد اسرة واحة في ميدان البذل والجهاد ، وفي ميدان التضحية والوفاء .

كان عمي اسعد هارون صديق أبي ورفيق جهاده ، ودعامة من دعائم بناء صرح وطننا الحبيب الكريم ، ومن لي أن أبكيه معكم ، وحسبي أن اشقيه مثلكم . وهل لنا بعدهما أيتها العزاء ؟ اللهم اني اسألك لهما ولاخوانهما البررة أعلى درجات الجنان ، واسألك ان تلهمنا الصبر الجميل والسير على قبس خطواتهم المباركة .

الوثيقة ١٨/٢ | كلمة الشاعر بدوي الجبل في تأبين عبد الواحد هارون

أيها العزيز الشهيد
لقد كتب الله لك في حياتك أن تكون من المجاهدين ، وكتب الله لك في موتك أن تكون من الشهداء ، فجمع بين مجد الحياة ومجد الموت ، ووهبك الخلود من ناحيتيه الوضيئتين ، ناحية الجهاد وناحية الاستشهاد، وتلقى التاريخ إرادة الله فيك فجلاها على الدنيا صورة رائعة من صور الإيمان ومشهداً قدسيا كسمو الإنسان.
لقد تفتحت عيناك في هذه الدنيا على نورين ، نور هذه الشمس الطالعة ، ونور الأمجاد العربية الرائعة، فملأت عينيك من الأولى بالضياء ، وأترعت تلك من الثانية بالكبرياء،وسلكت طريق الحياة وفي عينيك نور يجلو ظلمة الليل ، وفي قلبك نور يجلو ظلمة الاستعباد ، ورضي الله عنك أن حياة الأحرار يرافقها في هذه الدنيا نور لين ناعم ينساب في حنايا الروح انسيابا رقيقا رفيقا فيؤنس القلب ولا يؤذي العين، ويتمرد على كل ظلمات الدنيا حتى على ظلمات السجون ، وحتى على ظلمات المنون.
وفتنك هذا التاريخ العربي الريان بالبطولات والملاحم، النديان بنسيم الصحراء والليالي المقمرة البليلة وطوف بك هذا التاريخ في مشارق الدنيا ومغاربها ، وجلا أمام عينيك أمجاد أمية في الأندلس والشام ، و أعراس العباسيين في القاهرة وبغداد ، وملاحم الفتح العربي في الصين والهند ، وارك خالداً في اليرموك وسعداً في القادسية وطوى التاريخ بك الزمن طيا عنيفاً متلاحقاً فملأ عينك وقلبك من نور محمد و أصحاب محمد ، وغمرتك موجة لينة ناعمة من الحب والحنين والإيمان ، وحلفت لمحمد ورب محمد أن تعطي نفسك لهذه الأمة السورية النبيلة ،وان تسكنها جوانحك بين أغلى اللبانات و أمتن الشمائل ، و أن لا تطرب إلا لألحانها ، ولا تأسى إلا لإشجانها ، وأن لا يمتلك هواك بين ألوان المجد و أنواعه إلا مجد هذه الصحراء العربية ، المجد،الأسمر لوحته شمس عنيفة قاسية ورمت به الدنيا فشرق وغرب وزحم أمجاد الأكاسرة والقياصرة فزاحت من طريقه وغبطتها الزحمة الكبرى.، وبقي وحده في حشر الأمم لواء مرفوعا يستمد لونه وشمائله من هذه الرمال الكابية ، وعواطفها العاتية ، وشمسها العارية ، وتلفتت الشمس إلى هذا المجد العربي الأسمر مزهوة فخورة ، وبين هذه السمرة المحببة وبين الشمس نسب كريم وود قديم .

الوثيقة ١٨/٢ ـ تابع

لقد أحببت الحرية حب القوي الغالب لا حب الضعيف المغلوب فما في وسع النفوس المتخلفة أن تتفتح للحرية ، ولا أن تتسع لمباهجها و أفراحها ولا أن تتحمل كل هذا الفيض الريان من النور المتوهج المحرق.
والحرية- رضي الله عنك- لا تألف القلوب الجازعة ، ولا تطمئن للنفوس الوادعة ولكنها تنزل على الإباء ، وتغفو على هدهدة الكبرياء ولطالما تنكرت الدنيا للحرية وضاقت بها المدن والقصور ، ففرت بنفسها إلى هذه الجزيرة واطمأنت إلى خشونة رمالها ، حتى لقد أصبحت قطعة من كيان هذه الرمال ، فلا وأبيك ما ذكر السراب والهجير والكثيب والغدير ونار القرى ونار الوغى إلا ذكرت الحرية معها لأنهى جميعاً بنيات مدلات لهذه الصحراء العربية الرؤوم.
ومن تاريخ قومك وشمائلهم ومن أريحية هذه الشمائل وكبريائها ، بنيت زعامتك الثرية القومية و أوى إلى جناحها هذا الساحل كما تأوي الحمائم الساجية إلى الدوحة العالية في العاصفة العاتية ، وهنا هذا الجناح الرحيم على الساحل الكليم فتلقى عنه صدمات الدهر ورد عنه زماجر العاصفة وتحمل عنه جراح السياسة و أحزان العقيدة ولا والله ما ظفر الدهر بدمعة واحدة من عينيك ولا اهتدى الشامتون إلى سر تلك الابتسامة في شفتيك ، زعامة ورثتها من جدودك الأقدمين ، وآبائك الأكرمين ، وتورثها بنيك الميامين ، فهي زعامة أصيلة ، تم ميزتها بشمائل أحلى من المنى و أصفى من الندى ، فهي زعامة نبيلة ، تم حليتها بالطبع السري والحديث الشهي ، فهي زعامة جميلة ،وكملت فيك الزعامة فما غاب عنك لون من ألوانها ، ولا خفق ركن من أركانها ،و أتم الله نعمته عليك بالشهادة فعمت لك في الدنيا وفي الآخرة السعادة.

(جريدة الخبر- العدد /٢٢٤/ تاريخ ١٣/٤/١٩٤٤)

الوثيقة ١٨/٣ | **أبيات للشاعر بدوي الجبل**
بتأريخ وفاة أسعد هارون والأبيات منقوشة على ضريحه

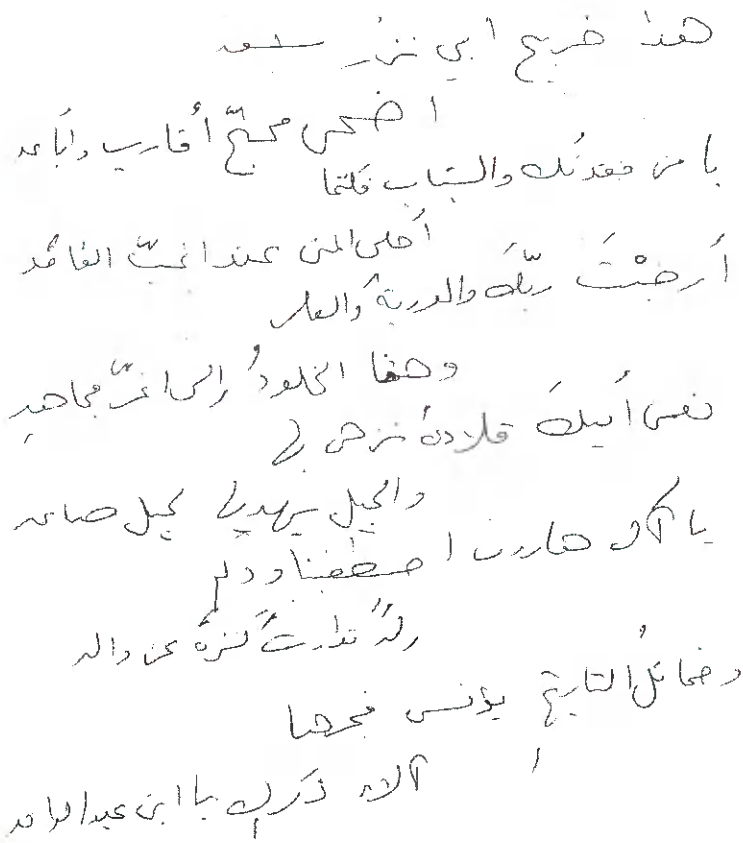

الوثيقة ١٨/٤ | **أبيات القاضي الشيخ عبد اللطيف مسعود بتأريخ وفاة وفاة عبد الواحد هارون**

سُقيا لرمسٍ سوت فيه الشمامة
والعلياءُ من صيّنبٍ بالعرفِ هطال

فإنَّ تُربةَ عبد الواحد اشتملت
على شويخٍ عظيم القدر مفضال

من آل هارون أسيادِ البلاد بلا
مُنازعٍ منذ أحقابٍ وآجيال

فآلُ هارونَ هم فيما يُحدثنا
مجيد تاريخهم مناهيرة الآل

الوثيقة ١٨/٥ | رسالة فريد زين الدين «سفير سوريا في واشنطن» إلى أسعد هارون، والتوصية بخط اليد (اهتم بصاحبنا) تشير إلى اهتمام المسؤولين باستمالة الرأي العام الأميركي إلى جانب القضايا العربية

EMBASSY OF SYRIA
WASHINGTON

اخـــي العزيـــز

تحـية طـــيبة ،

اود ان اقدم لكم المستر "دوجلاس ويتلوك" Mr. Whitlock من علية القوم وكبار المحامين في واشنطن وذوي الشأن والعلاقات الكثيرة في وسطها السياسي . وله صلات حسنة وثيقة بالبيت الابيض ونائب الرئيس وبعدد من الشيوخ والنواب والسلك الخارجي . وهو يعاوننا معاونة مجدية في خدمة قضايانا .

ويقوم الان مع زوجته ، التي لها شأنها بين سيدات واشنطن ، برحلة الى البلاد العربية حتى يتعرف اليها والى رجالها .

وقد حرصت ان يتيسر له الاجتماع بكم ليرى في الامور رايكم . ولا اشك انه سيحظى منكم بحسن الوفادة واللطف المعهودين .

واني لارجو ان تكونوا دائما على ما اتمناه لكم صحة وتوفيقا واقبالا .

فريد زين الدين

واشنطن في ٢٥ تشرين ثاني ١٩٥٥

حبيبي حضرة صديقي اهتم بصاحبنا
فريد

الوثيقة ١٨/٦ | كلمة المحامي نزار هارون التي ألقاها في حفل تأبين المرحوم (حسن مراد) رئيس الحزب الوطني في حمص ورئيس فرع نقابة المحامين فيها

أيها الحفل الكريم

لا أستطيع مهما أوتيت من براعة، وفصاحة، وبيان ، أن أصور بدقة حرقة الألم الممض التي استعرت لاهبة في مكنونات صدري عندما تلقيت بعد فترة وجيزة من قضاء الله نبأ الفاجعة بفقيدنا الغالي .

كل ما أذكر حتى الآن أن هول الصدمة الفجاءة هز كياني وعقل لساني وجفف دمعة غالية في مقلتي ، وحبس في أعماقي فيضاً متفجراً من اللوعة .....وليس اشق على النفس من الألم يتفتق ويحرق ويجيش وهو حبيس.

كل ذلك لا لأن قضاء الله قد حم ، فإنا لله جميعاً و إليه راجعون ، ولا لأن وشائج صادقة الغرض ، متينة العرى ، كانت تشدني باستمرار إلى فقيدنا الغالي إبان حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، تطلق العنان لدمعي مدراراً وتطوق نمتي بكلمة حق أقولها....لا اوجب منها في هذا المعرض ولا أحق.

لا لهذا كله و أيم الله أردت أن ابكيه ويبكيه معي كل من عرفوا فضله وكرموا قدره بل لأنه قبل ذلك ،فرع زاهر نضير من تلك الدوحة الباسقة الفينانة التي امتدت جذورها عند الغلس إلى ضمير امتنا تستكن فيه وتستمد منه القوة والهدى والعزم ، فتورف على ضفاف بردى والعاصي وشطآن الرافدين والنيل ، وتورف على وهج الرمال السمر اللاهبة في الصحراء العربية، وتمرع عند ملاعب الموج في الساحل الخصيب ، وتشق عنان السماء أنفة وكبرياء على قنن جبالنا الشم في مشارق التراب الغربي ومغاربه.

ولكن استحق أن نبكيه والألم يعتصرنا عصراً، والزهو به يملؤنا خيلاناً وكبراً ، فليس لأنه كان نموذج المروءة والرجولة والوفاء فحسب.....وكان مثال الحلم ...والكرم....والجرأة..والسماحة....والفصاحة....إلى أوفى ما يتحلى به الرجل من

-١-

الوثيقة ١٨/٦ ـ تابع

سجايا وخصال ، بل لأنه مع هذه الخلال الرفيعة ،كان فرنداً يعربياً من تلك السيوف الوطنية الحقيقية التي عاشت الآم المخاض و أبصارها الجرينة مشدودة إلى الوطن تتحدى ولا ترف ، عبر طريق شائكة وعرة المسالك، لا يثيرها إلا وهج المعارك التي لا تفتر ، ولا تدل عليها إلا منارات الشهادة يزرعها سيف بعد سيف ، وإلا بعتادها و إصرارها ، وصدى عزيمتها و إخلاص نواياها أن تفتح لهذا الوطن فجر الحرية ، وهي تقذف إلى غير رجعة قوى المستعمر الدخيل ثم تنكب بعد ذلك لتبني صرح الاستقلال ، ثابت الدعائم متين الأركان، تشيده لبنة لبنة ،شامخاً سامقاً مجرداً.

أجل إن فقيدنا الغالي بالخلق الذي ندر قرينه صدقاً ووفاءً،وصلابة وتحرراً...وباللسان الزرب الذي طالما هز المنابر وانتصر لدعوة الحق.

وبالعمق الذي اتسم به فكره.

وبالبعد الذي اتصف به نظره،مع وضوح الرؤيا و إخلاص في العزم وتنزه عن الغاية والهوى ، بمثل أصدق تمثيل ،بعلوية الناسك الزاهد وتواضعه، وصفاء إيمانه ونقاوة طهره،لذلك النفر من الرجال الأشاوس الذين نذروا أنفسهم لله والوطن والمجتمع، وصدقوا العهد ووفوا بالوعد.

ولئن كان جلهم قد قضى ولم أنل شرف الوقوف بإجلال أمام جدثهم الطاهر لأ فيهم بعض ما لهم....و مآلهم كثير .....نفثه رثاء حرى، وبوح فؤاد كليم، وزفرة كبد جريح فقد ادخر صدري لهم كل ما أقوله اليوم فيك ، إذ لا ينبغي أن يسدل النسيان عليهم شجفاً وستراً ، وينكر الزمان لهم جهاداً وفكراً...لأنهم في الحقيقة رواد الطليعة الأولى .....وقادتها وجنودها.

ورايتها وبنودها.....ونارها ونورها ووقودها

فعلى صليل سيوفهم زغردت أهازيج الحرية في أرجاء وطننا العربي الكبير ومن أوار معاركهم تأججت نار الحرية ، تلهب النفوس وترص الصفوف وعلى هدى مسيرتهم شقت جماهير أمتنا طريقها إلى الفجر.

-٢-

الوثيقة ١٨/٦ ـ تابع

حق الوطن ووفاؤنا له ولك أيها الفقيد الغالي أن نذرف دمعة عصية حرى في يوم ذكراك ولا أقول وداعك لأنك بما تمثله وما ترمز إليه تعيش في كياننا وتملأ نفوسنا وتشحذ هممنا توقاً إلى المزيد من رفعة الوطن.

وشوقاً إلى البذل والتضحية والفداء في سبيله

و نضالاً من أجل تحرير الحق في أرضنا السليب

وكفاحاً من أجل وحدة أمتنا ورخاء مجتمعنا العربي الكبير

حقك أن نقف في يوم ذكراك ،خاشعين،رهبة، وخشية، واحتراماً....وكأني من هنا و أنت مسجى في رمسك ،استشف في البعيد البعيد ،أبواب السماء وقد شرعت لاستقبالك يتدافع علينا بالمناكب،زحف عزيز كريم،يسير في مقدمته متهللاً،مستبشراً ،صفيك ورفيق جهادك أسعد هارون تحف به ملائكة الرحمة،ينثرون رياح الجنة وطيوبها،ويزفونك على بساط من سندس وإستبرق ،في عرس لا أروع ولا أجمع.

(وكأني من هنا أيضاً ، أراك وسط الزحام ، زحام الورود والأقاحي والرياحين في ألوان شتى لم تكتحل بها من قبل عين شر ،قبلة الانظار والإبصار تمتد إليك سائلة ،مستفهمة،مستفسرة،كيف الدار و أهلوها .....وكيف ذووها وبنوها... أما زالوا يترسمون الطريق الحق ،لا يبدلون ولا يستبدلون، أوفى ما يكونون للوطن حماة و أرعى له ذماماً و ادعى للبذل والفداء في سبيله ،كلما غلى البذل وعز الفداء)

"و لن أفيض...فإن غيابك بمثابة القطرة انسكبت على كأس دهاق،تثير اللواعج لوعة وحرقة و أسى"

ولعل عجز اللسان هنا..... أبلغ من البلاغة و أفصح من البيان

فتحية لك من شغاف القلب ، تحية إجلال و إكبار ....وضراعة إلى الله أن يمطرك وابلاً من شآبيب الرحمة والمغفرة والرضوان.

فطوبى لك بين الأخيار الأبرار في عليين

مؤمناً في قافلة المؤمنين

مجاهداً في صفوف المجاهدين

خالداً على مر الحقب والنوب إلى يوم الدين .

-٣-

الوثيقة ١٨/٧ | **كلمة المحامي نزار هارون**
التي ألقاها باسم الاتحاد القومي أمام الرئيس عبد الناصر
عند زيارته إلى محافظة اللاذقية بتاريخ (١٤/ ١٠/ ١٩٦٠)

(١) منك بالشعب الجديد
وقائد الشعب الجديد
بالمارد الذي بالعزم
بالبطل الشديد
بالناهض الجبار يقهر
كل جبار عنيد
وسجدت للتاريخ تكتبه
العروبة من جديد
سيادة الرئيس القائد البطل
أيها الدفعة المؤمنون
بهم الاتحاد القومي الذي يمثل الشعب،
بهم محافظة اللاذقية بمثل المجاهدة المناضلة بهم
أبناء القدس والنضال الذين حملوا هذا الشعب
إلى بيته على رأس الأيام. بهم القيادة الرشيدة المؤمنة
التي قدتموها يا سيادة الرئيس في طريق العزة والمجد والوحدة
والسؤدد، بهم الجيل الذي قاد النضال الوطني والشباب
الناهض من جنوده وفدائيه، بهم أبطال يسلمون البرنامج ويوسعون
بهم هذه الشهداء، شهداء الوطنية والحرية والفداء، الذين قضوا
في سبيل استقلال هذا الوطن. بهم جنود القومية العربية الذين
عملوا في سبيل وحدتها، بهم العزة وأكباره ترحب بكم هذه الجموع
المحتشدة، مخلصة صادقة مؤمنة، مؤمنة بمبادئكم الخيرة

الوثيقة ١٨/٧ ـ تابع

مؤمنة بعدالتكم العدلية مؤمنة بحكمتكم وبراعتكم وحماستكم. هذه الصفات التي عرفت بها العرب في الندوة الدولية الكبيرة لتجاوب صدى الحق عاليا وأعلنت الضمائر الحية منفذة لنداء الانسانية العادل.

وإن كان التاريخ يعيد نفسه يا سيادة الرئيس. فإن يكتب التاريخ فيما بعد أن اللورد بيفربروك وصلاح الدين وفيصل، في جمال العرب وقادة الزمن

واليوم مثل الأمس

والتاريخ يكتب من جديد

قم يا صلاح الدين

فيصل قم يا ابن الوليد

قم يا جمال فانت كل

المجد في كل البلاد

الوثيقة ١٨/٨ | **برقية الوحدويين في دولة العلويين**
محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية ـ سوريا/ لبنان ـ مجلد ٤٩٢/٤٩٣
العنوان: برقية المطالبين بالوحدة مع سوريا في منطقة العلويين مرسلة من اللاذقية في الثاني من يوليو ـ تموز ـ ١٩٣٦

معالي وزير الخارجية- باريس

جئناكم وقد نفذ صبرنا نشكو سياسة التفرقة المشؤومة التي ما زال يسير عليها ممثلو فرنسا في حكومة اللاذقية حتى يومنا هذا .

إن أغلب هؤلاء الموظفين الموجودين في بلادنا منذ سنوات عديدة ،يستخدمون سلطاتهم المطلقة لمحاربة كل فكرة للتوحيد بين سكان البلد الواحد .وهم لا يفتأون بمختلف الوسائل ،تغرير القلة من المنتفعين حولهم الذين جمعوهم حولهم للمطالبة بالإبقاء على الوضع الراهن ولا غاية لهم سوى ضمان الإستمرار في مراكزهم،وتأمين مصالحهم الخاصة حتى لو كان ذلك على حساب بلادهم ، والبلد الذي دعوا لخدمته(فرنسا)

ويبدو أنهم في الآونة الأخيرة قد تفتق ذهنهم عن وسيلة جديدة للوصول إلى غايتهم:

فبمقابل البيان المتحرر الصادر عن مجلس الوزراء الفرنسي الجديد والمتعلق بتحقيق استقلال سورية ووحدتها أخذوا يستنفرون أنصارهم ووقعوا على عرائض جديدة تشير بصورة غير مباشرة ، وإن كان لا لبس فيها،إلى إبقاء حكومة اللاذقية على نظامها الحالي .

وبالرغم من التكتم الشديد التي تحيط به تحركاتها الحكومة الحالية،الممثلة منذ اثني عشر عاما بالسيد شوفلير والكابتن فيلليو ضابط الاستخبارات،فقد أمكننا الكشف عن نوايا أنصار الحكم الذاتي الذين سيتذرعون بحجج ووقائع غريبة لتبرير مطالبتهم بالانفصال عن سوريا.

ويبدو أن هؤلاء قد ادعوا أن العلويين ليسوا مسلمين وليسوا عرب ،وأنهم يفضلون الوحدة مع لبنان على الوحدة مع لسوريا .

ومن السهولة بمكان إثبات بطلان مثل هذه المزاعم التي ابتدعها لخدمة مآربه الشخصية ممن سيقضي زوال الوضع الحالي على طموحاتهم.

فلو كانت حقيقة الوضع على ما يصوره هؤلاء فكيف يمكن تفسير تواجد أكبر الزعماء ورجال الدين العلويين في صفوفنا والذين يمثلون باعتراف الجميع الأكثرية الساحقة من مواطنيهم المقيمين في حكومة اللاذقية ومن بين هؤلاء جابر أفندي عباس حامل وسام جوقة الشرف الذي يشهد كل المندوبين الساميين الذين عينوا في سوريا أنه يمثل أكبر مرجعية دينية وابنه السيد منير العباس النائب في البرلمان والآخرون من الرؤساء الدينيين والدنيويين من نواب حاليين وسابقين و جميعهم يحتج بعزم على الإدعاءات العارية عن الصحة التي أطلقها البعض من مواطنيهم بدون وازع أو ضمير ربما من دون أن يفقهوا ما وقعوا عليه من عرائض تتنكر

الوثيقة ١٨/٨ ـ تابع

لحقيقة كونهم مسلمين ولوطنهم ولأصلهم بهدف تأمين المصالح والامتيازات الزائلة التي يلوح بها لهم الحكام ونوابهم المطلقي الصلاحيات.

الجميع هنا من فرنسيين وسوريين مقتنعون بقرارة أنفسهم من عدم انضمام إقليمنا إلى لبنان وهو المرتبط منذ الأزل بسوريا ، ويشكل جزءا لا يتجزأ منها ولم ينفصل عنها بإرادة سكانه بل بالإرادة السياسية لحكامه الفرنسيين الذين لا يخدمون بذلك مصالح فرنسا نفسها إما عن جهل وإما سعيا وراء أطماعهم.

إن هذه النزهات الجديدة لا ترمي سوى إلى التشويش على جو المباحثات السورية-الفرنسية وتأخير اختتامها بأمل الحفاظ على أكبر وقت ممكن على النظام الحالي ،إلى ما بعد الثاني عشر ، ومعه على نزوات شوفلير الديكتاتورية وعلى مكر واستبداد الكابتن فوبلليو.

نعتبر أن مثل هذه المناورات التي تفصح عن حقيقتها بنفسها سوف تعمل الحكومة الفرنسية على وضع حد لها لمصلحة فرنسا ولمصلحة بلدنا أيضا الذي تكبد خسائر مادية وعنوية جسيمة .

إن هذه الإيحاءات ذات مغالطة صريحة لكل الحقائق التاريخية واللغوية والدينية التي تؤكد جميعها أن إقليمنا لم يكن يوما يشكل وحدة منفصلة عن سوريا

يجابهوننا بحجة أن سكان الإقليم علويو المذهب ،فمن جهة لا يمكن اعتبار الديانات كقاعدة لتكوين الشعوب ،ومن جهة ثانية فالعلويون مسلمون كما أن الإغريق أرثوذكس والبروتستانت مسيحيون.

أقلم يوجد في المدن السورية أعدادا كبيرة من أتباع الديانات التي تمارس شعائرها في هذا البلد ؟ ولماذا تبقى القرى العلوية المجاورة لهذه المدن الداخلية السورية ؟

ولماذا لا يفكر المسيحيون المجتمعون في بعض المناطق في طلب الإنضمام إلى لبنان ؟

واين في العالم كله البلد الذي يتبع سكانه دون استثناء مذهبا واحدا؟

هذا وإننا نسجل بكل أسف أن سياسة الموظفين الفرنسيين في سوريا عامة وبمنطقتنا خاصة لم تكن يوما ملائمة لرغبات الشعب ولا لمصلحة فرنسا نفسها.

أخيرا إننا على ثقة أن الأحداث أثبتت بما فيه الكفاية أن الوفد السوري الموجود حاليا في باريس يمثل رأي وآمال الغالبية العظمى من سكان سوريا ،تلك الأكثرية التي سوف تبلغ الإجماع حالما تتوقف السلطات الفرنسية عندنا من أن تتلاعب بمسار الأمور.

فلتتفضل فرنسا وتقتنع أن تبادل العلاقات بإخلاص مع سوريا سوف يكسبها صداقة كل السوريين على أمل أن تحقوا رغبات الأكثرية الساحقة من سكان بلاد العلويين وفق ما عبر عنها مندوبنا في باريس ، تفضلوا يا معالي الوزير بتقبل خالص تحياتنا واحترامنا.

اللاذقية في الثاني من تموز ١٩٣٦

الوثيقة ١٨/٨ ـ تابع

الموقعون:

علي محمد كامل – علوي نائب سابق حامد المحمد- نائب علوي.

منير العباس-علوي -محامي ونائب علي رسلان- علوي -زعيم عشيرة الرسالنة.

علي شهاب -علوي زعيم عشيرة الحيدرية. اسماعيل هواش- علوي- زعيم عشيرة المتاورة

أحمد ديب الخير- علوي- نائب اللاذقية. عزيز طاهر الموعي – علوي- زعيم عشيرة النواصرة.

محمد إسبر -علوي- زعيم عشيرة القراحلة. علي سليمان الأحمد- علوي- عضو بالجمعية التأسيسية.

نديم عزيز اسماعيل- علوي- زعيم عشيرة الكلبية . الشيخ صالح العلي- علوي- زعيم ثورة١٩١٩-١٩٢١

إبراهيم مصطفى جابر -زعيم علوي. راشد العمر- علوي-زعيم عشيرة الشماسنة.

يونس اسماعيل -علوي- زعيم عشيرة الحدادين.

مجد الدين أزهري- سني-نائب اللاذقية رئيس غرفة التجارة والصناعة والزراعة.

عبد الواحد هارون-سني-نائب سابق في البرلمان العثماني. محمود عبد الرزاق - سني- نائب.

فايز الياس-مسيحي- نقيب المحامين. عبد القادر شريتح- سني -نائب سابق- الرئيس السابق لغرفة التجارة.

أسعد هارون- سني- زعيم الشباب الوطني. حليم بشور -مسيحي- محامي.

محمد علي-علوي-محامي عبد اللطيف يونس- شيخ علوي.

سليمان فايد-علوي من الأعيان جميل عثمان- علوي -مهندس.

شوكت العباس-علوي- محامي. عبد الله عبد الله – علوي- محامي.

محمد ياسين عبد اللطيف- شيخ علوي. عبد اللطيف مرهج- شيخ علوي.

رضا عباس -زعيم علوي.ا لدكتور وجيه محي الدين- طبيب علوي.

أحمد فايز -علوي- شيخ. حسن ضحية- شيخ علوي.

اسماعيل يوسف- شيخ علوي. محمد رمضان- شيخ علوي.

صالح ناصر الحكيم- زعيم عشيرة الخياطين. محمد محيي الدين- شيخ علوي.

عبد الكريم عمران- شيخ علوي. جابر مرهج- شيخ علوي.

علي محمد سليمان- شيخ علوي. محسن حرفوش- علوي-قاضي شرعي سابق.

سعيد محمد سعيد -شيخ علوي. غانم جفار- شيخ علوي.

الوثيقة ١٨/٨ ـ تابع

يونس حمدان- زعيم علوي. محمد حسن – شيخ علوي.

كامل محيي الدين- شيخ علوي. صالح ناصر زوبار-شيخ علوي.

علي عبد الحق-شيخ علوي كامل الحاج -شيخ علوي

غانم يوسف شيخ علوي محمود القاضي-شيخ علوي

نصر يوسف خدام-شيخ علوي يوسف خدام-شيخ علوي

يونس علي-شيخ علوي عبد الحميد صالح يونس-شيخ علوي

شيبان حامد-شيخ علوي داود كالوري-شيخ علوي

سليمان غانم-شيخ علوي أحمد يوسف-شيخ علوي

د.ميخائيل بشور -مسيحي عضو سابق بالجمعية التأسيسية. د.اسكندر بشور-مسيحي ،طبيب.

نقولا بشور- مسيحي -عضو سابق للمجلس الإتحادي لدول سوريا .إسبر بشور - مسيحي. عزيز أيوب عرنوق – من الأعيان الأرثوذكس. توفيق عرنوق -من الأعيان الأرثوذكس

. اسبر طيار – من الأعيان المسيحيين. رفيق بيطار- محامي -من الأعيان المسيحيين.

زاهي عرنوق- من الأعيان الأرثوذكس. إبراهيم خوري-من الأعيان الكاثوليك.

الأب يوسف بطرس -اسقف ماروني. الأب اسطفان سابا -اسقف ماروني.

سليمان شدياق من الأعيان -ماروني. عبد الله روفائيل -من الأعيان -ماروني.

الأب موسى ديب من الأعيان ماروني باخوس عركوش -من الأعيان- ماروني.

الوثيقة ١٨/٩ | وثيقة الانفصال

بيان الى الشعب العربي في سوريا ومصر وفي جميع الاقطار العربية:

"عقد في دمشق اجتماع ضم عددا من العاملين في الشؤون القومية استعرضوا فيه الوضع العربي العام والوضع السوري الخاص والحالة الدولية بعد قيام الجيش العربي الأبي في سوريا بعمله المجيد، فأجمع الرأي على تأييد القوات المسلحة السورية في ثورتها المباركة وعلى توجيه الشكر إليها، ضباطا وضباط صف وجنودا. كما اجمع الرأي على أن حكم الطغيان والتسلط والانحراف الذي اقامه الرئيس جمال عبد الناصر في كل من سوريا ومصر هو الذي أفقد الوحدة بينهما معانيها السامية، فأبعدها عن أن تكون نواة للوحدة العربية الشاملة الصحيحة التي أمن بها ويثوق إليها كل عربي والتي لا تقوم الا على المساواة والتكافؤ بين البلاد العربية.

كذلك أجمع الرأي على ان هذا الحكم الذي استهدف تشويه فكرة القومية العربية والوحدة العربية وخنق الحياة السياسية والديموقراطية ووأد الحريات العامة بالرغم عما بذل من نصح وتنبيه وتحذير هو الذي دفع الى ثورة الجيش العربي في سوريا تلبية لنقمة الشعب واستجابة لإرادته بإقامة حياة ديمقراطية دستورية حرة يمارس فيها سيادته ويتمتع بحرياته العامة في التنظيم السياسي والنقابي والاجتماعي.

ويرى المجتمعون، تحقيقا لذلك، ضرورة الاسراع بإجراء انتخابات حيادية حرة، وان يقتصر التشريع خلال الفترة الانتقالية على ما تقتضيه هذه الفترة لتسيير الامور. وان الشعب العربي في سوريا الذي دفعت عنه ثورة الجيش القومية التسلط والطغيان، يمد يده الى الشعب العربي الشقيق في مصر الراسف في الاغلال ليتخلص من الحكم الديكتاتوري الذي أوجد التفرقة بين مصر وسوريا حتى يلتقي الشعب العربي في القطرين وفي كل قطر عربي على صعيد العمل المجدي وبلوغ الوحدة العربية المنشودة.

ويدعو الشعب العربي في سوريا الأمة العربية في جميع أقطارها الى ان تتبين موقفه وان تدرك أهدافه القومية السليمة في اقامة حكم دستوري ديموقراطي صحيح يكفل للشعب سيادته وممارسة حرياته ويحقق الديمقراطية السياسية والاجتماعية والاشتراكية الصحيحة والوحدة العربية الشاملة.

دمشق في ٢-١٠-١٩٦١

التواقيع حسب الحروف الابجدية:

أحمد قنبر، احمد الشرباتي، اسعد هارون، اكرم الحوراني، بشير العظمة، حامد الخوجا، حسن مراد، خالد العظم، رشاد جبري، سهيل

خوري، صبري العسلي، صلاح البيطار، فؤاد قدري، محمد العايش، نجيب الأرمنازي، هاني السباعي.

الوثيقة ١٠/١٨ | كلمة المحامي نزار هارون خلال حفل أقامه تكريماً للقاضي علي غنام بمناسبة تقاعده

سيدي الاخ الكبير الاستاذ علي

سيداتي وسادتي

جميلة هذه الامسية من امسيات التواد والتواصل والتلاقي .

وجميله هذه الامسية ايضا ، وهي تزين بهذا الوجود الكريم النضرة الطائحة بالبشر المشرقة بالبهجة والعرفان .

ويزيد هذا الجمال روعة وبهاء والقاء المناسبة الطيبة التي تلم شملنا اليوم في جميع مضمخ بارج المحبة عبق بشذى المودة محافل باسمى المعاني الانسانية مما لارفعتها ولاوضع ولازكى منها ولاندى .

في غمرة هذه النشوة العرمة تشيعنا احاسيس تعمر الكيان وتهز الجنان ، تعيد لي الذاكرة شريط الزمن ثلاثين عاما الى الوراء ، وتتابع لي الصور والوقائع والاحداث من جديد كأنها الآن لم يعتورها البلى ولم يعفرها غبار الايام كنت قد تخرجت حديثا من كلية الحقوق وبدأت حياتي المهنية محاميا متمرنا على اول الطريق وشرعت متهيبا اتعرف بقضاتنا الافاضل وبالزملاء الكرام من المحامين وكان عددهم جسيما غير وفير وان كانوا كانة والحق يقال يغنون السامع علما وفكرا واثرا وذكرا .

في تلك الفترة من تاريخ القضاء كان الاخ الكبير المحتفى به قاضيا للصلح في اللاذقية رجلا في عنفوان الشباب حسن السمت في وقار ، طلق المحيا في دماثة ، تقف امامه فتأخذك الرهبة والوداعة ، ويأسرك طيف ابتسامة عذبة ينم عن روح صافية شفافة لايشوبها زيغ وتطرق واياه اطراف النقاش فتجد نفسك عند فكر ثاقب نير ، وافق واسع رحب متفتح وهما ثقافة غزيرة عميقة الغور رفيعة المستوى وخلق متين ساهق الذرى يملك تقفوطمأنينة ويشعرك بصدق الايمان فيما يدعو وشدة الاخلاص فيما يعمل ، وعنف الجرأة على نصرة الحق فيما يقدم .

وكان لابد لهذا السلوك النبيل من ان يتفاعل مع الخصال الحميدة والخلال الفاضلة التي تتحلى بها جمهرة القضاة والمحامين ، تفاعلا خلاقا خلف الكثير من التضافر المفروض للبحث عن الحقيقة واماطة اللثام عنها والانتصار لشرعة الحق .

ولقد ظل استاذنا الكريم حتى آخر عهده بولاية القضاء ثابتا على طريق العدالة والحق والقانون ، عف اللسان والوجدان ، عف الفكر والنفس يعالن بالمخالفة مستظلا براية الصدق ، ويجاهر بالتهمة ويسعى الى اثباتها بالمنطق الفصيل حتى اذا استدعى الموقف الحق الانفراد بالرأي انفرد وهيأ من عصارة فكره وقوة ايمانه واصالة محبته السند الذي لايني والدليل الحاسم الذي لايهن .

الوثيقة ١٠/١٨ ـ تابع

حياك الله ايها الاخ الفاضل العزيز وهذه الصفوة الطيبة من الاحباء الصديقين الذين يتحلقون اليوم من حولك في هالة ساطعة مفخورين بك وبما قدمت معتزين بالقيم العالية التي حملت عيونهم معلقة ببصرك والبابهم مشدودة الى بصيرتك وقلوبهم دافقة بكل ايات الوفاء والاحترام والتقدير انما يكرمون في شخصك كل اولئك الرجال الميامين من جنود الحق والقانون ممن نهلوا من معينك ونسجوا على غرارك فاوذوا انفسهم لمثل ما اذيت .

وليجزك اللهم كل مثوبة وخير ويمد في عمرك ويسبغ عليك موفور الصحة والعافية لتتابع رسالتك التي وهبتها زهرة العمر انه سميع مجيب .

الوثيقة ١٨/١١ | المعاهدة السورية ـ الفرنسية ١٩٣٦

إن حكومة الجمهورية الفرنسوية وحكومة الجمهورية السورية .

بناء على تصريح الحكومة الفرنسية أمام عصبة الأمم بقصدها عقد معاهدة مع الحكومة السورية معتبرة ما تم من التطور في سورية ونظراً للتقدم الذي تحقق في سبيل تثبيت سورية أمة مستقلة وبناء على اتفاق الحكومتين على تهيئة جميع الشروط لقبول سورية في عصبة الأمم في مهلة ثلاث سنوات ابتداء من مراسيم إبرام المعاهدة متبعتين في ذلك منهاجاً تام الصراحة قد اتفقتا لهذه الغاية على عقد معاهدة صداقة وتحالف لتحدد على أسس الحرية التامة والسيادة والاستقلال العلاقات التي تظل قائمة بين الدولتين زوال الانتداب . وعلى تعيين شروط تطبيق المعاهدة وأساليبه في الاتفاقات والبروتوكولات والمراسلات الملحقة بالمعاهدة و المعتبرة جزءاً غير منفصل عنها.

ولهذا الغرض قد انتدب كل من صاحب الفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية وصاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية مفوضين عنهما.

وبعد أن تبادلوا أوراق اعتمادهم ووجدوها صحيحة اتفقوا على ما يلي:

المادة الأولى ـ يسود بين فرنسا وسورية سلم وصداقة دائمان ويقوم تحالف بين الدولتين المستقلتين بالسيادة توثيقاً لصداقتهما وللصلات التي تجمع بينهما للدفاع عن السلم والمحافظة على مصالحهما المشتركة.

المادة الثانية ـ اتفقت الحكومتان على أن تتشاورا بصورة تامة وبدون تحفظ في كل أمر يتعلق بالسياسة الخارجية من شأنه أن يمس مصالحهما المشتركة.

الوثيقة ١٨/١١ ـ تابع

وقد تعهدتا بأن تقفا إزاء الدول الأجنبية موقفاً يلائم تحالفهما وبأن تجتنبا كل عمل من شأنه أن يسيء إلى علاقاتهما مع الدول الأخرى.

وتقيم كل منهما لدى الأخرى ممثلاً سياسياً.

المادة الثالثة – يتخذ الطرفان الساميان المتعاقدان جميع التدابير النافعة لتنتقل يوم زوال الانتداب إلى الحكومة السورية وحدها الحقوق والواجبات الناجمة عن جميع المعاهدات والاتفاقات وسائر العقود الدولية التي عقدتها الحكومة الفرنسية فيما يخص سورية أو باسمها.

المادة الرابعة – إذا أدى خلاف بين سورية ودولة أخرى إلى حالة من شأنها إحداث خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة ،تتداول عندئذ الحكومات لتسوية الخلاف بالطرق السلمية ،وفقاً لأحكام ميثاق عصبة الأمم ، أو لأي اتفاق دولي آخر ينطبق على مثل تلك الحال.

وإذا وجد أحد الطرفين الساميين المتعاقدين نفسه رغم التدابير المنصوص عنها في الفقرة السابقة مشتبكاً في نزاع ،يبادر حينئذ الطرف السامي المتعاقد الآخر فوراً إلى نجدته بصفته حليفاً، وفي حالة خطر حرب محدق يتداول الطرفان الساميان المتعاقدان فوراً لاتخاذ تدابير الدفاع الضرورية.

و معونة الحكومة السورية تنحصر في أن تقدم إلى الحكومة الفرنسية في الأراضي السورية كل ما في وسعها من التسهيلات والمساعدة بما فيه استعمال السكك الحديدية ومجاري المياه والمرافئ والمطارات وسطوح المياه وسائر وسائل المواصلات.

المادة الخامسة –إن مسؤولية حفظ النظام في سورية ومسؤولية الدفاع عن أراضيها هما على الحكومة السورية . والحكومة الفرنسية تقبل بتقديم مساعدتها العسكرية إلى سورية مدة المعاهدة، وفقاً لنصوص الاتفاق الملحق ، وتسهيلاً لقيام الحكومة الفرنسية بالواجبات المترتبة عليها من هذه المعاهدة تعترف الحكومة السورية بأن استمرار بقاء مسالك العبور ((الترانزيت))الجوية

الوثيقة ١٨/١١ ـ تابع

للحكومة الفرنسية التي تجتاز الأراضي السورية وصيانتها في جميع الظروف هي من مصلحة التحالف.

المادة السادسة -عقدت هذه المعاهدة لمدة خمس وعشرون سنة.

المدة ذاتها محددة للمعاهدة تكون للاتفاقات والعقود التطبيقية الملحقة ما لم ينص في متنها على مدة أقصر ، أو يتفق الطرفان السامیان المتعاقدان على إعادة النظر فيها مجاراة لأوضاع جديدة.

وتفتح المفاوضات لتجديد المعاهدة أو تعديلها إذا طلبت ذلك إحدى الحكومتين اعتباراً من السنة العشرين بعد وضعها موضع العمل.

المادة السابعة- تبرم المعاهدة ويتم تبادل صكوك الإبرام بأسرع ما يمكن وتبلغ إلى عصبة الأمم.

وتوضع هذه المعاهدة موضع العمل مع الاتفاقات والعقود الملحقة بها يوم قبول سورية في عصبة الأمم.

المادة الثامنة – حالما توضع هذه المعاهدة موضع العمل تسقط عن الحكومة الفرنسية المسؤوليات والواجبات المترتبة عليها فيما يتعلق بسورية جراء مقررات دولية أو من أعمال عصبة الأمم.

فيما يبقى من هذه المسؤوليات والواجبات ينتقل من تلقاء نفسه إلى الحكومة السورية.

المادة التاسعة- كتبت هذه المعاهدة بالفرنسية و العربية وكلا النصين رسمي ويعول على النص الفرنسي.

وإذا حصل اختلاف بشأن تفسير هذه المعاهدة أو تطبيقها ولم يمكن حسمه نهائياً عن طريق المفاوضة مباشرة، فالطرفان السامیان المتعاقدان متفقان على أن يلجأ إلى أصول المصالحة و التحكيم المنصوص عليها في ميثاق عصبة الأمم.

الوثيقة ١٨/١١ ـ تابع

الاتفاق العسكري

المادة ١ـ إن الحكومة السورية بحلولها محل السلطات الفرنسية تأخذ تحت مسؤوليتها القوى العسكرية المنظمة مع تكاليفها وواجباتها.

المادة ٢ـالحد الأدنى الذي يجب أن تحويه القوى العسكرية السورية هو فرقة مشاة ولواء خيالة والمصالح التابعة لها.

المادة ٣ـ تتعهد الحكومة الفرنسية بمنح الحكومة السورية بناء على طلبها التسهيلات التالية على حين تعود نفقاتها على الحكومة السورية:

(أ)وضع بعثة عسكرية تحت تصرف الحكومة السورية لجيشها وبحريتها وطيرانها العسكري، تحدد مهمة البعثة وتأليفها ونظامها بالاتفاق بين الحكومتين قبل وضع معاهدة التحالف موضع العمل،ولما كان من المرغوب فيه أن يكون التدريب والتعليم واحداً في جيشي الطرفين السامين المتعاقدين،فإن الحكومة السورية تتعهد بألا تستخدم سوى الفرنسيين بصفة معلمين واختصاصيين.
يطلب هؤلاء المعلمون الاختصاصيون من الحكومة الفرنسية ويرجع أمرهم في الإدارة و الانضباط العام إلى رئيس البعثة العسكرية.

يجوز أن يعهد إلى ضباط من البعثة العسكرية الفرنسية بقيادة فعلية مؤقتة في القوى العسكرية السورية بناء على طلب موجه إلى ممثل الحكومة الفرنسية وموافق عليه منه،وفي هذه الحال يرتبط هؤلاء الضباط بقيادة القطعة التي يلحقون بها في كل ما يتعلق بممارسة القيادة المعهود بها إليهم.

(ب)إرسال كل من ترى الحكومة الفرنسية ضرورة لإرساله للتعلم خارج سورية من رجال القوى المسلحة السورية إلى المدارس ومراكز التعليم وقطعات الجيوش الفرنسية وعلى ظهر السفن البحرية الفرنسية،إلا أنه من المفهوم أن الحكومة السورية تظل محتفظة بحريتها بأن ترسل

الوثيقة ١٨/١١ ـ تابع

إلى أي بلد آخر من لا يكون باستطاعة المدارس ومراكز التعليم الفرنسية قبولهم من هؤلاء الأشخاص.

المادة ٤-تسهيلاً لتنفيذ واجبات التحالف تتخذ الحكومة السورية لقواها المسلحة سلاحاً وعدد من الطراز المستعمل في القوى المسلحة الفرنسية،وتجهيز بقدر الضرورات تجهيزات من الطراز المستعمل في القوى المسلحة الفرنسية.

والحكومة الفرنسية تمنح جميع التسهيلات للحكومة السورية لتمكينها من أن تؤمن في فرنسة احتياجات القوى المسلحة السورية من أسلحة وعتاد وسفن وطيارات ولوازم وتجهيزات من أحدث طراز.

المادة ٥- عملاً بأحكام الفقرة التالية من المادة الخامسة من المعاهدة تتعهد الحكومة السورية بأن تضع تحت تصرف الحكومة الفرنسية لمدة التحالف مواقع لقاعدتين جويتين.

تختار الحكومة الفرنسية هذه المواقع في نقاط لا يقل ابتعادها عن المدن الكبرى الأربع عن أربعين كيلو متراً على وجه التقريب.

وبصورة وقتية يسمح للحكومة الفرنسية باستعمال مطاري النيرب و المزة كقاعدتين ويتم النقل إلى الموقعين الجديدين حالما يتم تهيئة القاعدتين الجديدتين بنفس شروط التجهيز و الانشاء الكائنة في القاعدتين القديمتين اللتين تصبحان ملكاً للحكومة السورية على أن تتحمل نفقات هذه العملية.

وفي ما عدا هاتين القاعدتين وريثما يصبح باستطاعة القوى الجوية السورية القيام بتعهد شؤون أراضي النزول المجهزة حالياً،تقبل الحكومة الفرنسية بأن تقدم مساعدتها لتعهد هذه الأراضي ومن المفهوم أن هذه المساعدة لا تخل بحقوق ملكية الحكومة السورية لهذه الأراضي.

والحكومة السورية تتعهد بأن تقوم بناء على طلب الحكومة الفرنسية وعلى نفقة هذه الحكومة وبالشروط التي يتفق عليها الطرفان السامیان المتعاقدان حرساً خاصاً من جنودها

الوثيقة ١٨/١١ ـ تابع

للتعاون مع القوى الفرنسية الموكول إليها تأمين سلامة القاعدتين وتجهيزهما مع الاختصاصين في القوى الجوية الفرنسية المخصصين وقتياً لتجهيز أراضي النزول الآنفة الذكر والاعتناء بها.

والحكومة الفرنسية تقبل بأن تستبقي لمدة خمس سنوات اعتباراً من تاريخ إنقاذ المعاهدة جنوداً في جبل الدروز والعلويين،وتحدد نقاط إقامة هذه الجنود باتفاق الحكومتين.

والحكومة السورية تضع تحت تصرف القيادة الفرنسية الوحدات القائمة في هاتين المنطقتين فتقوم هذه القيادة بتعهد شؤونها وتعليمها.والحكومة السورية تسهل استخدام ما يقتضي من الأشخاص المحليين لتأمين المحافظة على موجود تلك الوحدات.

ومن الواضح أن استبقاء الجنود الفرنسية في مختلف هذه النقاط لا يعد احتلالاً ولا يمس بحقوق السيادة السورية.

المادة ٦-تمنح الحكومة السورية كل ما يمكن من التسهيلات لتعهد القوى الفرنسية ولتعليمها ولتنقلاتها ومواصلاتها،سواء كان ذلك حول النقاط القيمة فيها،أو المرور من إحدى تلك النقاط إلى غيرها،وكذلك لنقل جميع المؤن والتجهيزات التي تحتاج إليها هذه القوى وخزنها.

وهذه التسهيلات تشمل استعمال الطرق والسكك الحديدية وطرق الملاحة والمرافئ والأرصفة والمطارات وسطوح المياه وحق الطيران فوق الأراضي واستعمال شبكات البرق والهاتف اللاسلكي، ولا يجوز في حال من الأحوال وضع تعرفة متفاوتة ضد الحكومة الفرنسية،وللسفن الحربية الفرنسية جواز عام في دخول المياه السورية و الرسو فيها وزيارة المرافئ السورية ،على أنه من المفهوم أن الحكومة السورية تتلقى بلاغاً مقدماً عن زيارة المرافئ السورية، والحكومة السورية تضع تحت تصرف الحكومة الفرنسية جميع المواقع والأمكنة اللازمة لاحتياجات القوى الفرنسية.

الوثيقة ١٨/١١ ـ تابع

توضع اتفاقات خاصة بأساليب تطبيق هذا النص وكذلك مختلف المسائل المتعلقة بالممتلكات العسكرية الفرنسية أو بالممتلكات التي لها عليها حق انتفاع،ولا يجوز أن ينتج تنفيذ هذه الاتفاقات زيادة في أعباء الحكومة الفرنسية المترتبة عليها حالياً.

المادة ٧- تنفيذاً للمادة الخامسة من معاهدة التحالف ومع التحفظ بالتعديلات التي قد يتفق الطرفان الساميان المتعاقدان على إحداثها في المستقبل تتعهد الحكومة السورية بأن تؤمن للقوى الفرنسية وللعسكريين والبحريين الفرنسيين المنفردين وكذلك للمستخدمين المدنيين وعائلاتهم المقيمة في الأراضي السورية بمقتضى التحالف الميزات و المناعات التي كان يتمتع بها في سورية هؤلاء العسكريون والبحريون والمدنيون حين وضع هذا الاتفاق موضع العمل.

المادة ٨-تتعهد الحكومة السورية بأن تسلم أراضي الطيران المحدثة من قبل السلطة الفرنسية في سورية في تاريخ وضع معاهدة التحالف موضع التنفيذ أو الأراضي التي يرى الطرفان الساميان المتعاقدان إحداثها ضروري للدفاع الجوي(وهي غير المؤسسات والأراضي المذكورة في المادة٥)وتأخذ على عاتقها تلك الأراضي جميعها والمحافظة عليها وتعين شروط أخذ تلك الأراضي باتفاقات خاصة. ولطيارات القوى الفرنسية بصورة عامة حق الطيران فوق الأراضي السورية تحت قيد مراعاة قواعد السير ذاتها المراعاة في فرنسا، وخاصة فيما يتعلق بالطيران فوق المدن والقرى وأماكن الاجتماع المرتادة، ولهذه الطيارات الانتفاع من أراضي الطيران وسطوح الأراضي السورية ويحق للحكومة الفرنسية أن تستبقي في هذه الأراضي أو أن تحدث ترتيبات تكون عليها نفقة إنشائها وتعهدها.

ويجوز للحكومة الفرنسية أن تقيم على المخازن والمعامل التي تحتفظ بها أو تحدثها اختصاصيين من القوى الجوية تفرزهم لهذه الغاية.

والحكومة السورية تمنح جميع التسهيلات لتعهد هذه المؤسسات والقائمين عليها.

الوثيقة ١٨/١٢ | بيان إعلان الجمهورية العربية المتحدة ١ شباط (فبراير) ١٩٥٨

في جلسة تاريخية عقدت في القبة في القاهرة في 12 من رجب سنة 1377 هـ الموافق أول فبراير سنة 1958، اجتمع فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية وسيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر يمثلي جمهوريتي سوريا ومصر السادة: صبري العسلي، عبد اللطيف البغدادي، خالد العظم، زكريا محي الدين، حامد الخوجة، أنور السادات، فاخر الكيالي، مأمون الكزبري، حسين الشافعي، أسعد هارون، الفريق عبد الحكيم عامر، صلاح الدين البيطار، كمال الدين حسين، خليل الكلاس، نور الدين طراف، صالح عقيل، فتحي رضوان، اللواء عفيف البزري، كمال رمزي استينو، علي صبري، عبد الرحمن المظم، محمود رياض.

وكانت غاية هذا الاجتماع أن يتداولوا في الإجراءات النهائية لتحقيق إرادة الشعب العربي، ولتنفيذ ما نص عليه دستورا الجمهوريتين من أن شعب كل منهما جزء من الأمة العربية. لذلك تذاكروا ما قرره مجلس الأمة المصري ومجلس النواب السوري من الموافقة الإجماعية على قيام الوحدة بين البلدين، كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة. كما تذاكروا ما توالى في السنين الأخيرة من الدلائل القاطعة على أن القومية العربية كانت روحاً لتاريخ طويل ساد العرب في مختلف أقطارهم، ولحاضر مشترك بينهم، وسلفق مأمول من كل فرد من أفرادهم.

وانتهوا إلى أن هذه الوحدة هي ثمرة القومية العربية وهي طريق العرب إلى الحرية والسيادة، وسبيل من سبل الإنسانية للتعاون والسلام. ولذلك فإن من واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأمنى إلى حيز التنفيذ، بعزم ثابت وإصرار قومي. ثم خلص المجتمعون من هذا كله إلى أن عناصر الوحدة بين الجمهوريتين المصرية والسورية وأسباب نجاحها، قد توافرت بعد أن جمع بينهما في الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحاً، وأمد أنها حركة بناء وتحرير وعقيدة وتعاون وسلام.

لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام وإيمانهم الكامل وخلقهم العميق في وجوب توحيد سوريا ومصر في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة.

كما يعلنون اتفاقهم الإجماعي على أن يكون نظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة ديمقراطياً رئاسياً، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة، بمعاونة وزراء يعينهم ويكونون مسؤولين أمامه. كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد. ويكون لهذه الجمهورية علم واحد، نظن نسبياً واحداً وجيشاً واحداً، في وحدة يتساوى فيها أبناؤها في الحقوق والواجبات، ويدعون جميعاً لحمايتها بالمهج والأرواح، ويتسابقون لتثبيت عزتها وتأكيد منعتها. وسيتقدم كل من فخامة الرئيس شكري القوتلي وجمال عبد الناصر ببيان إلى الشعب يلقى أمام مجلس النواب السوري ومجلس الأمة المصري، في يوم الأربعاء 16 من رجب سنة 1377 الموافق 5 من فبراير سنة 1958، يبسطان فيه ما انتهى إليه هذا الاجتماع من قرارات، وبشرحان أسس الوحدة التي تقوم عليها دولة العرب القوية.

كما سيدعى الشعب في مصر وسوريا إلى استفتاء خلال ثلاثين يوماً على أسس الوحدة وشخص رئيس الجمهورية.

والمجتمعون إذ يطلقون قراراتهم هذه، يحسون بأعمق السعادة وأجل الوان الفخر، إذ شاركوا في الخطوة الإيجابية في طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبة وجيلاً بعد جيل. والمجتمعون إذ يقررون وحدة البلدين، يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب، ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربي يريد أن يشترك معها في وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء، ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها. والله نسأل أن يكلأ هذه الخطوة وما يتلوها من خطوات بعين رعايته الساهرة، ويفضل عنايته الظاهرة، وأن يكتب للعرب في ظل هذه الوحدة العزة والسلام.

القاهرة في 12 من رجب سنة 1377 هـ

الموافق أول فبراير سنة 1958 م

---

* المصدر: وليد المعظم، سوريا 1918-1958، شركة بابل للنشر، دمشق 1985.

الوثيقة ١٨/١٣ | وسام أمية الممنوح للمرحوم أسعد هارون، بتوقيع رئيس الجمهورية السوريا شكري القوتلي

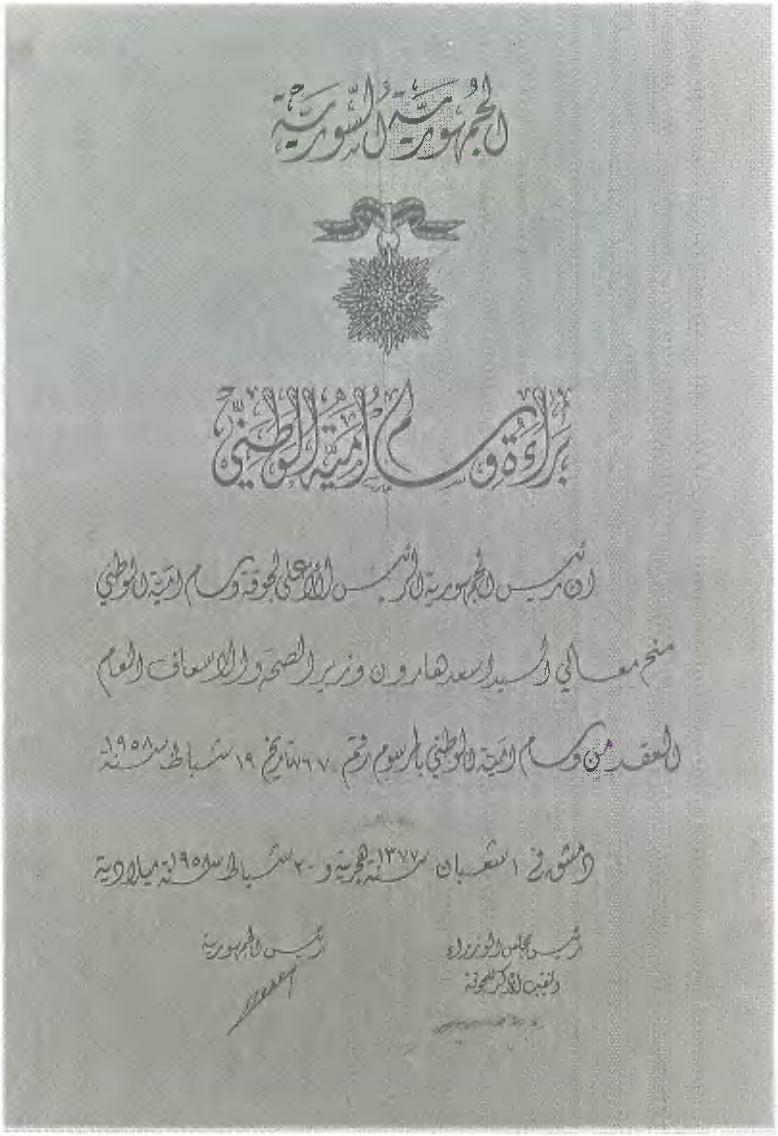
الجمهورية السورية

براءة وسام أمية الوطني

ان رئيس الجمهورية الرئيس الأعلى لجوقة وسام أمية الوطني

منح معالي السيد اسعد هارون وزير الصحة والاسعاف العام

العقد من وسام أمية الوطني بالرسوم رقم ٧٦٧ تاريخ ١٩ شباط سنة ١٩٥٨

دمشق في ١ شعبان سنة ١٣٧٧ هجرية و ٢٠ شباط سنة ١٩٥٨ ميلادية

رئيس مجلس الوزراء
وزير الداخلية

رئيس الجمهورية

الوثيقة ١٨/١٤ | **وسام ممنوح من قبل الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية للمرحوم أسعد هارون**

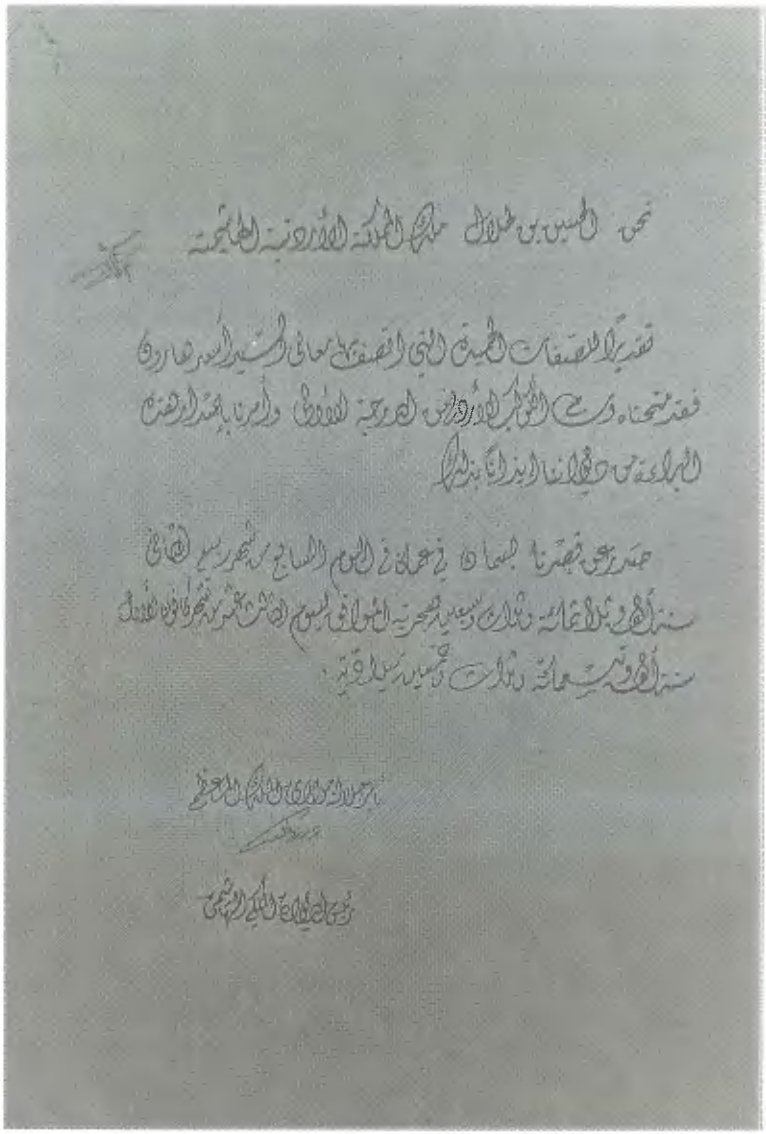

الوثيقة ١٨/١٥ | وسام وشاح النيل، ممنوح من الرئيس جمال عبد الناصر إلى المرحوم أسعد هارون بمناسبة توقيع الوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨

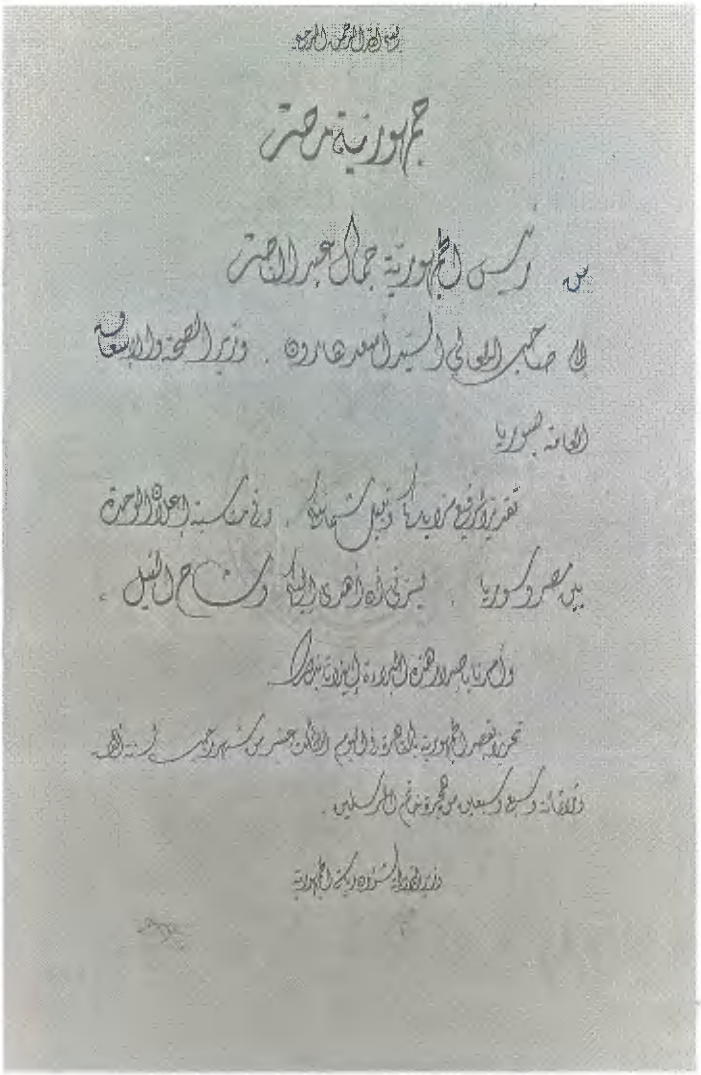

وثيقة ١٨/١٦ | وسام الجمهورية من الطبقة الأولى، مُنح من الرئيس جمال عبد الناصر إلى المرحوم أسعد هارون

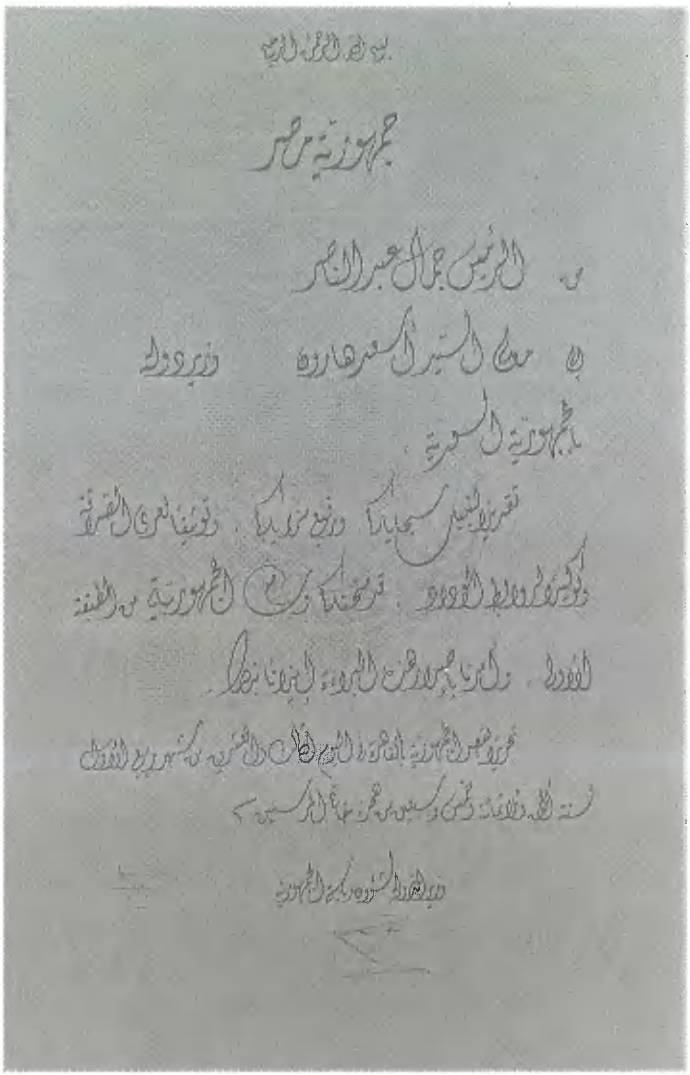
جمهورية مصر

الوثيقة ١٨/١٧ | في رثاء عبد الواحد هارون للشاعر بدر الدين حامد [1]

صمُّ النوازلِ في بعيدِ مَداهـا
عَطفتْ بأخراهـا على أولاهـا

تلك الليـالي الباكياتُ تلفعتْ
بسوادِهـا وتوشّحت بأسـاهـا [2]

ماشأنُ ذكراها وهذا الصبحُ في
آفاقـه يمحو دُجى ذِكراهـا [3]

رفت بآمـالِ البلادِ نسائمٌ
طـابت بهنّ وِهادُهـا ورُباها

---

(١) عبد الواحد هارون : مناضل قومي من مدينة اللاذقية ، والقصيدة نظمت سنة ١٩٤٤ .

(٢) تلفعت بسوادها : اكتست بسوادها . اساها : حزنها .

(٣) في البيت إشارة الى استقلال سورية سنة ١٩٤٣ وقيام الحكم الوطني فيها .

-٢٣٧-

الوثيقة ١٨/١٧ ـ تابع

فكأن أغصانَ الرياض عرائسٌ
وكأنّ أنفاسَ النسيم شذاها

يافرحةَ الشهداء في أجداثِهم
رفعوا لواهـا إذ هُمُ قتلاها

نحن الذينَ تقدمتْ أرواحُنا
في الساحِ قبلَ جسومِنا لفداها

واللهِ لم نخفِر قديمَ ذمامِها
واللهِ لم نخفلْ بثارِ عداها[1]

وربوعُ سوريةَ الحبيبةِ في العُلى
كتبت سجلَّ فخارِها بدمـاها

• • •

اللاذقيةُ في كريمِ نجارِها
نَمَتِ العُروبةُ أمّـا وأباها[2]

إنْ فرقونا والزمانُ مبادلٌ
هـل فرقوا أرواحنا وسُناها

(١) لم نخفر ذمامها : لم نخن عهدها وذمتها .
(٢) نجارها : أصلها .

الوثيقة ١٨/١٧ ـ تابع

اللهُ أكبرُ دارُنا وتُراثُنا
أيكونُ غاصبُها أمينَ بناهـا
انظرْ إلينا كيف نجمعُ شملَنـا
والدارُ تلبَس وشيَها وحُـلاها
والحقُّ مهما غـاب، أبلجُ واضحٌ
إنْ يستترْ فالمخطوبِ نداها[1]
كالشمسِ إنْ يُخفِ السحابُ جبينَها
فالكونُ مغمورٌ بفيضِ ضياها
. . .
ذكراكَ عبدَ الواحدِ ارتسمتْ على
حَبِّ القلوبِ وأشرقتْ بسَناهـا
إنْ غبتَ فالصور الجميلة لم تغبْ
خلبَ الزمـانَ بهاؤها فرعاها[2]
النُّبلُ فوق إطارها، والمجـدُ في
ألوانهـا ، والروح في مرآها

(١) استتر : خفي .
(٢) خلب : أصاب خِلبه أي قلبه وسلبه إياه ونتنه .

-٢٣٩-

الوثيقة ١٨/١٧ ـ تابع

بنتُ العروبةِ في سنائر خـدرها
نظمت حُلاها والزمان جلاهـــا
نم في ثراك فإنـــا لانشي
حتى نحقق مجـــدها وعلاها
وغداً نزفُ إلى ميادين الوغى
أُسداً تدير كؤوسها ورحاها
إنا نفضنا النوم عن أجفاننا
حسبُ الليالي الماضياتِ كراهـــا!(١)
في كلِّ دارٍ وثبـــةٌ وتحفزٌ
والوَحدةُ الكبرى يَزِفُّ لِواها
بَدءُ المَجادةِ وَحدةٌ عربيـةٌ
والخيرُ كلُّ الخيرِ في عُقباها

(١) الكرى: النوم

الوثيقة ١٨/١٨ أول جريدة تصدر في اللاذقية في عام ١٩١٠ لأصحابها السيد محمد مواهب الأزهري وأحمد رشيد الحكيم وبشراكة عبد الواحد هارون، مما يشير إلى أفق عبدالواحد هارون الحضاري والتقدمي وتشجعيه للتطور والنمو.

اللاذقية

سنة ١٣٢٧

جريدة سياسية أدبية تجارية زراعية

١٩١٠

إن حالة عدم الاستقرار والاضطراب السياسي التي شهدتها سوريا منذ أواخر الأربعينيات وحتى مطلع السبعينيات، وما جرى من أحداث بعد ذلك، إنّما يؤشر إلى صراع دولي محتدم على سوريا كانت القوى العالمية ووكلاؤها الإقليميون أطرافاً له ولاعبين على مسرحها، ولعلنا نقفز إلى استنتاج أوّلي وبديهي مؤداه أنّ هذا الصراع لا بدّ أنه يخفي الأهمية التي توليها هذه القوى لسوريا موقعاً وتأثيراً، كونها تقع على تخوم الأناضول، وبوابة العراق والأردن، والخليج العربي بل وإيران إلى البحر المتوسط، والمعبر الإلزامي لخطوط نقل النفط والغاز إلى هذا البحر الصغير بمساحته الكبير بأهميته التي تتعدّى الموقع لتصل إلى التأثير الثقافي والإنساني بالمحيط حوله، والشواهد كثيرة وعديدة في هذا الخصوص.

وإذا كان هذا التأثير قد خفت فيما بعد بتأثير المدّ الناصري ثم بانتقال مراكز الثقل السياسي شرقاً بتأثير تداعيات الثروة النفطية، إلّا أنّ الشواهد أثبتت عبر أمثلة عديدة أهمية الكيان السوري في تشكيل وضع المنطقة سياسياً وفكرياً.

المؤلف

نزار أسعد هارون

ولد في اللاذقية عام ١٩٣١. انتسب إلى كلّية الحقوق بجامعة دمشق وتخرج فيها عام ١٩٥٥. عمل بمهنة المحاماة بعد تخرجه ولا يزال. تفتّح وعيه السياسي والعام من خلال مرافقته لوالده السياسي السوري أسعد هارون أحد أقطاب الحزب الوطني في الساحل.

- **اختير عضواً في مجلس أمناء مؤسسة القدس.**
- **انتخب عضواً متمماً بمجلس نقابة المحامين في الستينيات.**
- **يحمل درع التكريم من وزارة العدل ونقابة المحامين عام ٢٠١٠.**
- **عضو لجنة وضع قانون التجارة البحرية السوري عام ٢٠٠٦.**

ISBN-13: 978-614-432-703-6
9 786144 327036